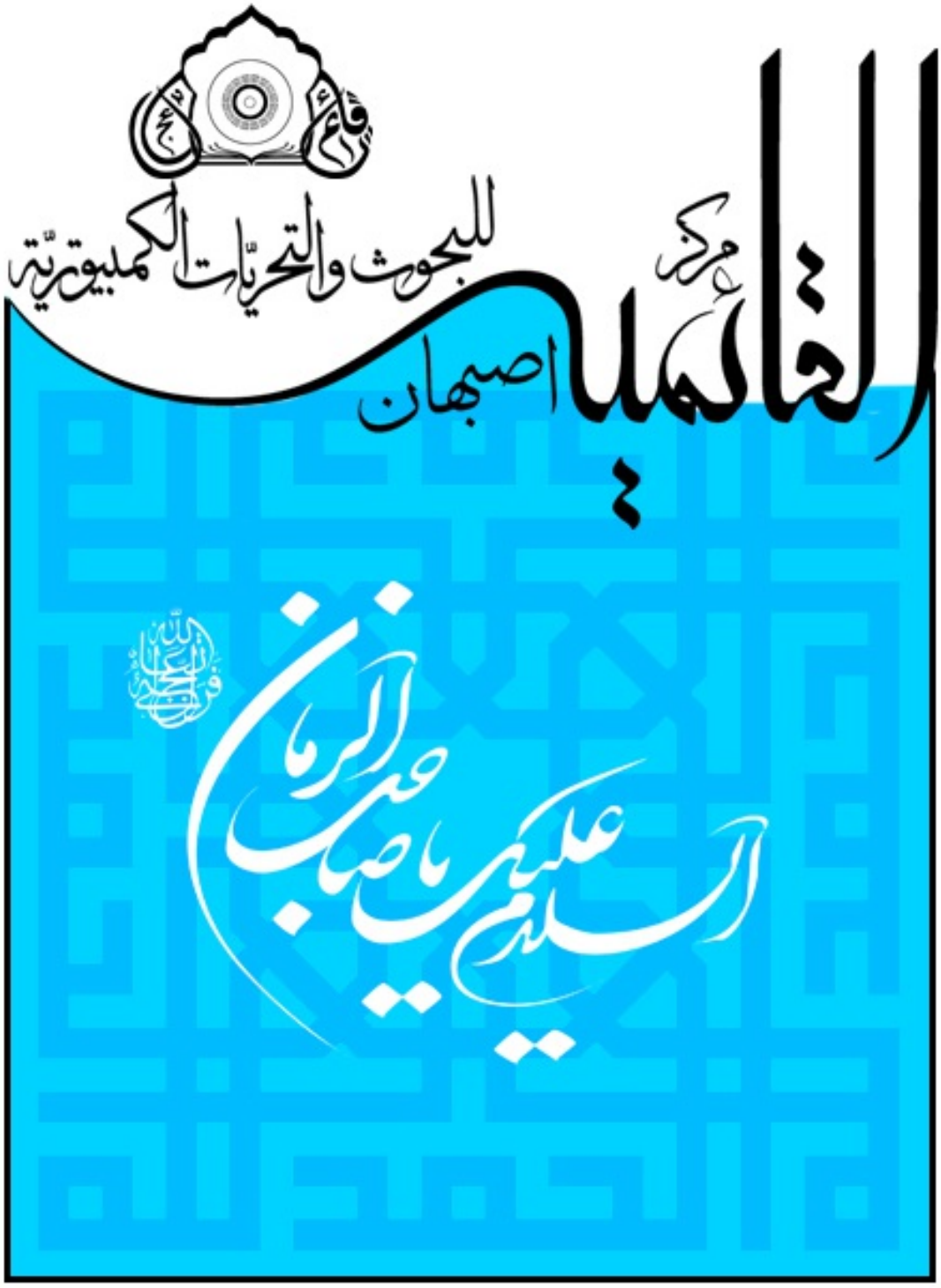

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

ميقات الحج

٢٩

مجلة تعنى بدراسة الحج
بالشؤون الثقافية والتاريخية
والسياسية والاجتماعية للحج

محرم - جمادى الثانية
١٤٢٩هـ - السنة ٨

- الحج رموز و حكم (٢)
- حجة الوداع... خطب وأدعية
- رسالة «نهاية الحج» دائر نقشت مدينة إدريد الحلي
- توسعة المسعى دراسة فقهية تاريخية بيئية ميدانية
- فقه الحج الضرورات و الحاجات (٢)
- علماء الحرم الشريف، نشر النور والزهر نموذجاً
- أبو سعيد الخدري
- أهمية الاستفادة من إدارة الحشود الحج الحالي

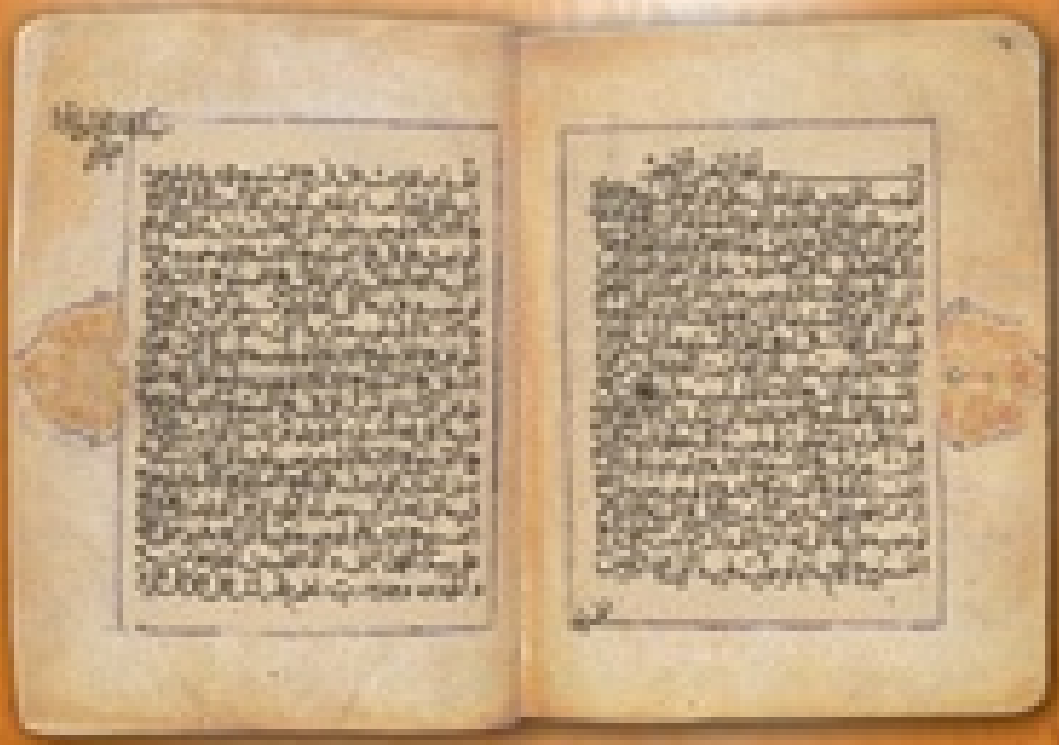

بسم الله الرحمن الرحيم

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
میقات الحج-المجلد ۲۹ ----- ۶
اشارة ----- ۶
اشارة ----- ۶
ملاحظات ----- ۹
الحج رموزٌ و حِکم (۶) ----- ۱۰
حجة الوداع ... خطب و إرشاد ----- ۲۵
رسالة «نیات الحج» ----- ۵۴
توسعة المسعی دراسة فقهیة تاریخیة بیئیة جیولوجیة ----- ۵۷
قراءة فی سورة الحج ----- ۸۳
فقه الحج الضرورات و الحاجات (۱) ----- ۱۰۵
وُلد الهدی ----- ۱۱۴
علماء الحرم الشریف، نشر النور والزهر نموذجاً ----- ۱۳۵
أوّل بیت ----- ۱۴۲
شخصیات من الحرمین الشریفین (۲۳) أبو سعید الخدری ----- ۱۷۰
أجوبة الاستفتاءات آیةالله العظمی السید علی الخامنئی ----- ۱۹۴
تعریف مرکز ----- ۱۹۶

میقات الحج-المجلد ۲۹

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : میقات‌الحج : مجله نصف سنویه، تعنی بالشوون الثقافیه .....محمد محمدی‌ری‌شهری.

مشخصات نشر : [بی‌جا: بی‌نا، ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵.

مشخصات ظاهری : ۳۰۰ص.:نمونه، عکس.

شابک : ۵۰۰۰ ریال

وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی توصیفی

یادداشت : عربی.

یادداشت : شماره پنج این مجله بنام میقات الحج است.

یادداشت : پشت جلد به انگلیسی: Mighat al - Haj.

یادداشت : کتابنامه.

شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵ -، مدیر مسئول

شناسه افزوده : قاضی‌عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵ -

شماره کتابشناسی ملی : ۱۵۴۲۸۹۶

ص: ۱

اشارة

ص: ۲

ص: ۳

ملاحظات

ص: ۴

يرجى من العلماء والمحققين الأفاضل الذين يرغبون فى التعاون مع المجلة أن يراعوا عند إرسال مقالاتهم النقاط التالية:

۱- أن تقترن المقالات بذكر المصادر والهوامش بدقّة وتفصيلٍ.

۲- أن لا تتجاوز المقالة ۴۰ صفحة وأن تكون مضروبة على الآلة الكاتبة إن أمكن أوأن تكتب بخط اليد على وجه واحد من كلّ ورقة.

۳- أن تكون المادّة المرسلة للنشر فى المجلة غير منشورة سابقاً وغير مرسلة للنشر إلى مجلة أخرى.

۴- تقوم هيئة التحرير بدراسة وتقييم البحوث والدراسات المقدمة إلى المجلة، ولهاالحقّ فى صياغتها وتعديلها بما تراه مناسباً مع مراعاة المضمون والمعنى.

۵- يعتمد ترتيب البحوث والمقالات فى المجلة على أسس فنيّة وليس لأسباب أخرى.

۶- تعتذر هيئة التحرير عن إعادة المقالات إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تنشر.

۷- المقالات والبحوث التى تنشر على صفحات المجلة تمثل وجهات نظر وآراء كتّابها.

۸- ترسل جميع البحوث والمقالات على عنوان المجلة فى طهران.

۹- ترحّب هيئة التحرير فى مجلة ميقات الحج بملاحظات القرّاء الكرام ومقترحاتهم.

ص: ۵

الحج رموزٌ و حِكم (۶)

الشيخ عبدالله جوادى آملى

الحجر الأسود

السرّ فى تشبيه الحجرالأسود بمقام الرسول الأكرم ۹

تضم الكعبة المطهرة أربعة اركان و ترتيبها حسب الطواف كما يلى: ركن الحجرالأسود، الركن العراقى، الركن الغربى والركن اليمانى. و المسافة بين الحجرالأسود وباب الكعبة تُعرف ب- «الملتزم». قال الإمام الصادق ۷: «هو الموضع الذى تاب الله فيه على آدم». (۱) و «المستجار» موضع يقع إلى جانب الركن اليمانى، بمحاذاة الملتزم، حيث يتعلق الزائرون بأستار لطف الله تعالى. وقد عبّر أمير المؤمنين الإمام على ۷ عن سرّ التعلق والتشبث بأستار الكعبة ومعنى ذلك بقوله: «هو مثل رجلٍ له عند آخر جناية وذنبٌ فهو يتعلّقُ بثوبه يتضرّع إليه و يخضع له أن يتجافى له عن ذنبه» (۲).

يقع الحجرالأسود إلى يسار الزائر الذى بإزاء باب الكعبة ومقام إبراهيم ۷ على يمينه (وإن كان مقام إبراهيم يقع الآن خلف الزائر المفترض) ولكن بالنسبة للكعبة نفسها، فلو افترضنا أن وجه الكعبة يقع قبالة الناس وجهاً لوجه من الجدار الذى يقع فى باب الكعبة، فإن الحجرالأسود يقع إلى يمين بيت الله الحرام و مقام إبراهيم إلى يساره.

يقول الإمام الصادق ۷ مبيناً سرَّ الأمر المذكور، مجيباً على هذا السؤال: لماذا يستلم الناس الحجرالأسود و الركن اليمانى من بين أركان الكعبة فقط؟ فقال: لأنها بمنزلة يمين عرشه (۳) و الله سبحانه وتعالى أمر باستلام كل ما هو على يمين عرشه.

ثم قال مجيباً عن السبب فى وقوع مقام إبراهيم على الجانب الأيسر: لأن «لكل من النبى إبراهيم ۷ و الرسول الأكرم ۹ مقاماً خاصاً فى يوم القيامة، ومقام محمد ۹ عن يمين عرش ربنا عزوجل و مقام إبراهيم ۷ عن شمال عرشه ...» (۴).

والحجرالأسود، هو المقام الذى يستند إليه الإمام المهدى [عندما يبايعه الناس، فى بداية ثورته العالمية لبسط العدالة. وكما عبر الإمام الصادق ۷ عن ذلك قائلًا: «... وإلى ذلك المقام يسند القائم ظهره، و هو الحجة و الدليل على القائم، و هو الشاهد لمن وافاه فى ذلك المكان، والشاهد على من أدّى إلى الميثاق والعهد الذى أخذ الله عزوجلّ على العباد» (۵).

نزول الحجر الأسود من الجنّة

۱- وسائل الشيعة ۵۳۹: ۳.

۲- نفس المصدر ۱۶۰ ۱۵۹: ۸.

۳- قال الرسول الأكرم ۹: «ما أتيت الركن اليمانى إلا- وجدت جبرئيل قد سبقنى إليه يلتزمه». وقال الإمام الصادق ۷ أيضاً: «الركن اليمانى باب من أبواب الجنة لم يغلقه الله منذ فتحه». «الركن اليمانى بابنا الذى ندخل من الجنة.» «الركن اليمانى على باب من أبواب الجنة مفتوح لشيعة آل‌محمد، مسدود عن غيرهم، و مامن مؤمن يدعو بدعاء عنده إلّاصد دعاؤه حتى يلصق بالعرش ما بينه وبين الله حجاب.» وسائل الشيعة ۴۱۹: ۹- ۴۲۲.

۴- البحار ۳۳۹: ۷.

۵- الكافى ۱۸۵: ۴.

ص: ۶

بناءاً على ما جاء فى بعض الروايات، فإن الحجر الأسود قد نزل من الجنة، وكان فى البداية أبيض اللون، واسودّ تدريجياً على أثر استلامه من قبل المذنبين، حتّى أصبح كما هو عليه الآن: «... كان ملكاً من عظماء الملائكة عندالله ...»، «إنّ الحجر كان درّةً بيضاء فى الجنة ...»، «... وكان أشدّ بياضاً مِنَ اللبن فاسودّ من خطايا بنى آدم، ولولا ما مسّه من أرجاس الجاهلية ما مسَّه ذو عاهةٍ إلا برأ» (۱).

بعض المفسرين الذين يبحثون عن تبريرٍ أو تفسير مادىّ لأى ظاهرة من الظواهر، قالوا فى معرض نفيهم لهذا النوع من الروايات: نزول الحجر من السماء أو الجنّة، لا معنى له!! (۲).

وفى الردّ على هذا الكلام و نقده لابد من القول (۳): ما يؤيد الروايات التى تدور حولها بعض الإشكالات، الآيات التى ورد الحديث فيها عن إنزال النعم الإلهية من خزائن الغيب، كقوله تعالى: (وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)، (۴) (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ) (۵) و (وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ) (۶) فكلمة «الإنزال» ليست بمعنى الخلق، بل هى بمعنى التنزيل والإنزال الواقعى من وراء الطبيعة إلى عالم الطبيعة كنزول القرآن فى ليلة القدر. ولكن المراد هنا، الإنزال على نحو التجلّى، و ليس بصورة التجافى، مثل نزول الثلج والمطر. أى لايعنى الأمر نفاد المخازن الإلهية و خلوّها من الموجودات، بعد تنزلها إلى عالم الطبيعة من العالم الأعلى؛ لأن خزائن الله لايعتريها النقصان أو النفاد؛ (ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللهِ باقٍ) (۷). والوجود الغيبى لهذه الأشياء وجود نورانى وتحمّل ذلك أمرٌ غير ميسور للجميع. من هنا فإن ظهورها فى هذه النشأة اقترن بتنزّل مرتبتها الوجودية. ولكن حرمة و كرامة الموجودات المتنزلة من الخزائن الإلهية واحدة بلحاظ تباين درجات تلك الخزائن. مثلما يعتبر الحجر الأسود حالةً خاصةً.

وبناءاً على ذلك، فإن مجرّد الاستبعاد العلمى لمسألة هبوط الحجر الأسود من الجنّة لا قيمة له؛ لأن دراسة السير الأفقى للموجودات و ماضيها و حاضرها و مستقبلها الطبيعى يتم فى نطاق العلوم ا لطبيعية، ولكن السير العمودى للأشياء والموجودات والنقاش حول العلة الفاعلية و الغائية لها تقع خارج نطاق العلوم الطبيعية، مهما توصلت هذه العلوم إلى تطورات ملحوظة فى هذا الجانب.

ونستنتج من ذلك أولًا: إن الحجر الأسود من أحجار الجنّة والسماء، كما ورد ذلك فى العديد من الروايات المعتبرة.

ثانياً: لا يوجد دليل عقلى أو نقلى يدل على خلاف ذلك.

وبناءاً على ذلك، فإن إثبات المسائل الاعتقادية على الرغم من أنه لا يمكن أن يتحقق بالاستناد إلى الخبر الواحد، ذلك أنها تحتاج إلى القطع واليقين ولا يمكن الاكتفاء فيها بالظّن، لكن بالمقابل لايوجد أىّ وجه لإنكار تلك الروايات و رفضها.

شهادة الحجر الأسود يوم القيامة

الحجر الأسود كالمسجد، يشهد يوم القيامة لصالح البعض، و هو آيةٌ من آيات الله البيّنات إلى جانب الكعبة (۸)، ويمين الله عزّ وجلّ فى الأرض واستلامه بمنزلة البيعة لله تعالى؛ «هو يمين الله عزّ و جلّ فى أرضه يبايع بها خلقه» (۹).

وكما قال أميرالمؤمنين الإمام على ۷ فى ردّه على من قال عند استلام الحجر: أعلم بأنك لا تضر و لا تنفع ولكنى أحبك لحب رسول الله ۹ لك، فقال ۷: والحجر الأسود من الشهداء أيضاً يوم القيامة؛ «فوالله ليبعثنَّه اللهُ يومَ القيامة و له لسانٌ و شفتان فيشهد لمن وافاه» (۱۰)، كما أكّد الإمام الصادق ۷ فى ردّه على ذلك الظنّ فقال: «كَذِبَ ثمَّ كذب ثمَّ كذب. إنَّ للحجر لساناً ذلقاً يوم القيامة يشهد لمن وافاه بالموافاة» (۱۱).

تنبيه: هذا النوع من الأحاديث المأثورة، والتى تصرّح بمنفعة الحجر الأسود ونحوه، يعود إلى كونه وسيلة ذات تأثير معين و الذى تجسّد بلطف الله و بركاته على هذا الحجر، و عدا ذلك فإن أيّاً من أحجار الكعبة وأمثالها ليست ضارّة بذاتها أو نافعة، كما عبّر أميرالمؤمنين ۷ بشأن سلب تأثيرها الذاتى فقال ۷: «... أحجار لاتَضُرُّ و لا تنفَع و لا تبصر و لا تسمع» (۱۲).

ألحطيم و حجرُ إسماعيل

«الحطیم» منطقة محدّدة بین الحجر الأسود، وباب الکعبة و مقام إبراهیم ۷، ولکن قیل فی بعض الروایات، بأنها المسافة بین الحجرالأسود وباب الکعبة فقط (۱۳). وحول السرّ فی تسمیة هذا المکان بالحطیم، قال الإمام الصادق ۷: «لأن الناس یحطم بعضهم بعضاً» (۱۴).

والحطیم أفضل الأماکن حول الکعبة؛ فبعد أن ذکر الإمام الباقر ۷ حدوده قال موضحاً هذه القضیة المتعلقة بالحطیم: «إنَّ أفضلَ البقاع ما بین الرکن الأسود و المقام وباب الکعبة، و ذاک حطیم إسماعیل، ووالله لو أنَّ عبداً صفَّ قدمیه فی ذلک المکان و قام اللیل مصلِّیاً حتی یجیئه النَّهارُ و صامَ النهار حتی یجیئه اللیل و لم یعرف حقَّنا و حرمتنا أهلَ البیت، لم یقبل الله منه شیئاً أَبَداً» (۱۵).

والحطیم محل نزول جبرئیل ۷ و وقوفه بین یدی بقیة الله الأعظم إمام العصر والزمان [. کما ورد ذلک عن الإمام الصادق ۷ قال: «عندما یأذن الله سبحانه وتعالی بخروج القائم [... یبعث إلیه جبرئیل ۷؛ فیهبط جبرئیل علی الحطیم ... و یقول: أنا أوّل من یبایعک ...» (۱۶).

ویقول الأستاذ العلامة الطباطبائی ۱ کغیره من المحققین: الحطیم هو ذلک الجدار المقوس إزاء المیزاب الذهبی (۱۷). کما یُفهم من بعض الروایات أن جماعة یسمّون «حجر إسماعیل» الذی یقع بین الرکن العراقی و الرکن الغربی بالحطیم. و هذا ما ورد عن الإمام الصادق ۷ فی جوابه للسائل الذی سأل عن حجر إسماعیل، فقال ۷:

۱- وسائل الشیعة ۴۰۳: ۹- ۴۰۷.

۲- البحار ۴۶۶: ۱- ۴۶۸.

۳- المیزان ۱۹۰: ۲- ۱۹۵.

۴- الحجر: ۲۱.

۵- الزمر: ۶.

۶- الحدید: ۲۵.

۷- النحل: ۹۶.

۸- وسائل الشیعة ۳۴۶: ۹.

۹- المصدر نفسه: ۴۰۵- ۴۰۶.

۱۰- المصدر نفسه: ۴۰۶.

۱۱- المصدر نفسه: ۴۰۶.

۱۲- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲، الفقرة ۵۴ ۵۳. و قد مرَّ ذکر نص هذا الحدیث الشریف و ترجمته فی الفصل الثالث من القسم الأول فی موضوع «صورة الحج فی الروایات». فراجع.

۱۳- الکافی ۵۲۵: ۴؛ وسائل الشیعة ۵۳۹: ۳.

۱۴- وسائل الشیعة ۵۳۹: ۳.

۱۵- وسائل الشیعة ۱۲۳: ۱.

۱۶- البحار ۳۳۷: ۵۲- ۳۳۸.

۱۷- المیزان ۳۶۰: ۳.

ص: ۷

«إنَّكم تسمونَهُ الحطيمَ، وَانّما كان لغَنَم إسماعيلَ، وَانَّما دَفَنَ فيه أمَّهُ و كرهَ أن يُوطَأَ قَبرها فحجَر عليه، و فيه قبورُ أنبياء» (۱).

ومن بين الوجوه المحتملة بشأن السرّ فى تسمية الحطيم بهذا الإسم، والذى اشير اليه أيضاً فى الرواية المذكورة، أن النبى إبراهيم ۷ كان يهشّم (۲) التبن والعلف هناك لإطعام أغنامه، ويسمّون العلف بالحطيم والتبن بالحطام؛ لأن المحطوم هو الذى تم تهشيمه وتكسيره. ونقلت فى بعض الكتب اللغوية وجوه أخرى أيضاً فى سبب تسمية حجر إسماعيل بالحطيم. وفيها: أن هذا الجزء قد فُصِلَ و كُسِّرَ عن البيت. والآخر أن الأعراب فى الجاهلية، كانوا يلقون الملابس التى كانوا يلبسونها حال الطواف فى ذلك المكان و كانت تتحطم و تبلى تدريجياً (۳).

«حجر إسماعيل» الذى يعدّ من آيات الله البينات (۴)، هو مدفن إسماعيل ومجموعة أخرى من أنبياء الله (۵)، و هو مدفن أم إسماعيل و بناته:، و قد حجر ۷ أطراف قبر أمه هاجر كى لا يطأه الطائفون (۶)، و حجر إسماعيل ليس قبلة ولكنه فى ضمن المطاف كالكعبة، احتراماً لتلك القبور، و الطواف فى داخله باطل.

وحجر إسماعيل من أفضل الأماكن فى المسجد الحرام لأداء الصلاة فيها (۷). كما كان المكان الذى يصلى فيه شبر و شبير أولاد هارون ۷ (۸)، وصلّى فيه الأئمة المعصومون: أيضاً (۹)، وكانوا يدعون الله فيه بخالص الدعاء (۱۰). كما كانوا يستقبلون الناس هناك ويجيبون على أسئلتهم واستفساراتهم (۱۱). و قد نصب ميزاب الكعبة فوق حجر إسماعيل. وقد ورد الحديث فى بعض الروايات، عن الشفاء بماء المطر الذى ينزل من هذا الميزاب (۱۲). وآخر الكلام عن حجر إسماعيل أنه يستحب للحاجّ أن يُحرم منه.

مقام إبراهيم ۷

إحدى العلامات والآيات البيّنات لله تعالى فى مكة «مقام إبراهيم». مثلما أشار الإمام الصادق ۷ فى بيان المراد من كلمة «بيّنات» فى الآية المباركة: فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ (۱۳)، فقال ۷: «مقام إبراهيمَ حيث قامَ على الحجر فأثَّرت فيه قدماه، و الحجر الأسوَدُ، و منزِلُ إسماعيل ۷» (۱۴). و كان هذا الحجر موضوعاً فى البداية على وجه الأرض بشكل طليق إلى جوار الكعبة. ثم وضعوه فى الملتزم لكى لاينقل من مكانه. و موضع المقام الآن مُبرَّزٌ أيضاً وموضوع بداخل صندوق معدنى، ومنقوش على جبهة الشريط المعدنى الذى وضع الحجر على حافته جملة نورانية تقول: وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (۱۵) حيث يمكن رؤيتها و قراءتها من قبل الجميع بكل وضوح، مما يدلل على حُسن تدبير المسؤولين عن الحرم.

مسألة تغيير مقام إبراهيم وردت فى بعض الأحاديث؛ حيث قال الإمام الباقر ۷:

كان المقام فى البدء، بالقرب فى جدار الكعبة. و قاموا بنقله قبل الإسلام إلى موضعه الحالى. وأعاده الرسول الأكرم ۹ بعد فتح مكة إلى موضعه الأصلى، ولكن تغيّر مكانه مرةً أخرى فى عصر الخلفاء: «كانَ مَوضِعُ المقام الذى وَضَعَهُ إبراهيم ۷ عِندَ جِدارِ البيتِ فلم يزل هناكَ حَتّى حَوَّلَهُ ...». ولكن بما أنَّ الوضع الموجود اقِرَّ من قبل الأئمة المعصومين: ولم ينتقد أهل بيت النبوة: ما يترتب على هذا الوضع من حكم فقهى، نفهم من ذلك أن إقامة صلاة الطواف عند الموضع مبرءة للذمة.

وقد قال الإمام الباقر ۷ فى صدر الرواية المذكورة: فى السنة التى جرف فيها السيل المسجد الحرام كنت فى مكة مع الإمام الحسين ۷ (۱۶). و خاطب الإمام الحسين ۷ الناس الذين كانوا خائفين من زوال مقام إبراهيم ۷ قائلًا: اعلموا! أنّ السيل لن يجرف مقام إبراهيم أبداً؛ لأن الله قد جعله عَلَماً وآيةً له؛ «أنَّ الله قد جَعَلَهُ علماً لم يكن ليذهَبَ به» (۱۷).

الملاحظة الجديرة بالإشارة هنا، أنه لايمكن اعتبار جميع الآيات التى وردت بشأن مكة على أنها وردت من باب المعجزة وخلافاً للعادة و الطبيعة، استناداً إلى هذه الآية المباركة فى قوله تعالى: فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ بما فيها هذه الآية الشريفة؛ لأن المراد بالآية، ليس فقط المعجزة من قبيل معجزة ناقة صالح ۷، و شقّ القمر و نحو ذلك، بل الآية بمعنى العلامة والأمارة التى تدلّ على الحق وتذكّر الناس بذلك، سواء كانت تكوينية أم تشريعية أم كليهما معاً. وكما قال بعض المفسرين: إن جملة وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً هى من باب التفصيل

بعد الإجمال ومصداق لآيات بينات مذكّرَةً بالحق و من العلامات الإلهية، دون أن يكون فى البين أمرٌ خارقٌ للعادة.

فإذا صارَ «مقام إبراهيم» بياناً لقوله تعالى: فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ، فإن المستفاد منه ما يلى: كما أن إبراهيم ٧ كان لوحده أمة؛ إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلهِ حَنِيفاً (۱۸)، فإن آثار أقدامه و مقامه أيضاً لوحدهما آيات بيّنات و «أمة واحدة» فى موضوع الإعجاز (۱۹).

ولعل السرّ فى التعبير بصيغة الجمع يتمثل فى أنّه:

أوّلًا: إن الحجر الصلد والقوى أصبح كالعجين فى تغيير شكله.

ثانياً: المكان المحدد لذلك أصبح على شكل العجين، و ليس كل الحجر.

ثالثاً: تقبّله لآثار الأقدام إلى عمق معين والبقيّة بقيت بحالتها الصخرية.

رابعاً: بقى محفوظاً من سرقة جميع الطغاة الذين أرادوا إخفاء هذا الأثر ومحوه.

خامساً: بقى محفوظاً من سرقة سرّاق القطع الفنية والأثرية الذين هم بصدد سرقة المواد النفيسة ذات القدم و القدامة (۲۰).

۱- وسائل الشيعة ۴۳۱: ۹.

۲- البحار ۸۶: ۶۵.

۳- لسان العرب ۱۳۷: ۱۲- ۱۴۰ حطم.

۴- الكافى ۲۲۳: ۴.

۵- وسائل الشيعة ۴۳۰: ۹.

۶- الكافى ۲۱۰: ۴.

۷- الكافى ۵۲۵: ۳؛ وسائل الشيعة ۵۳۹: ۲.

۸- وسائل الشيعة ۵۳۹: ۲.

۹- الكافى ۱۸۸: ۴؛ وسائل الشيعة ۲۷۴: ۵.

۱۰- الكافى ۲۱: ۷.

۱۱- المصدر نفسه ۲۶۰: ۱، ۳۷۹، و ۲۱: ۷ و ۲۳۲: ۸ و ۲۷۱؛ وسائل الشيعة ۴۱۹: ۱۳.

۱۲- الكافى ۳۸۷: ۶.

۱۳- آل عمران: ۹۷.

۱۴- الكافى ۲۲۳: ۴.

۱۵- البقرة: ۲۵۵.

۱۶- كما مرَّ، فإن هذه الرواية بحاجة إلى تحقيق تاريخى من حيث مقدار عمر الإمام الباقر ۷.

۱۷- الكافى ۲۲۳: ۲.

۱۸- النحل: ۱۲۰.

۱۹- الكشاف ۳۸۷: ۱.

۲۰- المصدر نفسه: ۳۸۷- ۳۸۸، مع قليل من التصرف.

ص: ۸

والـذین یقولون بـأن قوله تعـالی: آیاتٍ بَیِّناتٍ إنما هو إشارةٌ لآیاتٍ أخری متعـددة، وبالإضافـة إلی مقام إبراهیم وجعل هـذا البلـد آمناً بسـکانه و زائریه، فـإنهم ذکروا أموراً أخری أیضـاً من الآیات العلنیـة لله سـبحانه وتعالی فی مکـة و الحرم الإلهی، والتی لم یتم ذکرها بشکل منفصل بسبب وضوحها وعدم تصریح الله سبحانه وتعالی بها (۱)؛

أموراً من قبیل: ۱- عـدم تحلیق الطیور فوق الکعبة و انحرافها أثناء الطیران عن فضاء الکعبة، ۲- عدم تلویث الطیور للکعبة، ۳- تعایش أنواع الحیوانات فی الحرم و عـدم تعرض الحیوانات المفترسة لغیرها، ۴- تورط الظلمـة الذین أرادوا سوءاً بالکعبة و قهرهم من قبل الله تعالی، مثل أصحاب الفیل، ۵- عدم إصابة الحجیج بالتعب والإرهاق النفسـی، علی الرغم من مجیئهم من أماکن بعیدة و بصعوبة بالغة و بشکل متکرر أیضاً.

وبناءاً علی ذلک، ولغرض بیان أهمیـة مقام إبراهیم خاصـة، فإن الله سـبحانه وتعالی یذکر مقام إبراهیم ۷ بشـکل مستقل، من باب ذکر الخاص بعد العام، بعد ذکر الآیات الأخری علی وجه العموم.

کیفیة تکوّن مقام إبراهیم

هناک عدة احتمالات بشأن کیفیة تکوّن مقام إبراهیم ۷ ومنها:

۱- وقوف النبی إبراهیم ۷ علی هـذا الحجر أثناء القیام ببناء الکعبـة. وعن طریق الإعجاز الإلهی أصـبح الحجر آنذاک لیناً و قابلًا لبروز الآثار علیه؛ فبقی أثر الأقدام علیه (۲).

۲- عنـدما عاد للمرة الثانیـة إلی مکـة قالت زوجة إسـماعیل ۷: ترجّـل کی أغسـل رأسک، وعنـدما ترجّلَ ۷، وضع قـدمه علی الحجر وأحدث أثراً فی ذلک الحجر (۳).

وعلی أیة حال، فإن حقیقة وضع إبراهیم ۷ قدمه علی الحجر الصلد وانغماس أثر قدمه المبارکة و بقاء هذا الأثر فی ذلک الحجر.. یعدّ من الأمور المسلّم بها والتی اعتبروها معجزة له ۷ (۴).

وقد ورد ذکر مشابهٍ لهذه الخاصیّة، بشأن النبی داود ۷، إذ إن الله سبحانه وتعالی جعل الحدید البارد الصلد بیده لیّناً کالشمع؛ وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِیدَ (۵). والملاحظـة التی یجـدر الإشارة لها هنا، أنه ورد حـدیث عن التعلیم فی مسألة صـناعة الحدید؛ قال تعالی: وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَکُمْ (۶)؛ لأـن صـناعة الـدروع یمکن تعلیمهـا و نقلها للآخرین کما هو الحال فی سائر العلوم والمهن الأخری، علی العکس من عملیة إلانة الحدید البارد و القوی بواسطة الید. ومن هنا لم یقل تعالی: «وَعلّمناه إلانة الحدید». ویصدق هذا الأمر بشأن مقام إبراهیم ۷ أیضاً، مع وجود هذا الفرق حیث إن الحدیث هنا یتعلق ب- «وألنّا له الحجر».

وبقیت «آثار» کلتا قدمی إبراهیم ۷ المبارکتین محفوظتین فی مقام إبراهیم ۷ (۷) کما کان الحدید یحافظ علی «بدن» داود ۷.

ملاحظة

قال الإمام السجاد ۷: «أفضل البقاع ما بین الرکن و المقام ...» (۸) أی إن المسافـة ما بین الرکن (الحجر الأسود) إلی مقام إبراهیم، هی من أفضـل الأمـاکن، و روی عن الإمام الباقر ۷ أنه قـال: «أنَّ ما بین الرکن و المقام لمشـحونٌ من قبور الأنبیاء» (۹). و هذا المکان، هو منطلق حرکة الإمام الحجة [العالمیة. ویقول الإمام الباقر ۷ بهذا الشأن: «کَأنّی بالقائم یومَ عاشورا یوم السبت، قائماً بین الرکن و المقام، بین یدیه جبرئیلَ ۷ ینادی: البیعة لله. فیملأها عدلًا کما مُلِئَت ظلماً وجوراً» (۱۰).

تنبیه

ومقام إبراهیم ۷ یطلق أیضاً علی قطعـة الأرض التی یقع فیها مقام إبراهیم ۷ فی المسجد الحرام، وهی محل صلاة الطواف (۱۱). مثلما یطلق أحیاناً علی الکعبة أیضاً (۱۲).

زمزم

تدفّق ماء زمزم ببركة ذريّة إبراهيم الخليل ۷؛ لأنه ۷ ترك وليده وأمه هاجر بوادٍ غير ذى زرع وضرع فى أرض مكة بأمر الله سبحانه و تعالى. و على أثر عطش الوليد، أخذت أمه تبحث عن الماء و تدعو و تنادى: «هل بالوادى من أنيس؟»، فأخذت تسعى بين الصفا و المروة سبع مرات ذهاباً وإياباً. وفجأةً رأت تحت أقدام الوليد عيناً ينبع فيها الماء (۱۳)

ولا زال ذلك الماء يتدفق لحد الآن بعد مضى آلاف السنين عليه، على الرغم من أنه تمّ حفر آبار إضافية أخرى فى ذلك الوادى، هذا أولًا،

وثانياً: إن مكة ليس بلداً تسقط عليها الثلوج، كما أن أمطارها ليست غزيرة، لكى يصبح تدافع الماء من زمزم على أساس قوله تعالى: فَسلكه ينابيع فى الارض (۱۴). وبناءاً على ذلك، فإن تدفّق ماء زمزم واستمراره آلاف السنين على ذلك فى بلدٍ مثل مكة، وما فيه من صفة الشفا وصيانته من الفساد (۱۵)، كل واحدة من هذه الأمور هى معجزة بحد ذاتها، لذا يمكن القول بأن زمزم هو مصداق ل- آياتٍ بَيِّناتٍ لوحده؛

۱- روضة المتقين ۱۱۳: ۴- ۱۱۴.

۲- المصدر نفسه: ۱۱۴.

۳- البحار ۱۱۶: ۱۲- ۱۱۷.

۴- التبيان ۴۵۲: ۱؛ التفسير الكبير ۵۰: ۳.

۵- سبأ: ۱۰.

۶- الأنبياء: ۸۰.

۷- نقل عن أنس به مالك أنه قال: رأيت أثر أصابع و عمق القدم فى الحجر، ولكن مُسح واستوى بسبب المسح بأيدى الناس التحرير و التنوير ۶۸۱: ۱.

۸- من لايحضره الفقيه ۲۴۵: ۲.

۹- الكافى ۲. ۲۱۴: ۴.

۱۰- البحار ۲۹۰: ۵۲.

۱۱- المصدر نفسه ۲۴۱: ۹۶.

۱۲- التحرير و التنوير ۶۸۱: ۱.

۱۳- استناداً لبعض الروايات، فإن إبراهيم ۷ هو الذى حفر بئر زمزم بأمر الله سبحانه وتعالى الكافى ۲۰۳ ۲۰۲: ۴.

۱۴- الزمر: ۲۱.

۱۵- من مجموع التجارب الفردية وما كان يقوم به المؤمنون و بخاصة خاتم الرسل ۹ تجاه ماء زمزم و تقديمه كهدية، نلاحظ أن ذلك الماء غالباً ما كان يبقى لفترة طويلة من الزمن، لذا يمكن القول بأن ماء زمزم لايفسد بسرعة.

ص: ۹

وقال الرسول الأكرم ۹: «ماء زمزم، أفضل ماءٍ على وجه الأرض» (۱)، و قال أيضاً:

«ماء زمزم لما شُرِبَ له؛ من شربه لمرضٍ شفاه الله أو لجوعٍ أشبعه الله أو لحاجةٍ قضاها الله» (۲). و كان يقول بعد شرب ماء زمزم: «اللهم إنى أسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاءً من كل داءٍ و سقمٍ» (۳).. و قال الإمام الصادق ۷ بشأن الشفاء من ماء زمزم: «ماء زمزم شفاءٌ من كل داءٍ» (۴).

من هنا، يستحب استحباباً مؤكداً أن يشرب حجاج بيت الله الحرام من ذلك الماء، والتأسى برسول الله ۹ بقراءة هذا الدعاء: «اللهم اجعله علماً ...» (۵).

وكان الرسول الأكرم ۹ يستعمل ماء زمزم فى مكة، وبعد أن هاجر إلى المدينة المنورة كان يستهدى ماء زمزم من الآخرين لشدة تعلقه به. ولهذا السبب كان الزائرون يجلبون معهم ماء زمزم عند عودتهم من مكة هدية للرسول الأكرم ۹ وكان يقبل منهم الهدية (۶).

ملاحظة

من أسماء زمزم الأخرى، حفيرة عبدالمطلب، المضنونة والمصونة (۷). والسرّ فى تسمية بئر زمزم بالمضنون (۸) أو المصون أنه فى برهةٍ من التاريخ و منذ أن استولت قبيلة خزاعة على مكة، دفنوا هذا البئر وأخمدوه، إلى أن تولّى عبدالمطلب شؤون مكة و أمر بإعادة حفره (۹) غارت البئر و لم ينبع منها الماء.

إذن، فالسرّ وراء اشتهارها ببئر عبدالمطلب يعود إلى أن عبدالمطلب هو الذى أعاد فتح البئر وترميمه.

الصفا و المروة

الصفا و المروة اسمان لجبلين بالقرب من الكعبة. وهذان الجبلان من شعائر الله تعالى: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ (۱۰).

والسرّ فى تسمية الصفا بهذا الاسم أنه اكتسب تسميته من وصف الأنبياء وبخاصة آدم ۷، و هم الذين اصطفاهم الله تعالى: إِنَّ اللهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (۱۱).

قال الإمام الصادق ۷: بعد أن هبط آدم ۷ على جبل الصفا وهو من صفوة الله تعالى، فإنّ الجبل صفا من صفوة الله واصطفاء آدم ۷ (۶۹).(۱۲).

وعليه؛ فإن الذى يكسب الصفا من هذا الجبل هو ممن اصطفاه الله تعالى: اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ (۱۳).

وقال الإمام الصادق ۷ بشأن السرّ فى تسمية المروة بهذا الاسم: بعد أن نزلت حواء ۳ وهى امرأة على جبل المروة، سمى ذلك الجبل «المروة» (۱۴).

وقال بعض اللغويين: إن الصفا حجر أملس (۱۵)، والمروة يطلق على الحجر الناعم البرّاق، وتسمية الجبلين بالصفا و المروة إنّما هو بلحاظ نوع أحجارهما (۱۶).

ونصب فى الجاهلية اثنان من الأصنام على قمة الصفا والمروة، و اسمهما «أساف» (أثاف) و «نائلة» (۱۷) حيث كان الناس يتمسحون بهما تبركاً أثناء السعى (۱۸). ولهذا السبب كان بعض المسلمين فى صدر الإسلام يتجنب السعى بين الصفا و المروة. و لغرض إزالة هذا الوهم وتحاشيه قال الله سبحانه و تعالى: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما.

ومن هذا المنطلق فإن الصفا والمروة كالكعبة؛ لأنهم جعلوا الكعبة فى الجاهلية مقراً لأصنامهم غصباً، ولا ينبغى اعتبار ذلك مانعاً للطواف حول بيت الله.

والصفا و المروة من الرموز العبادية كسائر أماكن الحج ومناسكه؛ إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِاللهِ، والشعائر جمع «شعيرة» بمعنى العلامة. ولكن ليس معنى ذلك أن الصفا والمروة، هما من العلائم و الرموز التكوينية للحق تعالى فقط؛ لأنه بلحاظ التكوين، تكون جميع الموجودات من شعائر الله. فالصفا والمروة مثلها كمثل الكعبة وعرفات والمشعر و منى، شعائر جعلية و تشريعية و علائم عبادية.

عرفات

عرفات، منطقـة خارج دائرة الحرم و بالقرب من المشـعر الحرام الـذی یقع فیه «جبل الرحمة» و «مسـجد نمرة». والوقوف فی هذه البقعة من ظهیرة الیوم التاسع من شهر ذی‌الحجة الحرام إلی غروبه واجب علی الذین عقدوا الإحرام لأداء حج التمتع، و هو من أرکان الحج.

وهناک عدة وجوه وردت حول السرّ فی تسمیة هذه البقعة باسم عرفات:

۱- أنّ آدم و حواء ۸ تعرّفا علی بعضهما البعض بعد الهبوط فی تلک البقعة (۱۹).

۱- الکافی ۲۴۶: ۳.

۲- البحار ۴۵: ۵۷.

۳- الکافی ۲۵۰: ۴.

۴- المصدر نفسه ۳۸۷: ۶.

۵- المصدر نفسه ۴۳۰: ۴.

۶- وسائل الشیعة ۳۵۰: ۹- ۳۵۱.

۷- المصدر نفسه: ۳۵۱ و ۵۱۵- ۵۱۶.

۸- «ضنَّ» بمعنی بخل و الشیء الثمین والنفیس إذا بخل به یسمی مضنوناً.

۹- الکافی ۲۲۰ ۲۱۸: ۴.

۱۰- البقرة: ۱۵۸.

۱۱- آل عمران: ۳۳.

۱۲- الکافی ۱۹۰: ۴؛ البحار ۱۶۲: ۱۱ و ۱۶۹.

۱۳- الحج: ۷۵.

۱۴- الکافی ۱۹۰: ۴.

۱۵- لسان العرب ۴۶۲: ۱۴- ۴۶۴ صفا.

۱۶- لسان العرب ۲۷۵: ۱۵- ۲۷۶ مرا.

۱۷- البحار ۲۳۵: ۹۶.

۱۸- الکافی ۴۳۵: ۴ «البقرة: ۱۵۸».

۱۹- البحار ۲۴۲: ۴۴ و ۲۴۵: ۵۷.

ص: ۱۰

۲- أنهما اعترفا بذنبهما فی تلك البقعة (۱).

۳- أن جبرئيل ۷ عند تعليمه مناسك الحج لإبراهيم ۷، قال له: اعترف بذنوبك بين يدی الله فی هذه البقعة (۲).

۴- عندما طلب النبی إبراهيم ۷ من الله سبحانه و تعالی أن يُرِيَهُ مناسك الحج و يتعلّمها، أرِنَا مَنَاسِكَنا (۳)، نزل جبرئيل ۷ إلی أرض عرفات وكان مأموراً بتعليم إبراهيم الخليل ۷ مناسك الحج، فقال له: «هذه عرفاتٌ فاعرف بها مناسكك واعترف بذنبك» (۴).

وبناءاً علی هذا الوجه، فإن سبب تسمية تلك الأرض بعرفات أن جبرئيل ۷ أشار إلی تلك الأرض باسم عرفات.

۵- أن إبراهيم ۷ قد رأی فی المنام قبل يوم التاسع من ذی الحجّة أنه يذبح إسماعيل ۷. وبعد أن أفاق من نومه اعترته حالة من التروّی والتفكير، فيما إذا كانت هذه الرؤيا من الله و بمنزلة الأمر السماوی أم لا؟!

من هنا يسمی اليوم الثامن ب- «يوم التروية». وإن كان من المحتمل أن يكون السرّ فی تسميته بيوم التروية أنه فی ذلك اليوم كانوا يخزنون الماء لسقاية الحاج، لكی يسقون الحجيج بالماء فی عرفات والمشعر ومنی. وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق ۷ فقال: «إنّ إبراهيم أتاه جبرئيل عند زوال الشمس من يوم التروية فقال: يا إبراهيم! ارتو من الماء لك و لأهلك. و لم يكن بين مكّةَ و عرفاتِ يومئذٍ ماء، فسُمِّيت التروية لذلك» (۵).

وتكررت الرؤيا المذكورة لإبراهيم ۷ فی ليلة التاسع من ذی الحجة مرة أخری. وعليه فقد أصبح لزاماً عليه أن يذبح ابنه إسماعيل ۷. وتحققت هذه المعرفة فی اليوم التاسع وفی أرض عرفات؛ ولهذا السبب سمی ذلك اليوم بيوم «عرفة» وسميت تلك الأرض ب- «عرفات» (۶).

المشعر الحرام

يقع المشعر الحرام ومنی ضمن حدود الحرم فی الحد الفاصل بين مكة و عرفات. و يفيض الجميع من عرفات باتجاه المشعر الحرام بعد غروب الشمس فی اليوم التاسع من ذی الحجة فی نهاية نصف يومٍ من الوقوف فی عرفات ويمضون الليل هناك.

ويسمّون المشعر ب- «المزدلفة» و «جمع» أيضاً، وطبقاً لما ذكره الإمام الصادق ۷ فإن السرّ فی تسمية تلك البقعة ب- «المزدلفة» يعود إلی أنّ جبرئيل ۷ فی استمراره بتعليم المناسك لإبراهيم ۷ قال له: «يا إبراهيم! إزدلف إلی المشعر الحرام» (۷). كما قال ۷: «وسميت هذه البقعة ب- «جمع» ذلك أن آدم ۷ جمع بين صلاة المغرب و العشاء فيها، وصلّی المغرب والعشاء فيها، وصلّی كلاهما فی وقت واحد» (۸).

وعلی طول القرون الماضية يتوجه آلاف الزائرين إلی تلك البقعة، و كل زائر يأخذ علی الأقل تسعاً وأربعين حصاة من ذلك المكان لرمی الجمرات. من هنا كان من آيات الله البينات فی أرض المشعر أنّ المنطقة علی الرغم من أنها ليست مكاناً لحدوث الفيضانات و عبور السيول لكی يظهر بواسطتها الحصی الناعم، لكن مع ذلك توفر كل ذلك الحصی الناعم دائماً، ولم ينفد لحد الآن.

منی

مع شروق شمس اليوم العاشر من ذی الحجة، يرد الحجيج إلی منطقة «منی» لأداء بعض المناسك الخاصة. و حدود منطقة منی تمتد من «العقبة» إلی «وادی محسِّر».

وحول مصدر تسمية هذه المنطقة باسم منی قال الإمام الصادق ۷: «إنّ جبرئيلَ ۷ أتی إبراهيم ۷ فقال: تمنّ يا إبراهيم!» (۹). و قال الإمام علی بن موسی الرضا ۷: «كانت أمنية إبراهيم ۷ والتی أعطاه الله إياها ابتداءً بأن يأمره الله سبحانه و تعالی بذبح كبشٍ بدلًا عن إسماعيل ۷» (۱۰).

وطبقاً لما نقله الطريحی/ فإن منشأ تسمية منی بهذا الاسم، يعود إلی أن الدماء تمنی وتراق فی هذه البقعة. وكذلك فإن جبرئيل ۷ عند مفارقته لآدم ۷ قال له: تمنّ شيئاً. فقال آدم ۷: أتمنّی الجنّة (۱۱).

وتقع أماكن الجمرات الثلاث، ومكان التضيحة ومسجد الخيف، فی منی، و استناداً إلی بعض الروايات فإن سبعمائة نبی صلّی فی هذا المسجد (۱۲). ويقع فی مكان مرتفع نسبياً، ولهذا السبب سمی ب- «الخيف» طبقاً لما جاء فی قول الإمام الصادق ۷؛ حيث إنّ الأرض المرتفعة نسبياً عن الأراضی المحيطة بها، تسمی خيفاً (۱۳).

يقول الفخر الرازی عن آيات الله سبحانه و تعالی فی أرض مكة وبخاصة فی منی: فی كل عام يقوم ستمائة ألف شخص (فی ذلك الوقت) برمی سبعين حصيّة فی الجمرات، ولكن من كرامات هذه الأرض أنه لا يمضی وقت طويل حتی يعود التقاط الحصيات منها بعد أن تكون قد خلت منها (۱۴). ولكن فی السنوات الأخيرة يقوم موظفوا الدولة بتنظيف أطراف الجمرات وتسويتها، بينما لم يكن الأمر كذلك آنذاك.

ويوجد فی منی مسجدٌ يعرف باسم مسجد الكبش. والسرّ فی تسميته بالكبش أن كبش الأضحية وفداء إسماعيل ۷ قد ذبح فی ذلك المكان (۱۵).

وكان إلی جانب هذا المسجد صخرةٌ ذبح عليها الفداء المذكور (۱۶). و نقل عن أميرالمؤمنين الإمام علی ۷ أنَّ ذبح الفداء كان بين الجمرة الأولی و الجمرة الوسطی علی سفح الجبل المقابل، أی «جبل ثبير»، وليس فی المكان السابق. وما يؤيد هذا النقل، رواية عن ابن عباس أنّه قال: ضحّی

۱- المصدر نفسه ۱۶۸: ۱۱.

۲- المصدر نفسه ۳۰۷: ۴.

۳- البقرة: ۱۲۸.

۴- الكافی ۲۰۷: ۴.

۵- المصدر نفسه.

۶- الدر المنثور ۱۱۱: ۷.

۷- البحار ۲۶۶: ۹۶.

۸- المصدر نفسه.

۹- البحار ۲۷۱: ۹۶- ۲۷۲.

۱۰- المصدر نفسه.

۱۱- مجمع البحرين ۲۱۴: ۳.

۱۲- الكافی ۲۱۴: ۴.

۱۳- البحار ۲۷۱: ۹۶- ۲۷۲.

۱۴- التفسير الكبير ۱۵۹: ۸.

۱۵- مرآة الحرمين ۳۲۶: ۱.

۱۶- المصدر نفسه.

ص: ۱۱

الرسول الأکرم ۹ فی الموضع الذی ضحّی فیه إبراهیم ۷ فاتخذوه موضعاً للذبح، وکلّ أرض منی هی موضعٌ للذبح. وکان موضع ذبح أضحیة الرسول الأکرم ۹ بین الجمرة الأولی والوسطی (۱).

۱- المصدر نفسه.

ص: ۱۲

ص: ۱۳

ص: ۱۴

ص: ۱۵

حجة الوداع ... خطب و إرشاد

الشيخ جعفر السبحانى

المقدّمة

فى السنة العاشرة للهجرة عزم رسول الله ۹ على أن يحج بيت الله الحرام، فخرج لخمس بقين من ذى القعدة، و وصل مكة فى اليوم الرابع من ذى الحجة. (۱)

و كان رسول الله ۹ قد حرّض المسلمين على الحج، و قال: «من أراد الحج فليتعجّل، فإنّه قد يمرض المريض، و تضلّ الضالّة، و تعرض الحاجة» (۲).

و بعد أن أمر الله تعالى نبيه بالأذان و الإعلان للحج، أمر النبى ۹ المؤذّنين أن يؤذّنوا بذلك بين المسلمين، و كتب إلى على بن أبى طالب ۷ و جنده، و إلى أبى موسى الأشعرى و أتباعه فى اليمن أن يلتحقوا به ۹ فى مكة المكرّمة.

۱- السيرة النبويّة لابن هشام ۲۴۸: ۴.

۲- مسند أحمد بن حنبل ۴۵۸: ۱؛ سنن ابن ماجة ۹۶۲: ۲؛ المعجم الكبير للطبرانى ۲۹۶: ۱۸؛ السنن الكبرى للبيهقى ۴۶۳: ۶.

ص: ۱۶

و الظاهر أنّ بداية هذا الإخبار والإعلام كانت فى أوائل ذى القعدة الحرام، فقد قال ابن إسحاق: فلمّا دخل على رسول الله ۹ ذو القعدة تجهّز للحج، و أمر الناس بالجهازله (۱).

وخرج النبى الأكرم ۹ من المدينة مغتسلًا متدهناً و خرجت معه نساؤه كلهنّ، و تبعه جمّ غفير من المسلمين الذين حرصوا على مرافقته من المدينة ليتشرّفوا بصحبته.

قال الإمام جعفر الصادق ۷: «فعلم به من حضر المدينة و أهل العوالى والأعراب فاجتمعوا، فحجّ رسول الله ۹، وإنّما كانوا تابعين ينظرون ما يؤمرون ويتبعونه، أو يصنع شيئاً فيصنعونه (۲).

وروى عن جابر بن عبدالله الأنصارى أنّه قال: فقدم المدينة بشر كثير كلّهم يلتمس أن يأتمّ برسول الله ۹ و يعمل مثل عمله (۳).

وكان المسلمون يتوقعون هذا السفر، ليتعلّموا مناسك الحج، فأىّ منسك أدّاه رسول الله ۹ فهو من الحج الإبراهيمى، و ما تركه فهو من أعمال الجاهلية الأُولى.

ويتجلّى هذا التهيّؤ و الانتظار فى رغبتهم و شوقهم و اجتماعهم العظيم حتّى سلكوا طريق مكة رجالًا و ركباناً، طريقاً يقرب من ألف كيلومتر ذهاباً و إياباً.

وقد اختلف المؤرّخون والمحدّثون فى عدد المسلمين آنذاك، فمنهم من قال: إنّهم كانوا مئة و عشرين ألفاً (۴).

وقال المقريزى فى وصف خطبة النبى ۹ فى يوم عرفة: فإنّه شهد الخطبة نحو من أربعين ألفاً (۵).

وقال الطبرسى: وبلغ من حج مع رسول الله ۹ من أهل المدينة و أهل الأطراف والأعراب سبعين ألف إنسان أو يزيدون (۶).

ثم إنّ رسول الله ۹ بعد أن أتم الحج غادر مكة المكرمة متوجّهاً إلى المدينة فى الليلة الرابعة عشرة من ذى الحجة الحرام، فدخلها فى الثالث و العشرين منه.

وخلال مسيرته هذه، كانت له وقفات فى العديد من الأماكن التى مر بها و شهدت له إلقاء الخطب الرائعة و التوجيهات التربوية و الحضارية السامية، والإرشادات التعليمية حيث إنّه كان يجسّد عملياً أهداف الحج التى أرادها الله تعالى من هذه الفريضة الإسلامية الهامة.

وسوف نشير فى هذه الرسالة بالإيعاز الموجز و الإشارة العابرة إلى خطبه و كلماته التى ألقاها فى هذه الرحلة التاريخية، و ننوّه إلى ما تضمّنته كلّ منها إلى مبادئ الإسلام و أُصوله و مقاصد الشريعة و أهدافها.

عدد خطبه ۹ فى حجة الوداع

اختلف أصحاب السير و المؤرّخون فى عدد الخطب التى ألقاها النبى الأكرم ۹ فى حجة الوداع.

فقد قال الحلبى فى السيرة: خطب رسول الله ۹ فى الحجّ خمس خطب: الأُولى يوم السابع من ذى الحجّة بمكّة، و الثانية يوم عرفة، و الثالثة يوم النحر بمنى، و الرابعة يوم القرّ (۷) بمنى، و الخامسة يوم النفر الأوّل بمنى أيضاً (۸).

ويقول المقريزى: خطب ۹ فى حجّته ثلاث خطب: الأُولى قبل التروية بيوم بعد الظهر بمكّة، و الثانية يوم عرفة بعرفة حين زاغت الشمس على راحلته قبل الصلاة، و الثالثة يوم النحر بمنى بعد الظهر على راحلته القصواء. و قيل: بل خطب الثانية ثانى يوم النحر.

ثم قال: و قال المحب الطبرى: دلّت الأحاديث على أنّ الخطب فى الحج خمسة؛ خطبة يوم السابع من ذى الحجة، و خطبة يوم عرفة، و خطبة يوم النحر، و خطبة القرّ، و خطبة يوم النفر الأوّل (۹).

و مهما كان الحال فعلينا أن نورد ما ذكرته كتب التاريخ و الحديث من خطبه و كلماته ۹، وقد رتّبناها حسب زمانها و مكانها، فكانت كما يلى:

۱- خطبته ۹ فى اليوم السابع و الثامن من ذى الحجة

قال الواقدی فی مغازیه: خطب رسول الله ۹ قبل التروية بيوم بعد الظهر بمكة (۱۰).

وقال الحاكم النيسابوری فی مستدركه: كان رسول الله ۹ إذا كان قبل التروية بيوم خطب الناس فأخبرهم بمناسكهم (۱۱).

وجاء فی صحيحة معاوية بن عمّار الطويلة عن الإمام جعفر الصادق ۷: «فلمّا كان يوم التروية عند زوال الشمس أمر ۹ الناس أن يغتسلوا و يهلّوا بالحجّ، و هو قول الله عزّ و جلّ الذی أنزل علی نبيّه: فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً (۱۲) فخرج النبیّ ۹ وأصحابه مهلّين بالحجّ حتّی أتوا منی، فصلّی الظهر و العصر و المغرب و العشاء الآخرة و الفجر، ثمّ غدا و الناس معه» (۱۳).

۱- السيرة النبوية لابن هشام ۲۴۸: ۴.

۲- الكافی للكلينی ۲۴۵: ۴؛ تهذيب الأحكام للطوسی ۴۵۴: ۵.

۳- صحيح مسلم ۷۲۴: ۲؛ المغازی للمقريزی ۱۰۸۸: ۲.

۴- تذكرة الخواص: ۳۰.

۵- إمتاع الأسماع ۱۱۲: ۲.

۶- الاحتجاج للطبرسی ۱۳۴: ۱.

۷- مراده من يوم القرّ اليوم الحادی عشر من ذی الحجّة.

۸- السيرة النبوية للحلبی ۳۳۳: ۳.

۹- إمتاع الأسماع ۱۱۷: ۲.

۱۰- المغازی ۱۱۰۰: ۲.

۱۱- المستدرک علی الصحيحين ۶۳۲: ۱؛ و جاء مثله فی السيرة النبويّة لابن كثير ۳۳۷: ۴، و إمتاع الأسماع للمقريزی ۱۱۷: ۲- ۱۱۸؛ و نيل الأوطار للشوكانی ۳۰۷: ۳، و السيرة النبويّة للحلبی ۲۲۷: ۳، ۳۳۳.

۱۲- آل عمران: ۹۵.

۱۳- الكافی للكلينی ۲۴۶: ۴- ۲۴۷.

ص: ۱۷

۲- كلماته ۹ فی یوم عرفة

وردت لرسول الله ۹ كلمات وأحادیث كثیرةخلال تواجده فی یوم عرفة (التاسع من ذی‌الحجة) فی عرفات نذكر منها:

۱- جاء فی تهذیب الأحكام بسنده عن سعد بن عبدالله، عن محمّد بن الحسین بن أبی الخطّاب، عن أحمد بن محمّد بن أبی نصر، عن محمّد بن سماعة الصیرفی، عن سماعة بن مهران، عن أبی عبدالله جعفر بن محمد الصادق ۷ قال: «... إنّ رسول الله ۹ وقف بعرفات فجعل الناس یبتدرون أخفاف ناقته، یقفون إلی جانبها، فنحّاها رسول‌الله ۹، ففعلوا مثل ذلك، فقال: أیّها الناس! إنّه لیس موضع أخفاف ناقتی بالموقف، ولكن هذا كلّه موقف، و أشار بیده إلی الموقف و قال: هذا كلّه موقف، فتفرّق الناس، و فعل ذلك بالمزدلفة ...» (۱).

۲- و فی صحیحة معاویة بن عمّار عن الإمام الصادق ۷ أنّه قال: «ثمّ غدا ۹ و الناس معه و كانت قریش تفیض من المزدلفة و هی جَمْع (۲) و یمنعون الناس أن یفیضوا منها، فأقبل رسول الله ۹ و قریش ترجو أن تكون إفاضته من حیث كانوا یفیضون، فأنزل الله تعالی علیه: ثُمَّ أَفِیضُوا مِنْ حَیْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَ اسْتَغْفِرُوا اللهَ (۳) یعنی إبراهیم وإسماعیل وإسحاق: فی إفاضتهم منها ومن كان بعدهم. فلمّا رأت قریش أنّ قبّة رسول الله ۹ قد مضت كأنّه دخل فی أنفسهم شیء للذی كانوا یرجون من الإفاضة من مكانهم، حتّی انتهی إلی نمرة و هی بطن عرنة بحیال الأراك فضرب قبّته، وضرب أخبیتهم عندها، فلمّا زالت الشمس خرج رسول الله ۹ و معه قریش، و قد اغتسل و قطع التلبیة حتّی وقف بالمسجد، فوعظ الناس و أمرهم و نهاهم، ثمّ صلّی الظهرو العصر بأذان و إقامتین، ثمّ مضی إلی الموقف به، فجعل الناس یبتدرون أخفاف ناقته یقفون إلی جنبها فنحاها، ففعلوا مثل ذلك، فقال: أیّها الناس! لیس موضع أخفاف ناقتی بالموقف، ولكن هذا كلّه و أومأ بیده إلی الموقف فتفرّق الناس، و فعل مثل ذلك بمزدلفة، فوقف الناس حتّی وقع القرص قرص الشمس ثمّ أفاض وأمر الناس بالدّعة حتّی انتهی إلی المزدلفة» (۴).

۳- وفی الكافی عن علی بن إبراهیم، عن أبیه، و محمّد بن إسماعیل، عن الفضل بن شاذان، عن ابن أبی عمیر و صفوان بن یحیی، عن معاویة بن عمّار، عن الإمام جعفر الصادق ۷، مثله (۵).

۴- و فی روایة جابر فی صحیح مسلم: و أمر بقبّة من شعر تضرب له بنمرة، فسار رسول الله ۹ و لا تشكّ قریش إلّا أنّه واقف عند المشعر الحرام، كما كانت قریش تصنع فی الجاهلیة، فأجاز رسول الله ۹ حتّی أتی عرفة، فوجد القبّة قد ضُربت له بنمرة، فنزل بها حتّی إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء، فرحلت له فأتی بطن الوادی، فخطب الناس ... ثمّ أذّن ثمّ أقام فصلّی الظهر، ثمّ أقام فصلّی العصر، و لم یصلِّ بینهما شیئاً، ثمّ ركب رسول الله ۹ حتّی أتی الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلی الصخرات، و جعل حبل المشاة بین یدیه (۶) واستقبل القبلة، فلم یزل واقفاً حتّی غربت الشمس و ذهبت الصفرة قلیلًا حتّی غاب القرص، و أردف أسامة خلفه و دفع رسول الله ۹ (۷).

۵- و روی الشیخ الطوسی عن جماعة عن أبی المفضل عن عبدالله بن إسحاق بن إبراهیم بن حمّاد الخطیب المدائنی قال: حدّثنا عثمان بن عبدالله بن عمرو بن عثمان قال: حدّثنا عبدالله بن لهیعة، عن أبی الزبیر، قال: سمعت جابر بن عبدالله یقول: بینا النبیُّ بعرفات، و علیّ ۷ تجاهه، و نحن معه، إذ أومأ النبیُّ ۹ إلی علی ۷ فقال: ادن منّی یا علیُّ، فدنا منه، فقال: ضع خمسك یعنی كفّك فی كفّی، فأخذ بكفّه، فقال: یا علیّ! خلقت أنا و أنت من شجرة، أنا أصلها، و أنت فرعها، و الحسن و الحسین أغصانها، فمن تعلّق بغصن من أغصانها أدخله الله الجنّة برحمته (۸).

۶- روی الشیخ الطوسی بإسناده عن جابر بن عبدالله الأنصاری أنّ رسول الله ۹ ألقی كلمة بعرفة، و إن كانت هذه الكلمة جاءت فی خطبته المشهورة بالإجمال، لكن ننقلها تأكیداً و تكمیلًا.

ثمّ روی أیضاً روایة أُخری تؤكد أنّ هذه الكلمة أُلقیت بمنی: أخبرنا جماعة، عن أبی المفضّل قال: أخبرنا أبو جعفر محمّد بن جریر

الطبرى قراءةً، و علىّ بن محمّد بن الحسن بن كاس النخعى و اللفظ له قالا: حدّثنا أحمد بن يحيى بن زكريا الأودى الصوفى قال: حدّثنا حسن بن حسين يعنى العرنى قال: حدّثنى يحيى بن يعلى، عن عبدالله بن موسى التيمى، عن أبى الزبير، عن جابر بن عبدالله الأنصارى قال: سمعت رسول الله ۹ فى حجّة الوداع و ركبتى تمسّ ركبته يقول: «لا ترجعوا بعدى كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، أما إن فعلتم لتعرفنّى فى ناحية الصف» (۹).

۷- وروى البيهقى بسند ذكره عن عبد الرحمن بن يعمر الدّيلى قال: أتيت رسول الله ۹ و هو بعرفات، فأتاه نفر من أصحابه فأمروا رجلًا فنادى: يا رسول الله! كيف الحجّ؟ كيف الحجّ؟ قال: فأمر رجلًا فنادى: الحجّ يوم عرفة، من جاء قبل صلاة الصبح من ليلة جمع فقد تمّ حجّه، أيّام منى ثلاثة: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ (۱۰) ثمّ أردف رجلًا من خلفه فنادى بذلك (۱۱).

۳- خطبة رسول الله ۹ يوم عرفة

فى الضحى من اليوم التاسع استقرّ رسول الله ۹ فى قبّته التى ضُرِبت له بنمرة قرب عرفات، و قد اغتسل و تهيّأ لأداء أعمال هذا اليوم، و بعد أن زالت الشمس خرج رسول الله ۹ من خيمته و توجّه ليخطب فى الناس.

ففى صحيحة معاوية بن عمّار الطويلة عن الإمام الصادق ۷ بما يتعلّق بمناسك حج رسول الله ۹ وردت إشارة إلى هذه الخطبة، فقد قال ۷: فوعظ الناس و أمرهم و نهاهم (و لم يذكر متن الخطبة) (۱۲).

وقد وردت هذه الخطبة مختصرة فى صحيح مسلم و مصادر أُخرى حسب رواية جابر الطويلة (۱۳).

إنّ هذه الخطبة هى المشهورة والمعروفة فى كتب الفريقين، وفى عالم الأدب لها شأن عظيم، لجزالة ألفاظها، و عظم معانيها.

۱- تهذيب الأحكام للطوسى ۱۸۰: ۵؛ من لا يحضره الفقيه ۴۶۴: ۲.

۲- وهو اسم آخر للمشعر.

۳- البقرة: ۱۹۹.

۴- الكافى ۲۴۷: ۴؛ تهذيب الأحكام ۴۵۶: ۵.

۵- الكافى ۴۶۳: ۴.

۶- فى النهاية ۳۳۳: ۱ جعل حبل المشاة بين يديه: أى طريقهم الذى يسلكونه فى الرمل. و قيل: أراد صفّهم و مجتمعهم فى مشيهم تشبيهاً بحبل الرمل.

۷- صحيح مسلم ۷۲۶: ۲؛ و نحوه فى دعائم الإسلام ۳۱۹: ۱.

۸- أمالى الطوسى: ۶۱۱؛ عنه بحار الأنوار ۲۰: ۱۵ و ج ۶۵؛ و رواه ابن المغازلى فى المناقب: ۹۰، ۲۹۷؛ و عنه فى الطرائف: ۱۱۱؛ و رواه ابن عساكر فى تاريخ مدينة دمشق ۶۴: ۴۲- ۶۶.

۹- أمالى الطوسى: ۵۰۳؛ عنه بحار الأنوار ۲۹۴: ۳۲، و نحوه فى ص: ۳۶۳؛ مجمع البيان للطبرسى ۷۲: ۹؛ تفسير فرات: ۲۸۰.

۱۰- البقرة: ۲۰۳.

۱۱- السنن الكبرى ۳۷۸: ۷.

۱۲- الكافى ۲۴۷: ۴؛ تهذيب الأحكام ۴۵۶: ۵.

۱۳- صحيح مسلم ۷۲۶: ۲؛ سنن أبى داود: ۲۹۴- ۲۹۶؛ سنن ابن ماجة ۱۰۲۲: ۲؛ السنن الكبرى للبيهقى ۱۴: ۶- ۱۹؛ المصنف لابن أبى شيبة ۴۲۳: ۴- ۴۲۶.

ص: ۱۸

و قد وقع كلام بينهم فى مكانها و زمانها، فهل ألقاها رسول الله ۹ فى عرفة أو منى؟ و فى أىّ يوم من أيام منى؟

فبعضهم أوردها و لم يذكر فى أىّ مكان تكلّم بها رسول الله ۹، كابن شعبة الحرّانى فى تحف العقول (۱)، و الجاحظ فى البيان و التبيين (۲)، وابن عبد ربّه الأندلسى فى العقد الفريد (۳)، بل أوردوها بعنوان «خطبة رسول الله ۹ فى حجّة الوداع».

و بعض آخر أوردها و ذكر أنّها خطبة رسول الله ۹ بعرفة، كابن هشام فى السيرة النبويّة و النسائى فى السنن الكبرى (۴)، ومسلم فى صحيحه كما ذكرناها، ولم يذكر له ۹ خطبة بمنى.

وثالث أوردها وذكر أنّها خطبة رسول الله ۹ أيّام منى، كالبخارى فى صحيحه عن ابن عبّاس، قال: إنّ رسول الله ۹ خطب الناس يوم النحر (۵) و هكذا البغوى فى مصابيح السنّة (۶)، ولم يذكر له ۹ خطبة بعرفة.

وقد أوردها الهيثمى بطرق عديدة بعنوان «باب الخُطب فى الحجّ» (۷).

وروى ابن كثير روايات فى خطبته يوم العيد، و ذكر الخطبة الشريفة الطبرى أيضاً و ابن الأثير (۸).

وفى كنز العمّال و الطبقات الكبرى قد وردت الخطبة بروايات مختلفة (۹).

وروى ابن ماجة بأنّه ۹ خطب فى حجّة الوداع، و أُخرى بأنّه خطب بعرفات، و ثالثة بأنّه خطب يوم النحر بين الجمرات (۱۰).

وفى بعض الروايات: نزلت هذه السورة: إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَ الْفَتْحُ (۱۱) على رسول الله ۹ فى أوسط أيّام التشريق، فعرف أنّه الوداع، فركب راحلته العضباء فحمد الله و أثنى عليه ثمّ قال: أيّها الناس كلّ دم كان فى الجاهلية فهو هدر (۱۲).

وأوردها ابن كثير مختصراً مرّة بعنوان خطبة رسول الله ۹ بعرفة على رواية مسلم وأُخرى بعنوان خطبة رسول الله ۹ بمنى برواية البخارى (۱۳).

وأورد الواقدى فى المغازى بعض فقرات هذه الخطبة فى ضمن خطبة النبى ۹ بمكّة يوم الفتح (۱۴). و كذلك المقريزى فى إمتاع الأسماع (۱۵).

واعلم أنّه بالرغم من الاختلاف بين من ذكر متن الخطبة مطوّلًا أو مختصراً بعنوان أنّها خطبة النبى ۹ فى حجّة الوداع أو بعنوان خطبته بعرفات، أو ذكرها بعنوان أنّها خطبته ۹ بمنى يوم النحر، أو أوسط أيّام التشريق إلّا أنّ كلّها قريبة المفاد و المعنى.

و الذى يبدو جلياً أنّ رسول الله ۹ خطبها بعرفة، ونظراً لأهميتها و عظيم ما تضمنته من معان جليلة و مطالب هامّة فقد أعاد رسول الله ۹ محتوياتها و فقراتها فى مناسبات ومواقف عديدة و أماكن أُخرى فى يوم النحر أو اليوم الحادى عشر، فهى تُعدّ بحق خطبة كاملة و كلمة جامعة وأساساً متيناً لوحدة المسلمين وتبياناً لشؤون دينهم ودنياهم.

و هى وإن اختلفت المصادر التى ذكرتها فى بعض ألفاظها، فإنّ هذا الاختلاف لا يضرّ بالمعنى و المفاد، و إليك نصُّها:

أَلْحَمْدُ لِلهِ نَحْمَدُهُ وَ نَسْتَعِينُهُ وَ نَسْتَغْفِرُهُ وَ نَتُوبُ إِلَيْهِ وَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِىَ لَهُ وَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ وَ أَحُثُّكُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَ أَسْتَفْتِحُ اللهَ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ.

أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا مِنِّى أُبَيِّنْ لَكُمْ فَإِنِّى لَا أَدْرِى لَعَلِّى لا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِى هَذَا، فِى مَوْقِفِى هَذَا.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَ أَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِى شَهْرِكُمْ هَذَا فِى بَلَدِكُمْ هَذَا أَلا هَلْ بَلَّغْتُ اللّهُمَّ اشْهَدْ

فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا وَ إِنَّ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَ إِنَّ أَوَّلَ رِبًا أَبْدَأُ بِهِ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَ إِنَّ دِمَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَ إِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَبْدَأُ بِهِ دَمُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَ إِنَّ مَآثِرَ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ غَيْرَ السِّدَانَةِ وَ السِّقَايَةِ وَ الْعَمْدُ قَوَدٌ وَ شِبْهُ الْعَمْدِ مَا قُتِلَ بِالْعَصَا وَ الْحَجَرِ وَ فِيهِ مِائَةُ بَعِيرٍ فَمَنْ زَادَ فَهُوَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ وَ لَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ بِأَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فِيمَا تُحَقِّرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِؤُا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَ إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ وَ وَاحِدٌ فَرْدٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَ ذُو الْحِجَّةِ وَ الْمُحَرَّمُ وَ رَجَبٌ بَيْنَ جُمَادَى وَ شَعْبَانَ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ اشْهَدْ

۱- تحف العقول: ۳۰- ۳۴.

۲- البیان و التبیین: ۲۲۸.

۳- العقد الفرید ۵۷: ۴- ۵۸.

۴- السیرة النبویة لابن هشام ۲۵۰: ۴- ۲۵۲؛ السنن الکبری ۴۲۱: ۲.

۵- صحیح البخاری ۲۳۱: ۲؛ فتح الباری فی شرح صحیح البخاری ۲۲۶۰: ۴.

۶- مصابیح السنّة ۲۷۲: ۲.

۷- مجمع الزوائد ۵۸۵: ۳- ۵۹۹.

۸- البدایة و النهایة ۱۸۵: ۵- ۱۸۹؛ تاریخ الأُمم و الملوک ۱۵۰: ۳- ۱۵۲؛ الکامل فی التاریخ ۳۰۲: ۲.

۹- کنز العمال ۲۸۶: ۵- ۲۹۷؛ الطبقات الکبری لابن سعد ۱۸۳: ۲- ۱۸۶.

۱۰- سنن ابن ماجة ۱۰۱۵: ۲- ۱۰۱۶.

۱۱- النّصر: ۱.

۱۲- الخصال: ۴۸۶؛ عنه بحار الأنوار ۱۱۸: ۷۴.

۱۳- السیرة النبویّة لابن کثیر ۳۸۷: ۴- ۳۹۲. و انظر أیضاً جمهرة خطب العرب ۱۵۵: ۱- ۱۵۸ الخطبة ۱۳؛ و تاریخ الیعقوبی ۱۰۹: ۲- ۱۱۲؛ و شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۱۲۶: ۱- ۱۲۸؛ و السیرة النبویّة للحلبی ۳۲۷: ۳؛ و السنن الکبری ۱۷: ۷ و ۱۱۱: ۸؛ و دلائل النبوّة للبیهقی ۴۴۱: ۵- ۴۴۲؛ و تفسیر القمی ۱۷۱: ۱؛ و بحار الأنوار ۱۱۳: ۳۷.

۱۴- المغازی ۸۳۶: ۲.

۱۵- إمتاع الأسماع ۳۹۲: ۱ و ۱۱۱: ۲- ۱۱۲.

ص: ۱۹

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقّاً وَ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقّاً حَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ وَ لا يُدْخِلْنَ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ بُيُوتَكُمْ إِلّا بِإِذْنِكُمْ وَ أَنْ لا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ وَ تَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَ تَضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِحٍ فَإِذَا انْتَهَيْنَ وَ أَطَعْنَكُمْ فَعَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ وَ اسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكِتَابِ اللهِ فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ وَ اسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْراً

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ وَ لا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ مَالُ أَخِيهِ إِلّا مِنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ أَلا هَلْ بَلَّغْتُ اللّهُمَّ اشْهَدْ فَلا تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ فَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا؛ كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي أَلا هَلْ بَلَّغْتُ اللّهُمَّ اشْهَدْ

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَ إِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ كُلُّكُمْ لآدَمَ وَ آدَمُ مِنْ تُرَابٍ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ وَ لَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ قَدْ قَسَمَ لِكُلِّ وَارِثٍ نَصِيبَهُ مِنَ الْمِيرَاثِ وَ لا يَجُوزُ لِمُورِثٍ وَصِيَّةٌ أَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ وَ الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَ لِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ وَ لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفاً وَ لا عَدْلًا وَ السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَةُ اللهِ.

هذا هو متن الخطبة النبوية القدسية كما ورد فى كتاب «تحف العقول» (۱). و الذى يجب علينا هنا هو الإشارة إلى النقاط المهمة التى وردت فيها، و هى:

۱. حمد الله و ثناؤه و الاستغفار و الاستعاذة و ذكر الشهادتين.

۲. إيصاء عباد الله تعالى بتقواه و العمل بأوامره و التجنّب عن معاصيه.

۳. حثّ المسلمين على الاستماع لكلامه و فهمه.

۴. حرمة دماء المسلمين و أعراضهم و أموالهم، و أداء الأمانة.

۵. تحريم الربا و إلغاء دماء (ثارات) الجاهلية، و إبطال مآثر الجاهلية الرثة.

۶. تثبيت بعض الأحكام و الحدود و الديات فى الشريعة الإسلامية و إبلاغ الناس بها.

۷. إبطال النسيء، و التذكير بحقوق النساء، و النهى عن الظلم فى الوصية.

۸. تثبيت مبدأ الأُخوة الإسلامية.

۹. إيجاب التمسّك بالثقلين.

۱۰. رفض التمييز العنصرى و إقرار مبدأ التفاضل بين المسلمين على أساس التقوى.

و بالإضافة إلى هذه الخطبة فقد ورد أنّ رسول الله ۹ قد ألقى كلمة قصيرة حين غروب الشمس و هو بعرفات، و قد أجمعت كافة المصادر التى روتها على أنّه ۹ دعا عشيّة عرفة لأُمته بالمغفرة و الرحمة فأكثر الدعاء، فأوحى الله تعالى إليه (۲) أنّى قد فعلت، إلّا ظُلم بعضهم بعضاً. (۳)

كما وردت فى بعض الكتب خطبة ألقاها رسول الله ۹ بعرفة فى كرامة الحاجّ عند الله تعالى، و نحن نوردها تتميماً للفائدة. و يظهر من صدر هذه الخطبة أنّه ألقاها عشيّة عرفة بعد ما وقف بالموقف، و الحال أنّ خطبته الشهيرة ألقاها بعد الزوال ببطن عرنة، و هى مكان آخر بجنب عرفة.

ورد فى دعائم الإسلام: عن علىّ ۷ أنّ رسول الله ۹ لمّا حجّ حجّة الوداع وقف بعرفة و أقبل على الناس بوجهه و قال: «مرحباً بوفد الله ثلاث مرّات الذين إن سألو أُعطوا، و تخلف نفقاتهم، و يجعل لهم فى الآخرة بكلّ درهم ألف من الحسنات» ثمّ قال-: «أيّها الناس ألا أُبشّركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «إنّه إذا كانت هذه العشيّة باهى الله بأهل هذا الموقف الملائكة فيقول: يا ملائكتى! أُنظروا إلى

عبادی و إمائی أتونی من أطراف الأرض شعثاً غبراً هل تعلمون ما یسألون؟ فیقولون: ربّنا یسألونک المغفرة، فیقول: أشهدکم أنّی قد غفرت لهم، فانصرفوا من موقفهم مغفوراً لهم ماسلف» (۴).

وفی المستدرک عن القطب الراوندی فی لبّ اللباب، عن النبیّ ۹ قال: «إذا کانت عشیّة عرفة یقول الله لملائکته: أُنظروا إلی عبادی و إمائی شعثاً غبراً جاءُونی من کلّ فجٍّ عمیق لم یروا رحمتی و لا عذابی یعنی الجنّة و النار- أُشهدکم ملائکتی إنّی قد غفرت لهم الحاجّ و غیر الحاجّ.

فلم یُرَ یوماً أکثر عتقاء من النار من یوم عرفة ولیلتها» (۵).

ثم إن رسول الله ۹ قد أکثر من الدعاء و التضرّع إلی الله تعالی فی عرفات، و لم یکتف بدعائه، بل راح یحثّ المسلمین و یحضّهم علی الدعاء و الذکر و الإنابة إلی الله تعالی.

۱- تحف العقول: ۳۴ ۳۰.

۲- وفی روایة أُخری: فأجابه عز و جل.

۳- السنن الکبری ۱۱۸: ۵ و ۲۵۷: ۷.

۴- دعائم الإسلام ۲۹۳: ۱؛ و عنه بحارالأنوار ۴۹: ۹۶؛ و مستدرک الوسائل ۳۶: ۸؛ و رواه الشجری فی أمالیه ۵۸: ۳.

۵- مستدرک الوسائل ۳۲: ۱۰.

ص: ۲۰

۴- خطبته ۹ يوم النحر

عبّر بعض المصنفين منهم البخارى و النسائى عن خطبة رسول الله ۹ بعرفة بخطبة يوم النحر. كما ذكر بعض المؤرّخين خطبة رسول الله ۹ بمنى، ومفادها يقرب من خطبته بعرفة، ولكن نصّوا على أنّها خطبته بمنى.

من هؤلاء محمّد بن سعد فى الطبقات، قال: أخبرنا عبدالوهاب بن عطاء، قال: أخبرنا سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبدالرحمن بن غنم، عن عمرو بن خارجة قال: خطبنا رسول الله ۹ بمنى و إنّى لتحت جران ناقته، و هى تقصع بجرّتها، وإنّ لعابها ليسيل بين كتفىّ، فقال: «إنّ الله قسم لكلّ إنسان نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصيّة، ألا و إنّ الولد للفراش و للعاهر الحجر، ألا و من ادّعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه رغبةً عنهم فعليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين».

وقال أيضاً: أخبرنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى، أخبرنا الوليد بن مسلم، أخبرنا هشام بن الغاز، أخبرنى نافع، عن ابن عمر: أنّ النبى ۹ وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجّة التى حجّ، فقال للناس: «أىّ يومٍ هذا:؟ فقالوا: يوم النحر.

قال: «فأىّ بلدٍ هذا»؟

قالوا: البلد الحرام.

قال: «فأىّ شهرٍ هذا»؟

قالوا: الشهر الحرام.

فقال: «هذا يوم الحجّ الأكبر، فدماؤكم و أموالكم و أعراضكم عليكم حرام كحرمة هذا البلد فى هذا الشهر فى هذا اليوم». ثمّ قال: «هل بلّغت؟»

قالوا: نعم.

فطفق رسول الله ۹ يقول: «اللّهمَّ اشهد». ثمّ ودّع الناس، فقالوا: هذه حجّة الوداع.

وروى ابن سعد مثله بسند آخر، فقال: أخبرنا خلف بن الوليد الأزدى، أخبرنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة، حدّثنى أبو مالك الأشجعى، حدّثنى نُبيط بن شريط الأشجعى، قال: إنّى لرديف أبى فى حجّة الوداع إذ تكلّم النبى ۹، فقمت على عجز الراحلة و وضعت رجلى على عاتقى أبى، قال: فسمعته يقول: «أىّ يومٍ أحرم»؟

قالوا: هذا اليوم.

قال: «فأىّ شهرٍ أحرم»؟

قالوا: هذا الشهر،

قال: «فأىّ بلدٍ أحرم»؟ قالوا: هذا البلد.

قال: «فإنّ دماءكم و أموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، هل بلّغت»؟

قالوا: اللّهمَّ نعم. قال: «اللّهمَّ اشهد، اللّهمَّ اشهد، اللّهمَّ اشهد».

وقال أيضاً: أخبرنا يونس بن محمّد المؤدّب، أخبرنا ربيعة بن كلثوم بن جبر حدّثنى أبى، عن أبى غادية رجل من أصحاب رسول الله ۹ قال: خطبنا رسول الله ۹ يوم العقبة، قال: «يا أيّها الناس إنّ دماءكم و أموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا و ألا هل بلّغت»؟ قال: قلنا: نعم، قال: «اللّهمَّ اشهد، ألا لا ترجعنّ بعدى كفّاراً يضرب بضعكم رقاب بعض». ثم إنّ ابن سعد قال: أخبرنا هاشم بن القاسم، أخبرنا عكرمة بن عمّار، حدّثنى الهرماس بن زياد الباهلى قال: كنت ردف أبى يوم الأضحى و نبىّ الله ۹ يخطب الناس على ناقته بمنى.

وقال: أخبرنا هشام أبوالوليد الطيالسى، أخبرنا عكرمة بن عمّار، أخبرنا الهرماس بن زياد قال: انصرف رسول الله ۹ و أبى مُرْد فى ورائه

على جملٍ له، و أنا صبيّ صغير، فرأيت النبيّ ۹ يخطب الناس على ناقته العَضْباء يوم الأضحى بمنى (۱).

ولا يخفى أنّ مفادها نفس مفاد الخطبة التى ذكرناها سابقاً، و استظهرنا بأنّه أوردها بعرفة، و يمكن إيرادها مرّة ثانية بمنى.

و فى المصنّف لابن أبى شيبة بسندين عن مجاهد و مسروق أنّ النبيّ ۹ خطبهم يوم النحر(۲).

۱- الطبقات الكبرى ۱۸۳: ۲- ۱۸۶؛ و نحوه فى كنز العمّال ۲۹۱: ۵- ۲۹۷.

۲- المصنّف لابن أبى شيبة ۳۳۹: ۴.

ص: ۲۱

وفی السنن الکبری عن رجلین من بنی بَکرٍ قالاـ رأینا رسول الله ۹ یخطبُ بین أوسط أیّام التشریق، و نحن عند راحلته و هی خطبة رسول الله ۹ التی خطب بمنی (۱).

وقال أیضاً: أخبرنا علیّ بن أحمد بن عبدان، أنبأ أحمد بن عبید الصفّار، [حدّ] ثنا أبو مسلم إبراهیم بن عبدالله. وأخبرنا أبو نصر عمر بن عبدالعزیز بن عُمر بن قتادة النعمانیّ، أنبأ أبو عمرو إسماعیل بن نُجید السُّلمی، أنبأ أبو مسلم إبراهیم بن عبد الله البصری، [حدّ] ثنا أبوعاصم، عن ربیعة بن عبدالرحمن بن حصن الغنویّ، حدّثتنی سرّاءُ بنت نبهان و کانت ربَّة بیتٍ فی الجاهلیة قالت: سمعت رسول‌الله ۹ یقول فی حجّة الوداع: «هل تدرون أیُّ یومٍ هذا؟».

قال: و هو الیوم الذی یدعون یوم الرؤوس.

قالوا: الله و رسوله أعلم.

قال: «هذا أوسط أیّام التشریق، هل تدرون أیّ بلدٍ هذا؟».

قالوا: الله و رسوله أعلم.

قال: «هذا المَشْعَرُ الحرام». ثمّ قال: «إنّی لاـ أدری لعلّی لاـ ألقاکم بعد هذا، ألا و إنّ دماءکم و أموالکم و أعراضکم علیکم حرام کحرمة یومکم هذا، فی بلدکم هذا حتّی تلقوا ربّکم فیسألکم عن أعمالکم، ألا فلیُبَلِّغْ أدناکم أقصاکم، ألا هل بلّغتُ؟» فلمّا قدمنا المدینة لم یلبث إلّا قلیلًا حتّی مات ۹. ثمّ قال: رواه محمّد بن بشّار عن أبی عاصم بهذا الإسناد و قال: قالت: خطبنا رسول الله ۹ یوم الرؤوس (۲).

وفی مسند أحمد بن حنبل عن أبی نضرة قال: حدّثنی من سمع خطبة النبی ۹ فی وسط أیّام التشریق فقال: «یا أیّها الناس! إنّ ربّکم واحد، و إنّ أباکم واحد، ألاـ لاـ فضل لعربیّ علی عجمیّ، و لا لعجمیّ علی عربیّ، و لا لأحمر علی أسود، و لا لأسود علی أحمر إلّا بالتقوی. أبلّغت؟» قالوا: بلّغ رسول الله ۹ ... إلی آخر الحدیث (۳).

و قد روی فی دعائم الإسلام عن الإمام جعفر الصادق ۷، عن الإمام علیّ ۷ قال: سمعت رسول الله ۹ یخطب یوم النحر و هو یقول: «هذا یوم الثجّ و العجّ. و الثجّ: ما تهریقون فیه من الدماء، فمن صدقت نیّته کانت أوّل قطرة له کفّارة لکلّ ذنب. و العجّ: الدعاء، فعجّوا إلی الله، فوالّذی نفس محمّد بیده لا ینصرف من هذا الموضع أحد إلّا مغفوراً له إلّا صاحب کبیرة مصرّاً علیها لا یحدِّث نفسه بالإقلاع عنها» (۴).

ویُعتقد أنّ هذه الخطبة قد قالها ۹ بمنی یوم النحر فی حجّة الوداع، کما یدلّ علی ذلک لفظة «هذا الموضع».

ولکن یحتمل أن یکون قد ألقاها یوم عید الأضحی بالمدینة المنوّرة فی عام من الأعوام، و مراده من «هذا الموضع» مصلّی العید و مکان الخطبة و مجمع المسلمین، ولکن روایات البیهقی صریحة فی أنّه أوردها بمنی یوم النحر فی حجّة الوداع.

فقد روی البیهقی بسنده عن أبی بکرة قال: خطبنا رسول الله ۹ یوم النحر فقال: «لا ترجعوا بعدی کفّاراً یضرب بعضکم رقاب بعض».

و فیه أیضاً بسنده عن الهرماس بن زیاد قال: رأیت النبیّ ۹ و أنا صبیّ أردفنی أبی یخطب الناس بمنی یوم الأضحی علی راحلته.

و فیه أیضاً بسنده عن أبی أمامة سمعت أبا أمامة یقول: سمعت خطبة رسول الله ۹ بمنی یوم النحر.

و فیه أیضاً بسنده عن رافع بن عمرو المزنی قال: رأیت رسول الله ۹ یخطب الناس بمنی حین ارتفع الضحی علی بغلةٍ شهباء، و علیّ یُعَبِّرُ عنه، والناس بین قائم و قاعد (۵).

و روی الصدوق بسنده عن أبی أمامة یقول: سمعت رسول‌الله ۹ یقول: «أیّها الناس إنّه لا نبیّ بعدی، ولا أُمّة بعدکم، ألا فاعبدوا ربّکم، و صلّوا خمسکم، وصوموا شهرکم، وحجّوا بیت ربّکم، و أدّوا زکاة أموالکم طیّبة بها أنفسکم، و أطیعوا ولاة أمرکم تدخلوا جنّة ربّکم» (۶).

فهـذه الروايـة وإن لم تكن فيها دلالة على أنّ هذا الكلام صدر من النبيّ ۹ فی حجّة الوداع، لكن الروايتين الأخريين تدلّان على ذلك، فإنّ أحمد بن حنبل فی مسنده و الحاكم فی المستدرك قد زادا فيما روياه: يقول أبو أمامة: سمعت رسول‌الله ۹ يخطب الناس فی حجّة الوداع، و هو على الجـدعاء واضع رجله فی غراز الرحـل يتطاول يقول: ألا تسـمعون؟ فقال رجل من آخر القوم: ما تقول؟ قال: اعبـدوا ربّكم ... إلى آخر الحديث (۷).

۵- خطبته ۹ فی مسجد الخيف

روى الكلينی عن عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن أحمد بن محمّد بن أبی نصر، عن أبان بن عثمان، عن ابن أبی يعفور، عن أبی عبدالله ۷: أنّ رسول‌الله ۹ خطب الناس فی مسجد الخيف فقال: «نَضَّر الله عبداً سمع مقالتی فوعاها و حفظها و بلّغها من لم يسـمعها، فربّ حامل فقهٍ غيرُ فقيهٍ، و ربّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب امرئٍ مسلم: إخلاص العمل‌لله، و النصـيحة لأئمّـة المسـلمين، و اللزوم لجمـاعتهم، فـإنّ دعوتهم محيطـة من ورائهم، المسـلمون إخوة تتكافـأ دماؤهم، و يسـعى بـذمّتهم أدناهم».

۱- السنن الكبرى ۳۳۰: ۷.

۲- المصدر نفسه ۳۳۰: ۷.

۳- مسند أحمد بن حنبل ۱۲۷: ۹؛ نيل الأوطار ۸۲: ۵، باب الخطبة أوسط أيّام التشريق، ح ۳.

۴- دعائم الإسلام ۱۸۴: ۱؛ بحار الأنوار ۳۰۱: ۹۶؛ الجعفريات: ۴۶.

۵- السنن الكبرى ۳۰۸: ۷؛ سنن أبی داود: ۳۰۲- ۳۰۳.

۶- الخصال: ۳۲۲.

۷- مسند أحمد بن حنبل ۲۷۴: ۸؛ المستدرك على الصحيحين ۵۴۷: ۱.

ص: ۲۲

ثمّ قال: و رواه أيضاً عن حمّاد بن عثمان، عن أبان، عن ابن أبی‌یعفور مثله، وزاد فيه: «وهم يد على من سواهم». وذكر فی حديثه أنّه خطب فی حجّة الوداع بمنی فی مسجد الخيف. (۱)

ورواها الشيخ أبو عبدالله المفيد فی الأمالی بسند آخر ذكره عن الإمام الصادق ۷ أنّه قال: «خطب رسول الله يوم منی فقال ... إلی آخره» (۲).

ورواها أيضاً الشيخ الصدوق عن محمّد بن موسی بن المتوكّل قال: حدّثنا علی بن الحسين السعد آبادی قال: حدّثنا أحمد بن محمّد بن خالد، عن أحمد بن محمّد بن أبی نصر البزنطی، عن حمّاد بن عثمان، عن أبی عبدالله ۷، ورواها بسند آخر فی الخصال (۳)، و أيضاً وردت فی جمهرة خطب العرب (۴).

ورواها ابن ماجة فی السنن بسند ذكره عن جبير بن مطعم (۵)، أنّه قال: قام رسول الله ۹ بالخيف من منی فقال: «نضّر الله إلی أن قال فإنّ دعوتهم تحيط من ورائهم». وأمّا صدر الحديث فقط، فقد ذكره فی ضمن أحاديث متعدّدة (۶).

وقال الفيروز آبادی: رجع ۹ إلی منزله بالقرب من مسجد الخيف، و خطب خطبة بليغة، بلغ صوته إلی جميع أهل الخيام فی خيامهم، و هذا من جملة المعجزات النبويّة (۷).

وفی سنن أبی داود بسنده عن عبدالرحمن بن معاذ التيمی قال: خطبنا رسول الله ۹ و نحن بمنی ففتحت أسماعنا، حتّی كنّا نسمع ما يقول و نحن فی منازلنا، فطفق يعلّمهم مناسكهم حتّی بلغ الجمار، فوضع إصبعيه السبّابتين، ثمّ قال: بحصی الخذف، ثمّ أمر المهاجرين فنزلوا فی مقدّم المسجد، و أمر الأنصار فنزلوا من وراء المسجد، ثمّ نزل الناس بعد ذلك (۸).

وفی الكافی عن محمّد بن الحسن، عن بعض أصحابنا، عن علیّ بن الحكم، عن الحكم بن مسكين، عن رجل من قريش من أهل مكّة قال: قال سفيان الثوری: اذهب بنا إلی جعفر بن محمّد ۷ قال: فذهبت معه إليه، فوجدناه قد ركب دابّته، فقال له سفيان: يا أبا عبدالله حدّثنا بحديث خطبة رسول الله ۹ فی مسجد الخيف، قال: دعنی حتّی أذهب فی حاجتی فإنّی قد ركبت فإذا جئت حدّثتك، فقال: أسألك بقرابتك من رسول الله ۹ لمّا حدّثتنی، قال: فنزل، فقال له سفيان: مُر لی بدواة و قرطاس حتّی أثبته، فدعا به ثمّ قال: اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم. خطبة رسول الله ۹ فی مسجد الخيف: «نضّر الله عبداً سمع مقالتی فوعاها، و بلّغها من لم تبلغه، يا أيّها الناس! ليبلّغ الشاهد الغائب، فربّ حامل فقهٍ ليس بفقيه، و ربّ حامل فقه إلی من هو أفقه منه، ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، و النصيحة لأئمّة المسلمين، و اللزوم لجماعتهم، فإنّ دعوتهم محيطة من ورائهم، المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم، و هم يد علی من سواهم، يسعی بذمّتهم أدناهم».

فكتبه سفيان ثمّ عرضه عليه، وركب أبو عبدالله ۷. (۹)

و قد ذكر القمّی هذه الخطبة المباركة وزاد فی آخرها: و صيّة النبی ۹ فی التمسّك بالثقلين (۱۰)، وليس ببعيد؛ لأنّه قد أمر المسلمين بالتمسّك بالثقلين مرّات عديدة و فی مواطن شتّی.

۶- خطبة رسول الله ۹ عند الكعبة

عندما قضی رسول الله ۹ حجّته أتی مودّعاً للكعبة الشريفة، فلزم حلقة الباب و نادی:

أيّها الناس! فاجتمع من فی المسجد الحرام و من فی السوق حوله، فخطب هذه الخطبة البليغة و ذكر الفتن التی تحدث بعده و الفساد الذی يتعرّض له الناس فی أخلاقهم و أعمالهم و عقائدهم، و تحقّق أشراط الساعة.

وجدير بالذكر أنّ لهذه الخطبة المباركة روايات متعدّدة مختلفة فيما بينها فی بعض الألفاظ، و مشتركة فی الأكثر. فقد روی السيوطی فی الدرّ المنثور ذيل الآية الكريمة: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها (۱۱) وقال: أخرج ابن مردويه، عن ابن عبّاس رضی الله عنهما قال: حجّ النبی حجّة الوداع ثمّ أخذ بحلقة باب الكعبة فقال: أيّها الناس ألا أخبركم بأشراط الساعة إلی آخره

(۱۲).

ورواها أيضاً محيى الدِّين ابن العربى فى محاضرة الأبرار و مسامرة الأخيار مرسلًا عن عبدالله بن عبّاس، عن النبى ۹ (۱۳).

وأمّا فى كتب الشيعة الإماميّة فرويت فى جامع الأخبار مرسلة عن جابر بن عبدالله الأنصارى أنّه قال: حججت مع رسول الله ۹ حجّة الوداع، فلمّا قضى النبى ۹ ما افترض عليه من الحجّ أتى مودِّعاً الكعبة، فلزم حلقة الباب و نادى برفيع صوته: أيّها الناس! فاجتمع أهل المسجد و أهل السوق، فقال: اسمعوا إنّى قائل ما هو بعدى كائن ... إلى آخره (۱۴).

وجاء فى تفسير القمى فى ذيل الآية المباركة: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ قال: حدّثنى أبى، عن سليمان بن مسلم بن الخشّاب، عن عبدالله بن جريج المكّى، عن عطاء بن أبى رباح، عن عبدالله بن عبّاس قال: حججنا مع رسول الله ۹ حجّة الوداع فأخذ بحلقة باب الكعبة، ثمّ أقبل علينا بوجهه، فقال:

«ألا أُخبركم بأشراط الساعة؟» و كان أدنى الناس منه يومئذٍ سلمان رحمة الله عليه، فقال: بلى يا رسول الله!

۱- الكافى ۴۰۳: ۱.

۲- الأمالى للمفيد: ۱۸۶؛ بحار الأنوار ۱۴۸: ۲.

۳- الأمالى للصدوق: ۴۳۱؛ الخصال: ۱۴۹.

۴- جمهرة خطب العرب ۱۵۱: ۱، خطبة النبىّ ۹ بالخيف، رقم ۵.

۵- سنن ابن ماجة ۱۰۱۵: ۲.

۶- سنن ابن ماجة ۸۴: ۱- ۸۵.

۷- سفر السعادة: ۱۸۱.

۸- سنن أبى داود: ۳۰۳، و نحوه فى الطبقات الكبرى ۱۸۵: ۲.

۹- الكافى ۴۰۳: ۱؛ بحار الأنوار ۳۶۵: ۴۷.

۱۰- تفسير القمى ۴۴۷: ۲؛ بحار الأنوار ۱۱۴: ۳۷.

۱۱- محمّد: ۱۸.

۱۲- الدرّ المنثور: ۴۱۲: ۷.

۱۳- محاضرة الأبرار و مسامرة الأخيار ۶۰: ۱- ۶۲.

۱۴- جامع الأخبار: ۳۹۵- ۳۹۷؛ بحار الأنوار ۲۶۲: ۵۲.

ص: ۲۳

فقال ۹: «إنّ من أشراط الساعة إضاعة الصلوات و اتّباع الشهوات، و الميل إلى الأهواء، و تعظيم أصحاب المال، و بيع الدين بالدنيا، فعندها يذوب قلب المؤمن فى جوفه كما يُذاب الملح فى الماء ممّا يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيّره».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟!

قال: «إى والّذى نفسى بيده يا سلمان! إنّ عندها يليهم أُمراء جَوَرَة و وزراء فسقة، و عرفاء ظلمة، و أُمناء خونة».

فقال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول الله؟!

قال ۹: «إى و الذى نفسى بيده يا سلمان! إنّ عندها يكون المنكر معروفاً، و المعروف منكراً، و يؤتمن الخائن، و يخوّن الأمين، و يصدَّق الكاذب، و يكذَّب الصادق ... إلى آخر الخطبة الشريفة» (۱).

۷- خطبته ۹ فى غدير خُم

بعد أن أتم رسول الله ۹ و المسلمون حجّهم و قضوا مناسكهم خرجوا من مكة المكرمة فى ضحى اليوم الرابع عشر من ذى الحجة الحرام متوجّهين إلى المدينة المنوّرة، و كان موكب الرسول ۹ يسير نحو المدينة منزلًا بعد منزل و مرحلة بعد مرحلة، حتّى مضى اليوم الخامس عشر و السادس عشر و السابع عشر، و فى ضحى اليوم الثامن عشر و حينما بلغ الموكب الشريف قريباً من الجحفة بغدير خمّ و قد ابتعد ۱۸۵ كيلومتراً عن مكة، و قبل تفرّق الحجاج فى مسيرهم و ذهابهم إلى أوطانهم، نادى منادى الرسول ۹: الصلاة جامعة.

فارتجّ الحجاج من هذا النداء، إذ لم تكن هذه الساعة زمان نزول، و لم يكن هذا المكان منزلًا و موقفاً للاستراحة، فتوقّف الموكب، فلحق من كان فى آخر القافلة، ورجع من كان فى مقدّمها، فاجتمعوا فى الحرّ الشديد ليسمعوا الخبر الهامّ، حتّى وضع كثير منهم رداءه على رأسه من شدّة حرارة الشمس، ووضع البعض رداءه تحت قدميه اتّقاءً لِلَهيب الرمضاء.

فصلّى رسول الله ۹ بالمسلمين صلاة الظهر، ثمّ صنعوا من أقتاب الإبل منبراً رفيعاً لرسول الله ۹، فصار الأُلوف من البشر آذاناً صاغية لكلامه ۹ ليسمعوا و ليعوا كلام خطيب الله تعالى، فرقى المنبر و فتح فمه الطيّب و تكلّم بكلام بلّغ فيه المسلمين ما أمره الله تعالى بتبليغه.

و نحن نورد الخطبة الشريفة عن كتاب المناقب لابن المغازلى الشافعى بسند ذكره، فقال رسول الله ۹:

الحمد لله نحمده و نستعينه، و نؤمن به و نتوكّل عليه، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، الذى لا هادى لمن أضلّ، و لا مضلّ لمن هدى، و أشهد أن لا إله إلّا الله، و أنّ محمّداً عبده و رسوله.

أمّا بعد أيّها الناس! فإنّه لم يكن لنبىّ من العمر إلّا نصف من (۲) عمّر من قبله، و إنّ عيسى بن مريم ۷ لبث فى قومه أربعين سنة، وإنّى قد أسرعت فى العشرين، ألا وإنّى يوشك أن أُفارقكم، ألا وإنّى مسؤول و أنتم مسؤولون، فهل بلّغتكم؟ فماذا أنتم قائلون؟

فقام من كلّ ناحية من القوم مجيب يقولون: نشهد أنّك عبدالله و رسوله، قد بلّغت رسالته، و جاهدت فى سبيله، و صدعت بأمره، و عبدته حتّى أتاك اليقين، جزاك الله عنّا خير ما جزى نبيّاً عن أمّته.

فقال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلّا وحده لاشريك له، و أنّ محمّداً عبده و رسوله، و أنّ الجنّة حقّ، و أنّ النار حقّ، و تؤمنون بالكتاب كلّه؟ قالوا: بلى، قال: فإنّى أشهد أن قد صدقتكم و صدّقتمونى، ألا و إنّى فرطكم و إنّكم تبعى، توشكون أن تردوا علىَّ الحوض، فأسألكم حين تلقوننى عن ثقلىَّ كيف خلفتمونى فيهما»؟

قال: فأُعيل علينا (۳) ما ندرى ما الثقلان، حتّى قام رجل من المهاجرين و قال: بأبى و امّى أنت يا نبىّ الله ما الثقلان؟

قال ۹: «الأكبر منهما كتاب الله تعالى، سبب طرفه بيدالله و طرف بأيديكم، فتمسّكوا به، ولا تضلّوا، و الأصغر منهما عترتى. من استقبل قبلتى و أجاب دعوتى، فلا تقتلوهم و لا تقهروهم و لا تقصروا عنهم، فإنّى قد سألت لهم اللطيف الخبير فأعطانى، ناصرهما لى ناصر، وخاذلهما لى خاذل، ووليّهما لى ولىٌّ، وعدوّهما لى عدوٌّ.

ألاـ و إنّها لم تهلك أمّةٌ قبلكم حتّى تتديّن بأهوائها، و تظاهر على نبوّتها، و تقتل من قام بالقسط، ثمّ أخذ بيد عليّ بن أبى طالب ۷ فرفعها ثمّ قال: مَنْ كنتُ مولاه فهذا مولاه، و مَنْ كنتُ و ليّهُ فهذا و ليّهُ، اللّهمَّ والِ من والاهُ، وعادِ مَنْ عاداهُ». قالها ثلاثاً (۴).

ثمّ توّج رسول الله ۹ عليّاً ۷ بعمامته «السحاب» أمام جموع حاشدة من المؤمنين بيده الشريفة، فسدل طرفها على منكبه، و أمر المهاجرين و الأنصار أن يسلّموا على عليّ ۷ بإمرة المؤمنين ويهنّئونه بهذه الفضيلة العظيمة. فسلّم وجوه المسلمين (۵) عليه بإمرة المؤمنين و هنّأوه (۶).

ومن يراجع أغلب المصادر التاريخية و كتب الحديث يجد أنّ هذه الخطبة قد احتلّت العديد من الصفحات، و أبرزوا و جوهها المختلفة، و من هؤلاء الطبرى الّذى ألّف كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خمّ فى مجلّدين ضخمين. (۷)

۱- تفسير القمى ۳۰۳: ۲- ۳۰۷، عنه بحار الأنوار ۳۰۵: ۶- ۳۰۹، و تفسير البرهان ۱۸۳: ۴ ذيل الآية الكريمة فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها محمّد ۱۸: ۹.

۲- فى العمدة: ۱۰۵ و البحار ۱۸۴: ۳۷: «ما» بدل «من».

۳- يقال: علت الضالّة أُعيل عيلًا و عيلاناً فأنا عائل: إذا لم تدر أىّ وجهة تبغيها؛ عن أبى زيد، و قال الأحمر: عالنى الشىء يعيلنى عيلًا و معيلًا: إذا أعجزك، و المراد أى: عجزنا عن فهم الثقلين.

۴- المناقب لابن المغازلى: ۱۶، عنه العمدة لابن البطريق: ۱۰۴؛ و بحار الأنوار ۱۸۴: ۳۷؛ وانظر الأمالى للطوسى: ۲۲۷.

۵- أخرج الطبرى فى كتاب الولاية ۲۱۴- ۲۱۶ حديثاً بإسناده عن زيد بن أرقم، أن رسول الله ۹ قال بعد خطبته تلك: معاشر الناس! قولوا: أعطيناك على ذلك عهداً، عن أنفسنا ... إلى أن قال: قولوا ما قلت لكم، و سلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين، و قولوا: الحمد لله الّذى هدانا لهذا ...

قال زيد بن أرقم: فعند ذلك بادر الناس بقولهم: نعم سمعنا و أطعنا على أمر الله و رسوله بقلوبنا.

وكان أوّل من صافق النبى ۹ و علياً: أبوبكر و عمر و عثمان و طلحة و الزبير و باقى المهاجرين و الأنصار و باقى الناس إلى أن صلّى الظهرين فى وقت واحد، وامتدّ ذلك إلى أن صلّى العشائين فى وقت واحد، وأوصلوا البيعة والمصافقة ثلاثاً.

۶- مسند أبى داود: ۲۳؛ كنز العمال ۴۸۲: ۱۵؛ الرياض النضرة ۱۷۰: ۳؛ فرائد السمطين ۷۵: ۱؛ الفصول المهمة: ۴۱؛ السيرة الحلبية ۳۴۱: ۳.

۷- البداية و النهاية ۱۵۷: ۱۱.

ص: ۲۴

و قال الشیخ سلیمان الحنفی القندوزی فی ینابیع المودّة: حُکی عن أبی المعالی الجوینی الملقّب بإمام الحرمین أستاذ أبی حامد الغزالی أنّه قال: رأیت مجلّداً فی بغداد فی ید صحّاف فیه روایات خبر غدیر خمّ مکتوباً علیه المجلّدة الثامنة و العشرون من طرق قوله ۹: من کنت مولاه فعلیّ مولاه، و یتلوه المجلّدة التاسعة و العشرون (۱).

ومتن الخطبة الشریفة یختلف فی الروایات الحاکیة لها، و کلّها تشتمل علی قول رسول الله ۹ مخاطباً هذا الجمع العظیم:

«ألست أولی بکم من أنفسکم»؟

قالوا: بلی، فأخذ بضبع علیّ بن أبی طالب و رفعها حتّی رُئیَ بیاض إبطیهما،

فقال: «من کنت مولاه فهذا علیّ مولاه، اللهمَّ و الِ من والاه، و عادِ من عاداه، وانصر من نصره، و اخذل من خذله».

و فی الاحتجاج و روضة الواعظین و العدد القویّة و الیقین (۲) ذکروا خطبة طویلة جدّاً للنبیّ العظیم فی هذا المشهد العامّ، و بعض المؤلِّفین ذکر نصّاً متوسّطاً بین القصیر و الطویل لهذه الخطبة؛ کابن المغازلی (۴۸۳ ه) فی المناقب کما مرّ، و ابن الأثیر فی أُسدالغابة (۳)، و الشیخ أحمد أبوالفضل بن محمّد باکثیر المکّی الشافعی (المتوفّی ۱۰۴۷ ه) فی وسیلة المآل فی عدّ مناقب الآل (۴)، والشیخ العاملی فی ضیاء العالمین عن کتاب الولایة للطبری المؤرِّخ (۵)، و المتّقی الهندی فی کنز العمّال (۶)، والحموینی فی فرائد السمطین (۷)، و ابن الصبّاغ المالکی فی الفصول المهمّة (۸)، و ابن کثیر فی البدایة و النهایة (۹)، و ابن حجر فی الصواعق المحرقة (۱۰)، و الحلبی فی السیرة النبویة (۱۱)، و الهیثمی فی مجمع الزوائد (۱۲)، و القرمانی فی أخبار الدول (۱۳)، و بعض المحدِّثین و الرواة ذکروا فقط نقطة هامّة من هذه الخطبة؛ و هی قول رسول الله ۹: من کنت مولاه فعلیٌّ مولاه.

و بعد إیراد هذه الخطبة قال الشاعر الشهیر حسّان بن ثابت لرسول الله ۹: ائذن لی یا رسول الله أن أقول فی علیّ أبیاتاً تسمعهنّ، فقال ۹: قُل علی برکة الله، فأنشد حسّان بن ثابت شعره المعروف:

ینادیهمُ یوم الغدیر نبیّهم

بخمّ و اسمع بالرّسول منادیافقال: فمن مولاکمُ و نبیّکمفقالوا و لم یبدوا هناک التعامیاإلهک مولانا و أنت نبیّناو لم تلق منّا فی الولایة عاصیافقال له قم یا علیّ فإنّنیرضیتک من بعدی إماماً و هادیافمن کنت مولاه فهذا ولیّهفکونوا له أتباع صدقٍ مواليهناک دعا: اللّهمّ والِ ولیّهوکُن للّذی عادی علیّاً معادیاو قد روی هذه الأبیات السنّة العلامة الأمینی فی کتابه الغدیر (۱۴) عن اثنی عشر من علماء أهل السنّة و عن اثنین و عشرین من علماء الإمامیة، و نقلها عن کتاب سلیمان بن قیس الهلالی و المولی محسن الفیض الکاشانی فی «علم الیقین» (۱۵) بزیادة أبیات أربعة، و قال بعد البیت الأوّل: وقد جاء جبریل عن أمر ربّه

بأنّک معصوم فلا تکُ وانیاو بلّغهم ما أنزل الله ربّهم إلیکو لا تخش هناک الأعادیافقام به إذ ذلک رافع کفّهبکفّ علیٍّ مُعلن الصوت عالیاو زاد بعد البیت السادس: فیاربّ انصر ناصریه لنصرهم

إمام هدی کالبدر یجلو الدیاجیاثمّ قال العلامة الأمینی: و الذی یظهر للباحث أنّ حسّاناً أکمل هذه الأبیات بقصیدة ضمّنها نبذاً من مناقب أمیرالمؤمنین ۷ (۱۶). وفی ختام حدیثنا عن هذه الخطبة الهامة، ولکی نرفع ما قد یتسرّب إلی نفوس البعض من الشک فیها نذکر شیئاً عن رواتها من الصحابة و التابعین، و ماأُلِّفَ فی حدیث الغدیر، فنقول:

أوّلًا: روی حدیث الغدیر من الصحابة مئة و عشرون صحابیاً منهم:

۱. أبوبکر بن أبی قحافة التیمی: (المتوفی ۱۳ ه).

۲. أبوهریرة الدوسی: (المتوفّی ۵۷- ۵۹ ه).

۱- ینابیع المودّة ۱۱۳: ۱- ۱۱۴.

۲- الاحتجاج ۱۳۳: ۱- ۱۶۲؛ روضة الواعظین: ۸۹- ۱۰۱؛ العدد القویّة: ۱۶۹؛ الیقین: ۳۴۳- ۳۶۱. و راجع ما نقله العلامة المجلسی عن واقعة الغدیر فی بحار الأنوار ۱۰۸: ۳۷- ۲۵۳.

۳- أُسد الغابة ۳۳: ۳- ۳۴.

۴- وسیلة المآل فی عدّ مناقب الآل: ۱۱۶- ۱۱۸.

۵- قال ابن کثیر فی تاریخه ۱۴۶: ۱۱ فی ترجمة الطبری: إنی رأیت له کتاباً جمع فیه أحادیث غدیر خم فی مجلدین ضخمین. انظر: الغدیر، للعلامة الأمینی ۴۲۴: ۱- ۴۲۶.

۶- کنز العمال ۱۰۴: ۱۳- ۱۰۵.

۷- فرائد السمطین ۶۲: ۱- ۷۸.

۸- الفصول المهمة: ۴۰.

۹- البدایة و النهایة ۱۹۷: ۵- ۲۰۵ و ۳۲۸: ۷- ۳۳۱.

۱۰- الصواعق المحرقة: ۴۲- ۴۹.

۱۱- السیرة النبویة ۳۳۶: ۳- ۳۳۷.

۱۲- مجمع الزوائد ۲۵۹: ۹.

۱۳- أخبار الدول: ۱۰۲.

۱۴- الغدیر ۶۵: ۲.

۱۵- علم الیقین: ۳۴۳- ۳۶۱.

۱۶- الغدیر ۷۳: ۱

ص: ۲۵

۳. أبولیلی الأنصاری: إستشهد بصفین مع الإمام علی ۷ سنة ۳۷ ه.

۴. أبو زینب بن عوف الأنصاری.

۵. أبو فضالة الأنصاری: بدری استشهد بصفین مع الإمام علی ۷.

۶. أبو قدامة الأنصاری.

۷. أبو عمرة بن عمرو بن محصّن الأنصاری.

۸. أبو الهیثم بن التیّهان، إستشهد بصفین مع الإمام علی ۷ سنة ۳۷ ه.

۹. أبو رافع القبطیّ.

۱۰. أبو ذؤیب خویلد أو خالد- ابن خالد بن محرث الهذلی.

ثانیاً: و رواه أیضاً اثنان و ثمانون من التابعین، منهم:

۱. أبو راشد الحبرانی الشامی، إسمه أخضر، نعمان.

۲. أبو سلمة عبدالله بن عبدالرحمن بن عوف الزّهری المدنی (المتوفّی ۹۴ ه).

۳. أبو سلیمان المؤذّن.

۴. أبو صالح السمّان، ذکوان المدنی (المتوفّی ۱۰۱ ه).

۵. أبو عنفوانة المازنی.

۶. أبو عبد الرحیم الکندی.

۷. أبو القاسم الأصبغ بن نُباتة التمیمی، الکوفی.

۸. أبو لیلی الکندی.

۹. إیاس بن نُذَیر.

۱۰. جمیل بن عمارة.

ثالثاً: و قد أیّده و رواه من العلماء و أعلام الحفاظ والمؤرّخین ثلاثمئة و ستون، نذکر منهم:

۱. الحافظ أبو عیسی الترمذی (المتوفّی ۲۷۹ ه). (۱)

۲. الحافظ أبو جعفر الطحاوی (المتوفّی ۲۷۹ ه). (۲)

۳. الحافظ ابن عبد البرّ القرطبی (المتوفّی ۴۶۳ ه). (۳)

۴. الفقیه أبو الحسن بن المغازلی الشافعی (المتوفّی ۴۸۳ ه). (۴)

۵. حجة الإسلام أبو حامد الغزالی (المتوفّی ۵۰۵ ه). (۵)

۶. الحافظ أبو الفرج بن الجوزی الحنبلیّ (المتوفّی ۵۹۷ ه).

۷. أبو المظفر سبط ابن الجوزی الحنفی (المتوفّی ۶۵۴ ه). (۶)

۸. ابن أبی الحدید المعتزلی (المتوفّی ۶۵۵ ه .). (۷)

۱- سنن الترمذی ۵۹۱: ۵.

۲- مشکل الآثار ۳۰۸: ۲.

۳- الاستيعاب ۳۷۳: ۲.

۴- مناقب على بن أبى طالب: ۲۷ برقم ۳۹.

۵- سرالعالمين: ۲۱.

۶- تذكرة الخواص: ۲۹.

۷- شرح نهج البلاغة ۱۶۶: ۹.

ص: ۲۶

۹. الحافظ أبو عبدالله الكنجى الشافعى (المتوفّى ۶۵۸ ه). (۱)

۱۰. الشيخ أبو المكارم علاء الدين السمنانى (المتوفّى ۷۳۶ ه). (۲)

۱۱. شمس الدين الذهبى الشافعى (المتوفّى ۷۴۸ ه). (۳)

۱۲. شمس الدين الجزرى الشافعى (المتوفّى ۸۳۳ ه). (۴)

۱۳. الحافظ ابن حجر العسقلانى (المتوفّى ۸۵۲ ه). (۵)

۱۴. جمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن صلاح الدين الحنفى. (۶)

۱۵. نور الدين الهروى التازى الحنفى (المتوفّى ۱۰۱۴ ه). (۷)

۱۶. زين الدين المناوى الشافعى (المتوفّى ۱۰۳۱ ه). (۸)

۱۷. نور الدين الحلبى الشافعى (المتوفّى ۱۰۴۴ ه). (۹)

۱۸. السيد محمد البرزنجى الشافعى (المتوفّى ۱۱۰۳ ه). (۱۰)

۱۹. السيد ابن حمزه الحرانى الدمشقى الحنفى (المتوفّى ۱۱۲۰ ه). (۱۱)

۲۰. ميرزا محمد البدخشى. (۱۲)

۲۱. مفتى الشام العمادى الحنفى الدمشقى (المتوفّى ۱۱۷۱ ه). (۱۳)

۲۲. أبو العرفان الصبان الشافعى (المتوفّى ۱۲۰۶ ه). (۱۴)

۲۳. محمود الآلوسى البغدادى (المتوفّى ۱۲۷۰ ه). (۱۵)

۲۴. الشيخ محمود الحوت البيروتى الشافعى (المتوفّى ۱۲۷۶ ه). (۱۶)

۲۵. المولوى وليّ الله اللكهنوى. (۱۷)

۲۶. الحافظ المعاصر شهاب الدين الغمارى المغرب. (۱۸)

۲۷. الشيخ عبدالعزيز محمد بن الصدّيق المغربى. (۱۹)

رابعاً: من ألف فى حديث الغدير.

و إليك قائمة بأسماء بعض من ألف فى حديث الغدير و اسم كتابه أو رسالته و لا ندّعى هنا أننا سنذكر كل ما أُلّف بهذا الصدد لأنّ ذلك لا ولن يتوقف إن شاء الله تعالى:

۱. أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبرى، الآملى، (المتوفّى ۳۱۰ ه) له كتاب «الولاية فى طرق حديث الغدير».

۲. أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الهمدانى، الحافظ المعروف بابن عقدة (المتوفّى ۳۳۳ ه) له «كتاب الولاية فى طرق حديث الغدير».

۳. أبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن سالم التميمى، البغدادى، المعروف بالجُعابى (المتوفّى سنة ۳۵۵ ه) له كتاب «مَنْ روى حديث غدير خم».

۴. أبو طالب عبدالله بن أحمد بن زيد الأنبارى، الواسطى (المتوفّى ۳۵۶ ه) له كتاب «طرق حديث الغدير».

۵. أبوغالب أحمد بن محمد بن محمد الزّرارى (المتوفّى ۳۶۸ ه) له جزء فى خطبة الغدير.

۶. أبو المفضّل محمد بن عبدالله بن المطّلب الشيبانى (المتوفّى ۳۷۲ ه) له كتاب «مَنْ روى حديث غدير خم».

۱- كفاية الطالب: ۶۰- ۶۱.

۲- العروة لأهل الخلوة: ۴۲۲.

۳- تلخيص المستدرك ۶۱۳: ۳.

۴- أسنى المطالب: ۴۸.

۵- فتح البارى ۷۴: ۷.

۶- المعتصر من المختصر ۳۰۱: ۲.

۷- المرقاة فى شرح المشكاة ۴۶۴: ۱۰.

۸- فيض القدير ۲۱۸: ۶.

۹- السيرة الحلبية ۲۷۴: ۳.

۱۰- النواقض للروافض: الورقة ۸.

۱۱- البيان و التعريف ۷۵: ۳.

۱۲- نزل الأبرار: ۵۴.

۱۳- الصلات الفاخرة: ۴۹.

۱۴- إسعاف الراغبين فى هامش نورالأبصار: ۱۵۳.

۱۵- روح المعانى ۱۹۵: ۶.

۱۶- أسنى المطالب: ۴۶۱.

۱۷- مرآة المؤمنين فى مناقب أهل بيت سيد المرسلين: ۴۰.

۱۸- تشنيف الآذان: ۷۷.

۱۹- مجلة الموسم: ۷۴، م ۲- ۱۱۹۰ م، مهرجان الغدير/ لندن.

ص: ۲۷

۷. الحافظ علی بن عمر الـدارقطنی، البغدادی (المتوفّی ۳۸۵ ه) قال الکنجی الشافعی فی کفایته عنـد ذکر حدیث الغدیر: جمع الحافظ الدارقطنی طرقه فی جزء.

۸. الشیخ محسن بن الحسین بن أحمد النیسابوری، الخزاعی، له کتاب «حدیث الغدیر».

۹. علی بن عبدالرحمن بن عیسی بن عروة بن الجراح القنانی (المتوفّی ۴۱۳ ه) له کتاب «طرق خبر الولایة».

۱۰. أبو عبدالله الحسین بن عبید الله بن إبراهیم الغضائری المتوفّی (۴۱۱ ه) له کتاب «یوم الغدیر».

۱۱. الحافظ أبوسعید مسعود بن ناصر بن أبی زید السجستانی (المتوفّی ۴۷۷ ه) له کتاب «الدرایة فی حدیث الولایة».

۱۲. أبو الفتح محمد بن علی بن عثمان الکراجکی (المتوفّی ۴۴۹ ه) له کتاب «عدة البصیر فی حجج یوم الغدیر».

۱۳. علی بن بلال بن معاویة بن أحمد المهلبی: له کتاب «حدیث الغدیر».

۱۴. الشیخ منصور اللائی، الرازی، له کتاب «حدیث الغدیر».

۱۵. الشیخ علی بن الحسن الطاطری، الکوفی، صاحب کتاب «فضائل أمیرالمؤمنین ۷» له «کتاب الولایة».

۱۶. أبو القاسم عبید الله بن عبدالله الحسکانی: له کتاب «دعاة الهداة إلی أداء حق الموالاة»، یذکر فیه حدیث الغدیر.

۱۷. شمس الدین محمد بن أحمد الذهبی (المتوفّی ۷۴۸ ه) له کتاب «طرق حدیث الغدیر».

۱۸. شمس الدین محمد بن الجزری، الدمشقی، المقری، الشافعی (المتوفّی ۸۳۳ ه) أفرد رسالة فی «إثبات تواتر حدیث الغدیر».

۱۹. المولی عبدالله بن شاه منصور القزوینی، الطوسی له: «الرسالة الغدیریة».

۲۰. السید سبط الحسن الجایسی، الهندی، اللکهنوی: له کتاب «حدیث الغدیر» بلغة الأردو طبع فی الهند.

۲۱. السـید میر حامد حسـین ابن السـید محمد قلی الموسوی، الهندی، اللکهنوی (المتوفّی سنة ۱۳۰۶ ه)، ذکرحـدیث الغدیر و طرقه و تواتره و مفاده فی مجلّدین ضخمین فی ألف و ثمان صحائف. و هما من مجلّدات کتابه الکبیر «العبقات».

۲۲. السید مهدی ابن السید علی الغریفی، البحرانی، النجفی (المتوفّی ۱۳۴۳ ه (له کتاب «حدیث الولایة فی حدیث الغدیر».

۲۳. الحاج الشیخ عباس بن محمدرضا القمی (المتوفّی ۱۳۵۹ ه).

۲۴. السـید مرتضـی حسـین الخطیب الفتحبوری، الهنـدی: له کتاب تفسـیر التکمیل فی آیـة: الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ النازلة فی واقعة الغدیر.

۲۵. الشیخ محمدرضا ابن الشیخ طاهر آل فرج الله، النجفی: له کتاب «الغدیر فی الإسلام».

۲۶. العّلامة الشیخ عبدالحسین بن أحمد الأمینی النجفی (المتوفّی ۱۳۹۰ ه)، له: «الغدیر فی الکتاب و السنة و الأدب» فی ۱۱ جزءاً. (۱)

هذا ما اسـتطعنا أن نعرضه للقارئ الکریم من خطب رسول الله ۹ فی حجـة الوداع، عسـی أن نکون قد ساهمنا فی رسم صورة لما بذله رسول الله ۹ من جهود و تضحیات فی سبیل إرشاد أُمّته و توضیح معالم الدین الإسلامی الحنیف لأجیال الأُمّة الإسلامیة.

نسأل الله أن یوفقنا للاستنان بسنّته و أن یرزقنا شفاعته فی الآخرة و زیارته فی الدنیا، والشکر لله، و له الحمد علی توفیقه للصالحات.

۱- یعـد هـذا الکتاب موسوعة شاملة لکل ما یتعلّق بخطبة النبی ۹ فی غـدیر خم فی الیوم الثامن عشـر من ذی الحجـة الحرام عام حجة الوداع. و هو شامل لمناقشات تتعلّق بأسانید الخطبة و دلالتها و ما تثبته و تنفیه.

ص: ۲۸

ص: ۲۹

ص: ۳۰

ص: ۳۱

ص: ۳۲

ص: ۳۳

رسالة «نيات الحج»

الأثر المكتشف حديثاً لابن فهد الحلّى

المقدمة

جمال الدين أبوالعباس أحمد بن محمد بن فهد الأسدى الحلى (۷۵۶- ۸۴۱ ه-) الفقيه والعارف الشيعى البارز فى القرن الثامن والتاسع الهجرى، ترك هذا الفقيه أعمالًا متعددة فى مختلف مجالات العلوم الإسلامية، سيما فى الفقه الشيعى.

انظر حول حياته، وأعماله المنابع والمصادر والمخطوطات والنسخ على الشكل التالى:

۱- موسوعة مؤلفى الإمامية، ج ۵، صص ۸۳- ۱۰۹، ط قم، مجمع الفكر الإسلامى، ۱۴۲۳ ه-.

۲- نسخه پژوهشى، ج ۳، صص ۳۳۵- ۳۹۸، مقالة: «راهنماى پژوهش درباره ابن فهد الحلى/ مرشد بحثى حول ابن فهد الحلى». طهران، مكتبة ومتحف ومركز وثائق مجلس الشورى الإسلامى، ۱۳۸۵ ش، ۲۰۰۶ م.

ففى هذه المصادر هناك حديث عن أكثر من ۵۰ مؤلّفاً لابن فهد، ورسالة «نيات الحج» التى عثر عليها حديثاً لابن فهد الحلى، موجودة بنسخة واحدة مع تسع رسائل أخرى له فى مكتبة جامعة لوس‌انجلس تحت رقم. ۱۳۱۳ M وهناك صورة لها فى مكتبة آيةالله المرعشى النجفى/ تحت رقم: ۱۱۱۹.

ص: ۳۴

وهـذه المجموعهٔ کتبت بید عبدالمحمود بن محمد بن علی الحسینی فی شوال ۸۱۱ ه-، أی فی حیاهٔ المؤلف، وقـد ذکر فیها المؤلف مع دعاء «أدام الله أیامه» و «أدام الله فضائله».

وفی الورقهٔ ۳۲ من هذه المجموعهٔ توجد رسالهٔ نیات الحج، وقبلها «رسالهٔ وجیزهٔ فی واجبات الحج ونیاته»، وبعدها «کفایهٔ المحتاج فی مناسک الحاج»، وربما لصـغر حجم هذه الرسالهٔ واقتراب موضوعها من الرسالتین السابقهٔ واللاحقهٔ علیها لم یلحظها المفهرسون وعلماء المصنفات؛ فظلّت بعیدهٔ عن التناول. (۱)

وعلی أی حال، فتحقیق وتصـحیح هذه الرسالهٔ القیمهٔ فی هذه الأیام المضطربهٔ منحت هذا العبد الأقل ساعات أنس وسعادهٔ، وأرجو أن تمنح أهل البحث والتحقیق ذلک فی عملهم. والسلام.

أبوالفضل حافظیان

۳۰ مهر ۸۶ ش/ ۲۰۰۷ م

۱. انظر: نشریهٔ نسخه‌های خطی ۷۲۴: ۱۱.

رسالهٔ نیّات الحجّ لابن فهد

أتوجَّهُ إلی بیت الله تعالی بمکهٔ لأداء حَجّ التمتع حجّ الإسلام، لوجوبه قربهً إلی الله.

أُحْرِم بالعمرهٔ المتمّع بها إلی الحجّ عمرهٔ الإسلام وأُلبّی التلبیات الأربع لأعقد بها الإحرام المذکور؛ لوجوب ذلک کلّه قربهً إلی الله.

أطوف طواف العمرهٔ المتمّع بها إلی الحجّ عمرهٔ الإسلام؛ لوجوبه قربهً إلی الله.

أُصلی رکعتی طواف العمرهٔ المتمّع بها إلی الحجّ حجّ الإسلام أداءً؛ لوجوبهما قربهً إلی الله.

أسعی سعی العمرهٔ المتمّع بها إلی الحجّ عمرهٔ الإسلام؛ لوجوبه قربهً إلی الله.

أُقَصِّرُ للإحلال من عمرهٔ المتمّع بها إلی حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربهً إلی الله.

أُحْرِمُ بحجّ التمتّع حجّ الإسلام وأُلبی التلبیات الأربع لأعقد بها الإحرام المذکور؛ لوجوب ذلک کلّه قربهً إلی الله.

أَقِفُ بعرفهٔ لحجّ التمتّع حجّ الإسلام، لوجوبه قربهً إلی الله.

أَقِفُ بالمشعر لحجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربهً إلی الله.

أرمی جمرهٔ العقبهٔ الرمی الواجب علیّ فی حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربهً إلی الله.

أذْبَحُ الهدیَ الواجب علیّ فی حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربهً إلی الله.

آکُلُ من الهدی الواجب علیّ فی حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربهً إلی الله.

اهدی ثلث الهدی الواجب علیّ فی حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربهً إلی الله.

أتصدَّق بثلث الهدی الواجب علیّ فی حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربهً إلی الله.

أحْلِقُ رأسی حلق حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربهً إلی الله.

أُطوف طواف حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربهٔ إلی الله.

أُصلی رکعتی طواف حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربهٔ إلی الله.

أسعی لحجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربهً إلی الله.

أطوف طواف النساء الواجب علیّ فی حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربهً إلی الله.

ص: ۳۵

أُصلّی رکعتی طواف النساء الواجب علیّ فی حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبهما قربةً إلی الله.

أبیت اللیلة بِمنی المبیت الواجب علیّ فی حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلی الله.

أرمی هذه الجمرة الرمی الواجب علیّ فی حجّ التمتّع حجّ الإسلام؛ لوجوبه قربةً إلی الله.

وصلّی الله علی سیّدنا محمّد النبی وآله الطیبین الطاهرین. والحمدلله وحده. ربّ اختم بالخیر إنّک علی کل شیءٍ قدیر.

فلیکن هذا آخر الرسالة حذر الإسهاب بالإطالة وصلی الله علی محمد و آله و سلم تسلیماً والحمد لله ربّ العالمین ربّ یسّر و اختم بالخیر إنک علی کل شیءٍ قدیر و بالإجابة جدیر.

ص: ۳۶

توسعة المسعى دراسة فقهية تاريخية بيئية جيولوجية

أ. د. عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان

بعد أن بادرت مجلة «ميقات الحج» لنشر أوائل الدراسات الفقهية حول مشروع توسعة المسعى، أسهم فيها بعض الفقهاء وأساتذة الحوزة العلمية المحترمين، على رأسهم سماحة آية الله العلامة الشيخ جعفر السبحاني، فشارك المجلة هذه المرّة في هذا البحث بمساهمة مشكورة من سماحة الأستاذ الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان، الذي اعتنى بالدراسات التي نشرت في المجلة، واستفاد من إفادات العلامة السبحاني، فإلى القارئ الكريم نقدم هذه الدراسة الشيّقة.

التحرير

الصفا والمروة في اللغة والتفسير

جاء شرح كلمة (الصفا) في كتب اللغة لدى العلامة مرتضى الزبيدي:

«الصفا: من مشاعر مكة المكرمة شرفها الله تعالى جبل صغير بلخف جبل أبي قبيس ومنه قوله تعالى: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ، وابتنيت على متنه داراً فيحاء، أي واسعة، وبها ختم المصنف كتابه هذا» (۱).

«المروة (بهاء): جبل بمكة المكرمة يذكر مع الصفا، وقد ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ، قال الأصمعي: سمي لكون حجارته براقة». (۲)

ذكر الإمام القرطبي فيما يخص الصفا والمروة قوله:

«أصل الصفا في اللغة الحجر الأملس، وهو هنا جبل بمكة المكرمة معروف، وكذلك المروة جبل أيضاً» (۳).

ذكر العلامة الفقيه المؤرخ القاضي تقي الدين الفاسي أن:

«الصفا الذي هو مبدأ السعي وهو في أصل جبل أبي قبيس على ما ذكره غير واحد من العلماء، ومنهم أبو عبيد البكري، والنووي، وهو موضع مرتفع من جبل له درج، وفيه ثلاثة عقود، والدرج من أعلى العقود، وأسفلها، والدرج الذي يصعد من الأولى إلى الثانية منهن بثلاث درجات وسطها، وتحت العقود درجة، وتحتها فرشة كبيرة، ويليها ثلاث درجات، ثم فرشة مثل الفرشة السابقة تتصل بالأرض، وربما أهيل التراب عليها فغيب ...». (۴)

يذكر العلامة الفقيه فضيلة الشيخ عبدالفتاح بن حسين راوه المكي وهو من علماء مكة المكرمة المعاصرين (۱۴۲۴ ه-)، وعلى معرفة كبيرة بأحيائها وجبالها، في التعريف بهذين الجبلين: جبل الصفا، وجبل المروة قائلًا:

«الصفا: طرف سفح جبل أبي قبيس...

۱- تاج العروس، مادة صفو.

۲- تاج العروس، مادة مرو.

۳- الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الثانية، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ۱۷۹: ۱.

۴- شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام، الطبعة الأولى، تحقيق لجنة من العلماء والأدباء مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، عام ۱۹۵۶ م ۲۷۹: ۱.

ص: ۳۷

جبل لعلع: هو الجبل الذى بسفحه المروة، وعلى سطحه محلة القرارة وشارع الفلق، وأول محلة النقاء، وجبل لعلع: هو جزء من سفح جبل قعيقعان كأنف له كجبل الصفا لجبل أبى قبيس ...». (۱)

هذه التعريفات (للصفا والمروة) تفيد أنهما جبلان، أما جبل الصفا فممتد إلى جبل أبى قيس ويقع جبل الصفا فى سفحه، وجبل المروة ممتد إلى جبل (لعلع)، ويقع فى سفحه، وكل جبل له قاعدة من العرض تمتد على جميع جهاته، وما ظهر على وجه الأرض أصغر مما اختفى منه تحت الأرض، وقد علتهما المساكن فى أجزاء كبيرة منهما من قديم الزمن، يشهد لهذا ما ذكره العلامة مرتضى الزبيدى أنه بنى على جبل الصفا داراً فيحاء.

يدرك هذه الحقيقة كل من شاهد هذين المشعرين قبل أن تمتد إليهما يد التغيير قبل التوسعة السعودية للحرم المكى قبل عام ۱۳۷۵ ه-، وتخطيط الشوارع من جهتهما.

استوجبت التوسعة السعودية للحرم الشريف، وإعادة تخطيط ما حوله من شوارع إلى تكسير الكثير من أجزاء الجبلين: الصفا والمروة تمهيداً لتسوية سطحهما بالأرض، واتساع الشوارع من حولهما، وقد أبرز هذه الحقائق العلامة المؤرخ فضيلة الشيخ محمد طاهر كردى الخطاط فى العبارة التالية:

«ومما يشبه ما ذكره الإمام القطبى فى تاريخه عن ما أخذ من أرض المسعى وأدخل فى المسجد الحرام ما أحدث فى زماننا فى التوسعة السعودية للمسجد الحرام، وتكسير شىء من جبل الصفا إلى جبل المروة زيادة فى عرض المسعى، وليكون منظره جميلًا فى رأى العين وذلك فى سنة ۱۳۷۷ هجرية ...» (۲)

أيد هذه الحقائق التى كانت مشاهدة للعيان، وعاصرها شيوخ الحاضر، وأدلى بها الشهود الثقات من أعيان مكة وكبارها، من الذين كانوا يقطنون تلك المنطقتين، والمعاصرين الذين عاشوها منذ صباهم ووثقت شهادتهم المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة، تؤيد الخرائط والصور القديمة قبل أعمال التوسعة السعودية ما أدلى به أولئك الشهود العدول قبل التغييرات التى طرأت على منطقة ما حول الحرم المكى الشريف.

تميزت العمارة السعودية فيما يخص جبل الصفا، بقطعه عن أصله جبل أبى قبيس، وأبقت على بعض الصخرات فى نهايته، علامة على موضع المشعر، وكذلك بالنسبة لجبل المروة، بيد أن وجود مستويين للحرم الشريف فى جهة المروة أُحدث له مدخلان: مدخل أعلى للدور الأعلى وهو مساو لارتفاع جبل المروة فى اتجاه الصاعد إلى القرارة، ومدخل أسفل بقى لاتصال المروة المشعر بأصله جبل قعيقعان واضحاً مؤدياً إلى المدعى وقد نال حظه من القطع والتكسير، والاختزال من جانبيه الشرقى والغربى، وأعلاه.

النصوص الفقهية فيما يخص حدود المسعى

تمثل النصوص الفقهية حقيقة قضية البحث: (المشكلة: وهى مدى امتداد جبلى الصفا والمروة عرضاً فى الساحة الشرقية للحرم الشريف) وصحة السعى فى الإضافة الجديدة، مما يراد إثباته فى هذا البحث.

الصفا والمروة فى التراث الإسلامى (جبلان)، والجبل معناه فى اللغة العربية «اسم لكل وتد من أوتاد الأرض إذا عظم وطال من الأعلام والأطواد والشناخيب، وأما ماصغر وانفرد فهو من القنان والقور، والأكم، والجمع أجبل، وأجبال، وجبال» (۳)

تتضح حقيقة (الصفا، والمروة) هل هما جبلان، أو أكمتان، أو مرتفعان من النصوص التالية:

جاء فى كتاب القرى لقاصد أم القرى للحافظ أبى العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبى بكر محب الدين الطبرى المكى (۶۱۵-۶۹۴ ه-) (فى الباب السادس عشر فى السعى ۱ ما جاء فى سبب شرعية السعى):

«ثم نظرت [هاجر] إلى المروة فقالت لو مشيت بين هذين الجبلين، تعللت حتى يموت الصبى فمشت بينهما ثلاث مرات، أو أربع مرات، لا تجيز بطن الوادى إلا رملًا، ثم رجعت إلى ابنها فوجدته ينشغ فعادت إلى الصفا، ثم مشت إلى المروة حتى كان مشيها سبع

مرات ...» (۴)

جاء فی کتاب تفسیر التحریر والتنویر للعلامة سماحة الأستاذ الإمام محمد الطاهر بن عاشور:

«والصفا والمروة اسمان لجبلین متقابلین، فأما الصفا: فهو رأس نهایة جبل أبی قبیس، وأما المروة فرأس هو منتهی جبل قعیقعان ...»

تنص کتب الفقه فی جمیع المذاهب علی أن من واجبات السعی استیفاء المسافة بین جبلی الصفا والمروة، ویتعرضون أحیاناً إلی تحدید المسافة الطولیة دون العرضیة، وهذا یوضح أن مناط الحکم، ومتعلقه فی استیفاء المسافة الطولیة هو أداء شعیرة السعی بین جبلی الصفا والمروة بصرف النظر عن السعة العرضیة مادام یصدق علی الساعی أنه أدی شعیرة السعی بین الجبلین المذکورین، وفی حدودهما، ومن ثم یحکم بالصحة علی السعی إذا أکمل الحاج، أو المعتمر الشعیرة بتلک المسافة حسبما قررها علماء المناسک، أو عدم الصحة إذا لم یستوف تلک المسافة بین الجبلین المذکورین. فالواجب علی الساعی کما هی نصوص کافة الفقهاء تحری کمال المسافة الطولیة بین جبلی الصفا والمروة لا غیر، وندر من نوه من الفقهاء عن المساحة العرضیة، وإذا ذکر الانحراف فی بعض نصوص الشافعیة، أو غیرهم فإنما یتحقق بالخروج عن عرض الجبلین الصفا والمروة، ذلک لأنه لم یذکر أحد من الفقهاء نصاً، أو أثراً (فیما أحاط به العلم) یحدد عرض المسعی، وما ورد ذکره هو تقریر للواقع لیس إلا، ولیس

۱- الإفصاح علی مسائل الإیضاح علی مذاهب الأئمة الأربعة، الطبعة الثانیة مکة المکرمة: المکتبة الإمدادیة، عام ۱۴۱۴/ ۱۹۹۴: ۱۹۱، ۲۵۲.

۲- یضیف فضیلة الشیخ طاهر قائلًا: «فإن هذه الحادثة تشبه ما ذکره الإمام القطبی، لکن مع الفارق، فما ذکره القطبی عبارة عن إدخال جزء من المسعی فی المسجد الحرام، وأما ما نذکره فهو عبارة عن إدخال جزء من جبل الصفا إلی حدود المسعی.

فمما لاشک فیه أن هذا الجزء المأخوذ من جبل الصفا فی زماننا هذا، والمدخول فی حدود المسعی لم یکن رسول الله ۹ قد سعوا فی هذا الجزء المستحدث الیوم» هذا صحیح، ولکن الامتداد لعرض المسعی لم یخرج عن حدودها الطبیعیة.

یتضح من عبارة العلامة الشیخ محمد طاهر کردی أنه لم یلتفت إلی مناط الحکم فی السعی وهو أن یتم سعی الحاج، أو المعتمر بین جبلی الصفا والمروة وبقدر ما یمتد عرضهما من الناحیتین الشرقیة والغربیة، ولهذا فمن کان سعیه فی حدود عرض الجبلین فهو لیس خارجاً عنهما إطلاقاً فإن حدود الجبلین هو مناط أحکام السعی ومتعلقها.

۳- ابن منظور، جمال الدین محمد بن مکرم، لسان العرب، الطبعة الثالثة، بیروت: دار صادر، عام ۱۴۱۴/ ۱۹۹۴، ۹۶: ۱۱.

۴- عارضه مصطفی السقا، مصر: شرکة مکتبة ومطبعة مصطفی البابی الحلبی وأولاده بمصر، ۳۶۰.

ص: ۳۸

هو فی معرض الاستدلال للعرض ولا یحتج بمثل ذلک فی إثبات عرض المسعی؛ إذ لم یذکره أحد من الفقهاء استدلالًا، بل تحدید لواقع العرض فی زمانه، وهو تحدید تقریبی، وفیما یلی اقتباس لنماذج مختارة من نصوص فقهیة من الکتب المعتمدة:

الصفا والمروة فی کتب المناسک فی المذاهب الأربعة

المذهب الحنفی:

«شرائط صحة السعی.. الأول: (کینونته بین الصفا والمروة) أی بأن لا ینحرف عنهما إلی أطرافهما سواء کان بفعل نفسه، أو بفعل غیره بأن کان مغمی علیه، ولو بغیر أمره.. محمولًا، أو راکباً صح سعیه أی لحصول سعیه کائناً بینهما أی بین المکانین». (۱)

المذهب المالکی:

«وأما الواجب فیحصل بدخوله بنفسه، أو بدایته تحت العقد المشرف علی المروة، وبوقوفه بنفسه، أو بدایته علی الأرض ملاصقاً لأسفل ما ظهر من الدرج، أو قریباً من ذلک، لأنه یصدق علیه أنه استوعب ما بین الصفا والمروة» (۲)

المذهب الشافعی:

«أما واجبات السعی: فالأول منها أن یقطع جمیع المسافة بین الصفا والمروة علی أی صفة من المشی والسیر حتی لو أبقی من المسافة بعض خطوة، أو أقل لم یصح». (۳)

یقول العلامة شمس الدین الرملی الشافعی: «ویشترط قطع المسافة بین الصفا والمروة کل مرة، ولابد أن یکون قطع ما بینهما من بطن الوادی، وهو المسعی المعروف الآن، وإن کان فی کلام الأزرقی ما یوهم خلافه فقد أجمع العلماء وغیرهم من زمن الأزرقی إلی الآن علی ذلک، ولم أر فی کلامهم ضبط عرض المسعی، وسکوتهم عنه لعدم الاحتیاج إلیه، فإن الواجب استیعاب المسافة بین الصفا والمروة کل مرة، ولو التوی فی سعیه عن محل السعی یسیراً لم یضر کما نص علیه الشافعی» (۴)

المذهب الحنبلی:

«ویجب استیعاب ما بین الصفا والمروة لفعله ۹، فإن لم یرقهما ألصق عقب رجلیه بأسفل الصفا، وألصق أبعدهما بأسفل المروة لیستوعب ما بینهما، وإن کان راکباً لعذر فعل ذلک بدابته، وهذا کان أولًا، أما بعد العمارة الجدیدة فالظاهر أنه لا یکون مستوعباً إلا إذا رقی علی المحل المتسع، وهو آخر درجة والله أعلم». (۵)

وقد جاء فی نص القرار ۱۱۸۴ الوارد من الهیئة المشکلة من: السید علوی المالکی، وعبد الملک بن إبراهیم، والشیخ عبد الله بن دهیش رقم ۳۵، فی ۲۳/ ۹/ ۱۳۷۴ ه- مایأتی:

«ولم نجد للحنابلة تحدیداً لعرض المسعی، وجاء فی المغنی صحیفة ۴۰۳، جلد ۳: أنه یستحب أن یخرج إلی الصفا من بابه، فیأتی الصفا فیرقی علیه حتی یری الکعبة، ثم یستقبلها، قال فی الشرح الکبیر صحیفة ۴۰۵، جلد ۳: فإن ترک مما بینهما شیئاً (أی ما بین الصفا والمروة) ولو ذراعاً لم یجزئه حتی یأتی به انتهی، هذا کلامهم فی الطول، ولم یذکروا تحدید العرض» (۶)

وقد جاء ضمن هذا التقریر: «وحیث إن الأصل فی السعی عدم وجود بناء، وأن البناء حادث قدیماً وحدیثاً، وأن مکان السعی تعبدی، وأن الالتواء الیسیر لا یضر؛ لأن التحدید المذکور بعالیه العرضی تقریبی بخلاف الالتواء الکثیر کما تقدمت الإشارة إلیه» (۷)

ذکر العلامة الشیخ عبد الرحمن الناصر السعدی عن بعض اجتماعات الشیخ محمد بن إبراهیم أیام الحج بالعلماء من بلاد الحرمین والمملکة العربیة السعودیة وناقشوا کثرة الحجاج والحلول لکثرة الزحام وتعرضوا من بین المسائل:» لمسألة توسعة المسعی منهم من قال:

«إن عرضه لا یحد بأذرع معینة، بل کل ما کان بین الصفا والمروة فإنه داخل فی المسعی کما هو ظاهر النصوص من الکتاب، والسنة، وکما هو ظاهر فعل الرسول ۹ وأصحابه ومن بعدهم، ومنهم من قال یقتصر فیه علی الموجود، لا یزاد فیه إلا زیادة یسیرة، یعنی فی

عرضه وهو قول أكثر الحاضرين».

يعلق فضيلة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدى قائلًا:

«ويظهر من حال الشيخ محمد أن يعمل على قول هؤلاء؛ لأنه لا يحب التشويش واعتراض أحد» (۸)

التحولات التاريخية لمشعر المسعى

جاء فى تاريخ العلامة أبى الوليد محمد بن عبدالله الأزرقى فيما يتصل بالتحولات التاريخية لمشعر المسعى تحت عنوان: (ذكر زيادة المهدى الآخرة فى شق الوادى من المسجد الحرام) قوله:

۱- حسين عبد الغنى، إرشاد السارى إلى مناسك الملا على القارى، ۱۱۷.

۲- المالكى، حسين بن إبراهيم، توضيح المناسك، ۱۲۹.

۳- ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن، الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق محمد بن عبيد، مكة المكرمة: معهد خادم الحرمين الشريفين، عام ۱۴۲۲/ ۲۰۰۱، ۱۳۲.

۴- الرملى، شمس الدين محمد، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده، ۲۹۱: ۳.

۵- عبد الرحمن بن جاسر، مفيد الأنام فى تحرير الأحكام لحج بيت الله الحرام، الطبعة الثالثة الرياض: طبع على نفقة الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود عام ۱۴۱۲/ ۱۹۹۲،: ۲۷۲.

۶- الشثرى، سعد بن ناصر بحث فى مشعر المسعى، نقلًا من مجموع فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم: ۳.

۷- الشثرى، نقلًا من ديوان رئاسة مجلس الوزراء، ۶.

۸- الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، الطبعة الثالثة، الرياض: دار المعالى ودار ابن الجوزى، عام ۱۴۲۰ ه-، ۲۸۴.

ص: ۳۹

«وكان المسعى فى موضع المسجد الحرام اليوم، وكان باب دار محمد بن عباد بن جعفر عند حد ركن المسجد الحرام اليوم عند موضع المنارة الشارعة فى نحر الوادى فيها علم المسعى، وكان الوادى يمر دونها فى موضع المسجد الحرام اليوم». (۱)

كما ذكر العلامة الأزرقى تحت عنوان: (ذكر ذرع ما بين الركن الأسود إلى الصفا، وذرع ما بين الصفا والمروة) قوله:

«وذرع ما بين العلم الذى على باب المسجد إلى العلم الذى بحذائه على باب دار العباس ابن عبدالمطلب، وبينهما عرض المسعى خمسة وثلاثون ذراعاً ونصف، ومن العلم الذى على باب دار العباس إلى العلم الذى عند باب دار ابن عباد الذى بحذاء العلم الذى فى حد المنارة وبينهما الوادى مائة ذراع وواحد وعشرون ذراعاً». (۲)

ما ذكره الأزرقى هنا يقرر فيه واقع المسعى بعد توسعة محمد المهدى فى موضعين:

أولًا: المسافة العرضية بين دار العباس، وباب المسجد مقابله خمسة وثلاثون ذراعاً.

ثانياً: المسافة بين العلم على باب دار العباس إلى العلم الآخر الذى عند دار ابن عباد بحذاء العلم الذى فى حد المنارة، مائة ذراع وواحد وعشرون ذراعاً، وهذا مقدار المسافة بين العلمين طولًا.

يؤكد المؤرخ الفقيه العلامة قطب الدين محمد بن أحمد الحنفى المكى المتوفى عام ۹۸۸ ه- ما ذكره الفقهاء المؤرخون قبله: الأزرقى، والفاكهى، والفاسى (۸۳۲ ه-) وغيرهم لما حدث قبله، وظل واقعاً قائماً حتى عصره فى قوله:

«كان المسعى فى موضع المسجد الحرام اليوم، وكان باب دار محمد بن عباد بن جعفر العبادى عند حد ركن المسجد اليوم عند موضع المنارة الشارعة فى نحر الوادى عن دونها فى بعض المسجد الحرام اليوم، فهدموا أكثر دار محمد بن عباد بن جعفر العبادى، وجعلوا المسعى والوادى فيها، وكان عرض الوادى من الميل الأخضر اللاصق للمئذنة التى فى الركن الشرقى، وكان هذا الوادى مستطيلًا إلى أسفل المسجد الآن يجرى فيه السيل ملاصقاً لجدر المسجد إذ ذاك، وهو الآن بطن المسجد من الجانب اليمانى ... ويجعل مسيلًا محلًا للسعى ...» (۳)

ثم أضاف العلامة الفقيه المؤرخ قطب الدين الحنفى قوله:

«وأما المكان الذى يسعى فيه الآن فلا يتحقق أنه بعض من المسعى الذى سعى فيه رسول الله ۹، أو غيره فكيف يصح السعى فيه، وقد حوّل عن محله كما ذكر هؤلاء الثقات؟

ولعل الجواب عن ذلك: أن المسعى فى عهد رسول الله ۹ كان عريضاً، وبنيت تلك الدور بعد ذلك فى عرض المسعى القديم فهدمها المهدى، وأدخل بعضها فى المسجد الحرام، وترك بعضها للسعى فيه، ولم يحول تحويلًا كلياً، وإلا لأنكره علماء الدين من الأئمة المجتهدين مع توفرهم إذ ذاك، فكان الإمامان أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، والإمام مالك بن أنس رضى عنه موجودين يومئذ، وقد أقروا ذلك، وسكتوا، وكذلك من صار بعد ذلك الوقت فى مرتبة الاجتهاد كالإمام الشافعى، وأحمد بن حنبل، وبقية المجتهدين، فكان إجماعاً منهم على صحة السعى من غير نكير نقل عنهم». (۴)

البيئة الطبيعية للصفا والمروة وما طرأ عليهما من تغييرات عبر التاريخ

تقديم:

من المسلّمات فى الشرع الإسلامى أن أماكن المشاعر المقدسة، ومنها الصفا والمروة تعبدية، توقيفية لا تقبل التبديل، وعلى الرغم من هذا طال التغيير موضع المسعى المشعر عبر التاريخ، وبالتحديد فى زمن الخليفة المهدى، ولم يثر هذا اعتراض أحد من الأئمة فى ذلك الوقت، على الرغم من وجود كبار أئمة الإسلام وفقهائه، موضحاً هذا فى النص التالى:

«وهاهنا إشكال ما رأيت من تعرض له وهو: أن السعى بين الصفا والمروة من الأمور التعبدية التى أوجبها الله تعالى علينا فى ذلك المحل المخصوص، ولا يجوز لنا العدول عنه، ولا تعتبر هذه العبادة إلا فى ذلك المكان المخصوص الذى سعى رسول الله ۹، وعلى

ما ذكره هؤلاء الثقات أدخل ذلك المسعى فى الحرم الشريف، وحول المسعى إلى دار ابن عباد كما تقدم.

وأما المكان الذى يسعى فيه الآن قلا يتحقق أنه بعض من المسعى الذى سعى فيه رسول الله ۹ أو غيره فكيف يصح السعى فيه، وقد حول عن محله كما ذكر هؤلاء الثقات، ولعل الجواب عن ذلك: أن المسعى فى عهد رسول الله ۹ كان عريضاً وبنيت تلك الدور بعد ذلك فى عرض المسعى القديم فهدمها المهدى، وأدخل بعضها فى المسجد الحرام وترك بعضها للسعى فيه ولم يحول تحويلًا كلياً، وإلا لأنكره علماء الدين من الأئمة المجتهدين مع توفرهم» (۵)

إن ما توصل إليه العلامة الفقيه قطب الدين النهروالى صحيح، وأن المسعى، كان عريضاً فى عهد الرسول ۹، ولذلك لم يبد الأئمة اعتراضاً على ذلك التحويل، بل هو تحويل فى حدود ما يسمى بالمسعى، ومن أجل تقعيد هذه العبارة وتأصيلها لابد أن تستند إلى حقائق علمية موضوعية، ووضع طبيعى لتشكل ضابطاً فقهياً فى هذا الموضوع، كما هى عادة الفقهاء، وأن لا- يترك الموضوع للعموميات، فلا بد لمثل هذه الأمور من ضابط، وهذا ما اعتنى به هذا البحث وتوصل إليه.

۱- الأزرقى، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الطبعة الثالثة، تحقيق رشدى الصالح ملحس، مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، عام ۱۳۹۸/ ۱۹۷۸، ۷۹: ۲.؛ وانظر: الفاكهى، أبو عبد الله محمد إسحاق، أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه، الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، عام ۱۴۰۷/ ۱۹۸۶ ۱۷۰: ۲.

۲- الأزرقى، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ۱۱۹: ۲.

۳- قطب الدين الحنفى، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام فى تاريخ مكة المشرفة، الطبعة الأولى، تقديم السيد محمد أمين كتبى، مكة المكرمة: المكتبة العلمية لصاحبها عبد الفتاح قدا وأولاده، ت. د.: ۹۸.

۴- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام: ۹۹

۵- المصدر نفسه

ص: ۴۰

الصفا جبل متصل بجبل أبى قبيس أقيمت عليه المنازل عبر العصورحتى حجبت جزءاً كبيراً منه، يتجلى هذا فى الصور الفوتوغرافية قبل مشروع توسعة الحرم الشريف عام ۱۳۷۵ ه-.

كان جبل الصفا يفصل شمال مكة عن جنوبها، وبالجانب الغربى منه يقع وادى إبراهيم، وفيه الطريق الذى يوصل شمال مكة بجنوبها، ولما بدأت توسعة الحرم المكى الشريف عام ۱۳۷۵ ه- وضم المسعى إلى الحرم الشريف، اضطرت الدولة السعودية إلى إيجاد طريق يصل شمال مكة بجنوبها تسلكه السيارات فبدأت بقطع الجبل من جهة أبى قبيس، والجبل من جهة الصفا، واستعملت فى ذلك الوقت الآلات المتاحة فقامت باستعمال منشار حديدى استغرق شهوراً طويلة حتى تمكنت من شق طريق يتسع للسيارات، ومر على جبل الصفا فى فترات مختلفة تكسير وتمهيد وتسوية بالأرض حتى بلغ إلى الحد الذى اختصر فيه الجبل من أعلاه ما نشاهده فى الوقت الحاضر فى مشعر الصفا من بقايا الجبل، أما قاعدة الجبل فهى أكبر بكثير من المشاهد على سطح الأرض.

أما جبل المروة فظاهر عرضه، وامتداده فى الوقت الحاضر بما يدل على قاعدة عريضة جداً؛ ذلك أن الهابط من شارع المدعى فى الوقت الحاضر يطلع صعوداً إلى جبل المروة، وامتداده شرقاً وغرباً وشمالًا، واضح للعيان بما لا يحتاج إلى دليل.

أصاب الجبلين عبر التاريخ الكثير من التغييرات: تكسيراً، وقطعاً، وإزالة من جميع جوانبهما، وبنيت عليهما البيوت، والقصور الشامخة، وتعرض عرض المسعى إلى التعديات وبناء المساكن مما أدى إلى ضيقه من جميع جوانبه، ومن ثم فرض على ولاة البلد الأمين فى ذلك الوقت إحاطة الصفا والمروة بالبناء من جوانبهما الثلاثة كما هو مشاهد فى صورهما القديمة؛ حتى لايطول التعدى المساحة الطولية لها، وأصبح واضحاً أن العقود فى واجهة الصفا، والعقد الكبير فى واجهة المروة لاتمثل بحال عرض المسعى، وإنما شيدت حماية للمشعر من التعدى، وليس معناها أنها استوعبت عرض المسعى، هذا ما جاء صريحاً فى قرار اللجنة المكونة من كل من:

«الشيخ عبد الملك بن إبراهيم، والشيخ عبد الله الجاسر، والشيخ عبد الله بن دهيش، والسيد علوى مالكى، والشيخ محمد الحركان، والشيخ يحى أمان، بحضور صالح قزاز، وعبد الله بن سعيد مندوبى الشيخ محمد بن لادن ... وقرروا ضمن الكلام على (مساحة الصفا والمروة واستبدال الدرج بمزلقان، ونهاية أرض المسعى فى قرار مشايخ): ولكون العقود الثلاثة القديمة لم تستوعب كامل الصخرات عرضاً، فقد قررت اللجنة أنه لامانع شرعاً من توسيع المصعد المذكور بقدر عرض الصفا» (۱)

وهذا ما سيقف القارئ عليه فى العنصر التالى المتعلق بالجانب التاريخى تفصيلًا.

توّجت واجهة الصفا قديماً بعقود ثلاثة، وواجهة المروة بعقد واحد كبير ممتد من الطرف الشرقى حتى نهاية الطرف الغربى، وقد حرص الخلفاء عبر التاريخ الإسلامى على المحافظة على هذه الحدود بإحاطتهما بالبناء؛ لما لاحظوه من كثرة التعدى بالبناء على جانبيهما الشرقى والغربى، والشمالى، والجنوبى، وليحافظوا على ما تبقى حتى لا يتعدى على فضائهما، وقد أحاطت بهما المنازل من جهاتهما، تحدث عن هذا المؤرخون بالتفصيل (۲).

مشعر الصفا قبل توسعة الحرم عام ۱۳۷۵ ه-

فى وصف تفصيلى للصفا قبل الهدميات التى تمت لتوسعة الحرم الشريف، وقد كان البدء به من جهتهما، يقول الزميل الدكتور عويد بن عياد المطرفى، وهو ممن درج فى رحاب هذه الأماكن الطاهرة منذ الصبا، ومرحلة الشباب، وتابع بدقة ما جرى فى المسعى وبخاصة الصفا والمروة وما طرأ عليهما من تغيرات:

«وهنا أقول: إن الصفا الوارد ذكره فى قول الله عز وجل: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ (۳)، جبل فى سفح جبل أبى قبيس معروف بذاته وصفاته يمتد ارتفاعاً فى سنده (۴)، ويمتد فى أصله وقاعدته الغربية جنوباً إلى منعرجه نحو أجياد الصغير (موضع قصر الضيافة اليوم)، ويمتد شمالًا إلى منعطفه نحو البطحاء (موضع الساحة الواقعة اليوم أمام باب العباس).

وليس الصفا مقصوراً على الحجر الأملس الذى كان موجوداً هنالك، ولا على ما هو مشاهد اليوم فى الموضع الذى يبدأ منه الساعون

سعيهم كما يتبادر إلى بعض الأذهان من مشاهدة العيان؛ إذ لو كان الأمر كذلك لاستدعى الحال أن نضيِق من عرض المسعى!!!. وهذا مما لايقول به عاقل».

وكانت أحداب ومرتفعات جبل الصفا الغربية مما يلى أجياد تمتد ظاهرة للعيان قبل أن تبدأ الهدميات لتوسعة المسعى والمسجد الحرام من ناحيته الجنوبية وغيرها فى شهر صفر عام ۱۳۷۵ ه- فى عهد الملك سعود، وكان على أحد أكتافه الممتدة جنوباً المتصلة بأجياد الصغير ثنية يصعد إليها من أجياد الصغير، ثم تنحدر منها طريق تمر وسط سقيفة مظلمة، ومنها تنزل الطريق من فوق هذا الجبل متعرجة بين البيوت المنتشرة على تلك المنطقة من جبل الصفا حتى تصل إلى الصفا الذى يبدأ الساعون منه سعيهم فى غربه.

كما كانت البيوت السكنية شابية على جبل الصفا من كل ناحية تفترش قمته وأكتافه، وظهره، وسفحه الشمالى والجنوبى ووسطه، وما يحيط بموضع ابتداء السعى منه فغطت معالمه ومنحدراته التى تعلوها فى الجبل أصلًا صخور جبل أبى قبيس التى استعصى كثير منها على التسهيل لبناء الناس عليها يوم ذاك.

۱- الشثرى، سعد بن ناصر، بحث فى مشعر المسعى، نقلًا من مجموع فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم: ۲۴

۲- انظر: الفاسى، شفاء الغرام ۲۹۹: ۱.

۳- المطرفى، عويد بن عياد، رفع الأعلام بأدلة توسيع عرض المسعى المشعر الحرام: ۴، مخطوط.

۴- السند هنا ما قابلك من الجبل وعلا سفحه. القاموس المحيط، مادة سند المطرفى، عويد،: ۵.

ص: ۴۱

ولما ابتدأت هدميات هذه التوسعة ظهر للعيان جبل الصفا على حقيقته الجغرافية الطبيعية التى خلقه الله عليها يوم خلق السموات والأرض، وأن امتداد طرفه الغربى الجنوبى المحاذى لمسيل البطحاء من جنوبها كان يصل قبل إزالته فى التوسعة إلى موضع الباب الشرقى للسلم الكهربائى الصاعد اليوم إلى الدور الثانى من المسجد الحرام من ناحية أجياد، وإلى موضع قصر الضيافة الملاصق للبيوت الملكية من الجهة الجنوبية الذى موضعه الحالى جزء مرتفع من جبل الصفا.

فلا تعجب والحال ما ذكرت لك من تسمية كل هذه المنطقة من هذا الجبل باسم (جبل الصفا)؛ لأن أهل مكة فى إبان أرومتهم العربية فى الجاهلية والإسلام هم الذين سموه بهذا الاسم، وتبعهم فى ذلك سكانها من بعدهم؛ إذ كان من عادة واضعى اللغة الذين يحتج بكلامهم فى بيان المراد بمعانى الألفاظ فى تفسير القرآن، وغريب الحديث النبوى، أن يسموا بعض أجزاء جبل ما، أو واد ما باسم خاص به يميز ما سموه منه عن اسم أصله لوصف قائم بذلك الجزء من الجبل أو الوادى، كما هو الحال فى تسميتهم أصل جبل أبى قبيس من ناحيته الغربية، والغربية الجنوبية، وما بينهما من امتداد بالصفا الذى جعله الله عز وجل من شعائره فى قوله: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ ...

وذكر أبو إسحاق الحربى فى وصفه لمكة يوم أن حج إليها فى كتابه (المناسك): جبل الصفا، وذكر أن امتداده أمام جبل أبى قبيس من طرف باب الصفا إلى منعرج الوادى ... وأن طرفا من جبل أبى قبيس يتعرج خلف جبل الصفا) (۱)

وتعرج جبل أبى قبيس الذى يحتضن جبل الصفا من خلفه، والصفا أسفل منه من أول منعرجه من ناحية البطحاء (الساحة الشرقية للمسعى اليوم) إلى منعطفه إلى أجياد الصغير (موضع قصر الضيافة اليوم) تغطيه الدور التى كانت تجثم على قاعدته، وعلوه، وأسفله إلى موضع السعى من الصفا المعروف اليوم كما سبق أن ذكرت آنفاً قد أزيل من موقعه بقصد توسعة المسجد الحرام على مرحلتين:

أولاهما: عام ۱۳۷۵ ه- حين قطعت أكتاف جبل الصفا، وفتح عليها شارع لمرور السيارات يصل بين أجياد والقشاشية التى لم تبق لها اليوم عين أيضاً.

وثانيتها فى عام ۱۴۰۱ ه- أزيل هذا الشارع وقطع الجبل من أصله، وفصل موضع الصفا عن الجبل، وفتح بينه وبين الجبل الأصل طريق متسع للمشاة بين ما بقى من أصل الجبل وبين جدر الصفا من خارجه الشرقى تسهيلًا للحركة والمشى حول المسجد الحرام، يسّر على الناس عناء صعود الجبال والهبوط منها فى ذلك الموضع.

وبهذا أزيل ظاهر جبل الصفا من الوجود، ودخل فى ذمة التاريخ فى هذا العام ۱۴۰۱ ه- بيد أن أصله وقاعدته موجودة تحت أرض الشارع المذكور، ممتدة إلى منعطفه الشمالى الشرقى المواجه لساحة المسعى الشرقية تثبت امتدادته قبل نسفه، وفصله عن أصله، وإزالة الظاهر على وجه الأرض منه.

كما أن قول أبى إسحاق فى تحديده لجبل الصفا (إلى منعرج الوادى) ينص صراحة على اتساع هذا الجبل شمالًا إلى منعطفه من واجهته الغربية إلى منعطفه نحو الشمال المقابل للبطحاء (الساحة الشرقية للمسعى).

ولاريب أن ما بين طرفه الغربى الجنوبى، وطرفه الشمالى عند منعرج الوادى إلى الشرق من ناحية الشمال تشمله التسمية المقصودة بالخطاب فى هذه الآية الكريمة ...

ويترتب على هذا أن المنطلق (أى الساعى) بنية السعى من أى موضع مما يشمله اسم الصفا لغة وعرفاً يكون داخلًا فى عموم المراد بالخطاب بهذه الآية الكريمة ساعياً بحق وحقيقة بين الصفا والمروة إذا ما انتهى به سعيه مما ذكرت إلى مسامت له من جبل المروة المقابل له من ناحية الشمال» (۲).

انتهى فضيلة الدكتور عويد المطرفى إلى القول:

«وإنما ذكرت هذا بياناً لمجمل ما أردت إيضاحه من أن الصفا متسع التكوين عريض الامتدادات من جنوبه الغربى، وشماله المحاذى

للامتداد الشرقى والغربى لجبل المروة، وليس مقصوراً على الموضع الذى حجز اليوم بالبناء عليه لبدء الساعين منه سعيهم، كما يتبادر لعين المشتغل بأداء شعيرة السعى فيه ليعلم أن ما يصل بين موضعين متقابلين من هذين الجبلين مشمول بخطاب ما شرعه الله تعالى من التطوف بهما للحاج والمعتمر». (۳)

مشعر المروة قبل توسعة الحرم عام ۱۳۷۵ ه-

وصف فضيلة الدكتور عويد عياد المطرفى جبل المروة وصفاً دقيقاً لطبيعة الجبل والإحداثات التى كانت موجودة عليه، وأسماء السكان الذين أقاموا منازلهم عليه بما يثبت معرفته التامة بالمنطقة، وأهلها، نلخص منه الآتى:

«وأما المروة المرادة بالخطاب فى قول الله عز وجل: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ فهى كما قال ابن منظور فى كتابه لسان العرب: «جبل بمكة شرفها الله تعالى»، وقال الفيروز آبادى فى القاموس المحيط، والزبيدى فى شرحه تاج العروس: «المروة بهاء جبل بمكة يذكر مع الصفا، وقد ذكرهما الله تعالى فى كتابه: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ ثم قال الزبيدى أيضاً: قال الأصمعى: سمى (أى الجبل) لكون حجارته بيضاً براقة ...» (۴)

۱- المطرفى، عويد، رفع الأعلام: ۹، الحربى، أبا إسحاق كتاب المناسك: ۴۷۹.

۲- المطرفى، عويد، رفع الأعلام بأدلة جواز توسيع عرض المسعى المشعر الحرام: ۸، ۹، ۱۰، ۱۱؛ وانظر: الحربى، أبا إسحق، كتاب المناسك: ۴۷۹.

۳- المطرفى، عويد، رفع الأعلام بأدلة جواز توسيع عرض المسعى المشعر الحرام: ۱۲.

۴- المطرفى، عويد، رفع الأعلام: ۱۳.

ص: ۴۲

ثم انتهى بعد ذكر النصوص على أن المروة جبل إلى القول:

«وكل هذا يدل صراحة على أن المروة جبل قائم بذاته وصفاته، ممتد الجوانب، واسع الوجهة المقابلة من الشمال لجبل الصفا، وامتداده إلى منعطفه نحو الوادى المواجه من الشمال الشرقى لبطن المسعى ...»

يؤيد ما أقول من اتساع جبل المروة فى تكوينه الطبيعى الكبير الممتد شرقاً وغرباً عما هو عليه الآن إذ قد أزيلت معالمه الشرقية، وقطعت متونه وأكتافه، وامتداداته العضوية التى خلق عليها فى التوسعة للحجاج والمعتمرين والقاطنين عام ۱۳۷۵ ه-.

وقد كان معروفاً قبل نسف ارتفاعات هذا الجبل وإزالتها أن جميع المبانى والبيوت التى كانت قائمة فى هذه المنطقة كانت مبنية على الجبل، وأن ارتفاعاته التى كانت تحت تلك البيوت قد أزالتها معاول النسف والتفجير تسهيلًا لسير الناس من حجاج وعمار ومواطنين عليها دون إعاقة ولا عنت.

وكانت تلك البيوت السكنية التى لا يزال بعض سكانها أحياء يرزقون والحمد لله أعرف كثيراً منهم تفترش بيوتهم واجهة جبل المروة الممتدة شرقاً إلى الطريق النازل اليوم من المدّعى إلى ساحة المسعى، كما تفترش سفحه ومنحدراته وارتفاعاته الواقعة على واجهته الجنوبية المطلة على المسعى، وعلى الوادى الفاصل بين جبل الصفا وجبل المروة الذى انتطحته البيوت السكنية هو الآخر قبل التوسعة السعودية فأذهبت معالمه، وقطعت ظاهر ما كان بين الصفا وجبل المروة من اتصال متسع ينجو به الساعون من مخاطر ومحاذير الازدحام؛ إذ كانت الجهة الشرقية للمسعى فضاء غير محدود ببناء قبل أن يزحف عليها الناس، ويضيقوا سعته بما أقاموا عليها من دور ومنازل قبل أن تفكك التوسعة السعودية ضائقته، وتطلق أسره من المعتدين عليه.

ومن ثم عاد مهندسو التوسعة السعودية فضيقوا على المسعى ما انفسح به عرضه، ولو تركوه دون أن يقيموا عليه جدراً من الشرق لما ضاق المسعى اليوم بأحد من الساعين، ولما احتاج الأمر منا إلى بيان، ولا إلى رجاء توسيع عرضه.

وأعود فأقول: إن الواجهة الجنوبية الشرقية لجبل المروة المواجهة لجبل الصفا من الشمال كانت مغطاة بالبيوت السكنية منقادة متراصة بعضها بجانب بعض على طول متن الجبل من ملاصقة جدر المروة الشرقى إلى الطريق الصاعد من شرقى الطرف الشمالى للمسعى إلى المدعى.

وقد كانت بيوت السادة المراغنة التى كان يستأجرها صالح بن محمد سابق على جبل المروة ملاصقة جدرانها جدر المروة الشرقى، وعرض بيتهم الملاصق لجدر المروة من الشرق ممتداً نحو الشرق حوالى خمسة عشر متراً.

ويتصل به ملاصقة من الشرق حوش المحناطة الذى كان بائعو الحبوب بالمدعى ينخلون فيه حبوبهم قبل بيعها، وامتداده من دار المراغنة على جبل المروة أيضاً إلى جهة الشرق باتجاه طريق المدعى حوالى خمسة وعشرين متراً.

فهذا بعض عرض واجهة مرتفعات جبل المروة من ناحية الشرق من ملاصقة المروة التى يسعى منها الناس على خط مستقيم نحو الشرق إلى شارع المدعى على متن جبل المروة كان مرتفعاً جبلياً عن مستوى المسعى ارتفاعاً ظاهراً يعرفه العام والخاص قبل تكسيره وتسويته بالأرض، ويلاصق بيت المراغنة الآنف الذكر من الجنوب على امتداد طول المسعى على واجهة المسعى الشرقية على يسار النازل من المروة منحدراً إلى المسعى متجهاً إلى الصفا وقف المراغنة يفتح بابه على داخل المسعى.»

ثم تعرض فى بحثه القيم إلى ذكر أسماء سكان الجهة الشرقية للمسعى وترتيب منازلهم بدقة كاملة، ثم انتهى إلى النتيجة التالية فيما يتعلق بجبل المروة قائلًا:

«والحاصل الذى لا مين ولا مراء فيه، أن المرتفعات الجبلية الصخرية لواجهة جبل المروة الشرقية الجنوبية تمتد شرق موقع المروة الحالى الذى يقف عليه الساعون اليوم زيادة عما هو عليه الحال الآن بما لا يقل عن أربعين متراً من ناحية الشرق حتى تلاقى الطريق النازل من المدعى إلى ساحة المروة الشرقية ...» (۱)

تقرير هيئة المساحة الجيولوجية

أيد العلم الحديث الحقائق السابقة فقد قامت هيئة المساحة الجيولوجية، وكشفت عنها فى تقريرها العلمى المقدم لمعهد خادم الحرمين لأبحاث الحج عندما قامت باختبار العينات فى جبلى الصفا والمروة فى منطقة السعى الحالية، والمنطقة المستهدفة للتوسعة، واستخدمت آلياتها الثقيلة من حفارات نزلت إلى أعماق الصخور فى الأرض لاختبار عينات من جبلى الصفا والمروة فى مكانهما الحالى، والامتداد الشرقى المطلوب التوسعة فيه فتوصلت إلى النتيجة التالية فى (تقرير دراسة الامتداد الشرقى لجبلى الصفا والمروة) مقدم لمعهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج جاء فيه مايلى:

التوصيات: الدراسة الجيولوجية:

قدمت هيئة المساحة الجيولوجية السعودية خريطة جيولوجية لمنطقة المسعى تم إعدادها قبل عشرين عاماً موضحاً عليها الامتدادات السطحية لجبلى الصفا والمروة قبل مشروع التوسعة السعودية الأولى مرفق نسخة الخريطة حيث أثبتت:

١- المطرفى، عويد، رفع الأعلام بأدلة جواز توسيع عرض المسعى المشعر الحرام: ١٨، ٢١.

ص: ۴۳

أن جبل الصفا لسان من جبل أبى قبيس، وأن لديه امتداداً سطحياً بالناحية الشرقية مساميتاً للمشعر بما يقارب ۳۰ متراً.

۱- أن جبل المروة يمتد امتداداً سطحياً مساميتاً للمشعر الحالى بما يقارب ۳۱ متراً» (۱)

وقد أرفقت فى تقريرها الخرائط المتنوعة تحت العناوين التالية:

«صورة توضح الامتداد الطبيعى لجبل الصفا باتجاه دار الأرقم ولا تزال العقود فى مكانها بعد إزالة المبانى.

صورة أخرى لنفس المنطقة بعد بدء عمليات إزالة المبانى فى السبعينات الهجرية.

مواقع الحفر لجسات الصخور فى المنطقة الممتدة شرق جبل المروة.

خارطة تبين الامتداد الشرقى لمحلة المروة قبل هدميات ۱۳۷۳ ه-

شهادة أهل الخبرة من المكيين

صدق المثل القائل: (أهل مكة أدرى بشعابها)، يؤيد هذا ماهو معروف شرعاً وعرفاً أن:

«النقل بالتوارث من طرق الإثبات، كما بينه العلماء، وحرره ابن القيم فى إعلام الموقعين فقال:

(وأما نقل الأعيان وتعيين الأماكن، فكنقلهم الصاع والمد، وتعيين موضع المنبر، وموقفه للصلاة، والقبر، والحجرة، ومسجد قباء، وتعيين الروضة، والبقيع، والمصلى ونحو ذلك.

ونقل هذا جار مجرى نقل مواضع المناسك كالصفا والمروة، ومنى، ومواضع الجمرات، ومزدلفة، ومواضع الإحرام كذى الحليفة والجحفة، وغيرهما، فهذا النقل وهذا العمل حجة يجب اتباعها، وسنة متلقاة بالقبول على الرأس والعين» (۲)

اتخذ التأكد والتثبت لامتداد المسعى من الجهة الشرقية مسارين فى قناتين رسميتين:

أحدهما: هيئة تطوير مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة برئاسة معالى الدكتور ناصر بن محمد السلوم.

ثانيهما: معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج برئاسة عميده السابق معالى الدكتور أسامة بن فضل البار. فيما يلى تفصيل ذلك:

أولًا: بناءاً على الأمر السامى الكريم رقم ۸۰۲۰/ م ب وتاريخ ۱۵/ ۶/ ۱۴۲۶ ه-، المتضمن تكليف هيئة تطوير مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة بدراسة توسعة المسعى.

قامت الأمانة العامة للهيئة بعقد حلقات نقاش علمية بمقر معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج بمكة المكرمة مع مجموعة من المشايخ وكبار السنّ المعمرين ومن سكان منطقة المسعى والباحثين والمهندسين لاستقراء وجهة النظر الشرعية والتاريخية حيال موضوع الدراسة وهم:

۱- معالى الشيخ عبدالملك بن عبدالله بن دهيش.

الرئيس العام لتعليم البنات سابقاً ورئيس المحاكم الشرعية الكبرى بمكة سابقاً.

۲- فضيلة الأستاذ الدكتور عويد بن عياد المطرفى.

الأستاذ بالدراسات العليا الشرعية بجامعة أم القرى والباحث بتاريخ المناسك.

۳- سعادة الدكتور عبدالله بن صالح شاووش.

الباحث فى تاريخ مكة المكرمة وأحد مؤلفى الأطلس التاريخى لمكة والمشاعر.

۴- سعادة الدكتور معراج بن نواب مرزا.

الباحث فى تاريخ مكة المكرمة وأحد مؤلفى الأطلس التاريخى لمكة والمشاعر.

۵- سعادة الدكتور درويش بن صديق جستنية.

۱- تقرير دراسة الامتداد الشرقى لجبلى الصفا والمروة، تقديم الدكتور أسامة بن فضل البار،: ۸.

۲- العبد المنعم، عبد العزيز بن محمد، المسعى تحقيقات تاريخية وشرعية، بحث مقدم لمجلس هيئة كبار العلماء: ۵.

ص: ۴۴

الباحث فى مركز الاقتصاد الإسلامى ومن سكان المسعى.

كما كلفت الأمانة العامة الباحثين سعادة الدكتور عبدالله بن صالح شاووش وسعادة الدكتور معراج بن نواب مرزا بمعهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج بإعداد دراسة تاريخية وجغرافية عن منطقة المسعى إضافة إلى مسح كافة الصور والخرائط التاريخية.

واستضافت مجموعة من كبار السن المعمرين من ذوى الخبرة بمنطقة المسعى وسكانها ضمت كلًا من:

١- معالى الدكتور محمد بن عمر الزبير.

مدير جامعة الملك عبدالعزيز الأسبق وأحد سكان المسعى.

٢- معالى المهندس محمد سعيد بن حسن فارسى.

المشرف على مكتب تخطيط المدن فى فترة الثمانينات الهجرية وأمين محافظة جدة الأسبق.

٣- الشيخ عبدالرحمن عمر خياط.

من كبار السن والمعمرين.

۴- الشيخ محمد نور بن محمد سعيد عيد.

مدير عام الميزانية الأسبق بوزارة المالية وأحد سكان منطقة الصفا.

۵- المهندس محمد بن حسين جستنية.

أحد سكان منطقة المسعى.

۶- الأستاذ أحمد بن محمد سعيد عيد.

المراقب المالى بمنطقة مكة المكرمة سابقاً وأحد سكان منطقة الصفا.

حيث تم عقد عدد من الاجتماعات حضر بعضاً منها، إضافة إلى أصحاب الفضيلة والسعادة ومعالى أمين عام الهيئة الدكتور ناصر بن محمد السلوم وعدد من مسؤولى الهيئة وخبرائها.

كما قامت اللجنة بجولات ميدانية على منطقة المسعى يوم الأحد ١٢/ ٧/ ١۴٢٧ ه-، ويوم الاثنين ٨/ ١٠/ ١۴٢٧ ه-، بالاجتماع مع المشايخ والمعمرين من كبار السن من سكان منطقة المسعى فى مقر المعهد بالعزيزية.

واستمعت اللجنة إلى عرض مقارن بين منطقة المسعى قبل مشروع التوسعة السعودية الأولى عام ١٣٧۵ ه-، والوضع الحالى من المهندس عبدالله بن محمد فوده، من معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج، وشاهدت فلماً تاريخياً عن مشروع التوسعة والهدميات التى تمت عام ١٣٧۵ ه-، قدمه المهندس بكر بن محمد بن لادن الرئيس التنفيذى لمجموعة بن لادن السعودية.

وفيما يلى عرض لأهم نقاط الدراسة والمقابلات الشخصية مع كبار السن من سكان المسعى:

أن المصادر التاريخية لم تشر مباشرةً إلى عرض الصفا والمروة وإن أشارت إلى تزاحم المساكن حولها منذ بداية القرن الثانى الهجرى.

أن الصفا والمروة لم يكن عليهما درج أو بناء وكان الساعى يسند فيهما حتى عهد الوالى عبدالصمد بن عبدالله بن العباس (١۴۶- ١۴٩ ه-) حيث أمر ببناء درج عليهما.

لم يشر كل من الأزرقى والفاكهى وهما من أوائل مؤرخى مكة إلى العقود المقامة على الصفا والمروة. وأول من ذكر ذلك هو الرحالة بن جبير عندما حج عام ۵٧٨ ه-، عند وصف أقواس الصفا وعددها ثلاثة أقواس وقوس واحد على المروة وحدد عرض عقود الصفا بحوالى أحد عشر متراً وعقد المروة بحوالى تسعة أمتار.

أشار المحب الطبرى فى كتابه شرح التنبيه وهو من مؤرخى القرن السابع إلى كثرة الأبنية حول الصفا والمروة حتى سترتها بحيث لا يظهر منها غير يسير فى الصفا.

لم يتغير الوضع الطبيعى لمنطقتى الصـفا والمروة خلاـل القرون الماضـية لصـعوبة إزالـة وتكسـير الجبال، وعلى سبيل المثال فقـد ظلّت المسالك والأزقة فى منطقة الصـفا منذ عهد الأزرقى (وهو فى القرن الثالث) إلى ما قبل التوسعة السعودية الأولى (۱۳۷۵ ه-) لم تتغير، حيث يوجد شعيب

ص: ۴۵

من الناحية الغربية وهو الزقاق الصاعد إلى جبل أبى قبيس، ومن الناحية الشرقية يوجد زقاق غير نافذ يؤدى إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم وما بعده.

عند تنفيذ التوسعة السعودية ببناء المسعى عام ۱۳۷۶ ه-، تم تحديد خط رابط على استقامة واحدة بين المشعرين بما أضاف حوالى تسعة أمتار من جهة الشرق ناحية الصفا وعندما رأى بعض العلماء اجتهاداً عدم جواز السعى فى المساحة المضافة تم وضع حاجز خشبى بعد تنفيذ المشروع عام ۱۳۷۶ ه- و ۱۳۷۷ ه-، إلاـ أنه قد تمت إزالة الحاجز وإجازة السعى فى تلك المنطقة بناءاً على قرار اللجنة المشكلة من عدد من العلماء.

الاجتماع مع المشايخ والمعمرين من كبار السن من سكان منطقة المسعى فى مقر المعهد بالعزيزية.

ثانياً: وثقت شهادة الشهود بالمحكمة العامة بمكة المكرمة لدى القاضى الشيخ عبد الله بن ناصر الصبيحى، وصدر بها صك شرعى برقم ۱۵۸/ ۴۴/ ۱۱ تاريخ ۲۵/ ۱۲/ ۱۴۲۷ ه- جاء فيه:

«فى يوم الأحد الموافق ۲۴/ ۱۲/ ۱۴۲۷ ه-، حسب تقويم أم القرى حضر عميد معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج الدكتور أسامة بن فضل البار وأحضر معه فوزان بن سلطان بن راجح العبدلى الشريف حامل البطاقة رقم ۱۰۰۱۶۴۰۶۶ وهو من مواليد عام ۱۳۴۹ ه-، فقرر قائلًا: إننى أذكر أن جبل المروة يمتد شمالًا متصلًا بجبل قعيقعان وأما من الجهة الشرقية فلا أتذكر، وأما موضوع الصفا فإننى أتوقف، كما حضر الدكتور عويد بن عياد بن عايد الكحيلى المطرفى حامل دفتر العائلة رقم ۱۰۰۱۷۸۷۷۶۹ وهو من مواليد عام ۱۳۵۳ ه-، وقرر قائلًا: إن جبل المروة كان يمتد شرقاً من موضعه الحالى بما لا يقل عن ثمانية وثلاثين متراً، وأمّا الصفا فإنّه يمتدّ شرقاً بأكثر من ذلك بكثير، كما حضر (فضيلة كبير سدنة البيت الشيخ) عبد العزيز بن عبدالله بن عبدالقادر شيبى حامل البطاقة رقم ۱۰۰۷۱۳۹۹۴۰ وهو من مواليد عام ۱۳۴۹ ه-، فقرر قائلًا: إن جبل المروة يمتد شرقاً وغرباً وشمالًا ولا أتذكر تحديد ذلك بالمتر، وأما الصفا فإنه يمتد شرقاً بمسافة طويلة حتى يقرب من القشاشية بما لا يزيد عن خمسين متراً.

كما حضر حسنى بن صالح بن محمد سابق حامل البطاقة رقم ۱۰۰۴۰۸۰۵۶۸ وهو من مواليد عام ۱۳۵۷ ه-، وقرر قائلًا: إن جبل المروة يمتد غرباً ويمتد شرقاً بما لا يقل عن اثنين وثلاثين متراً. وكنا نشاهد البيوت على الجبل ولما أزيلت البيوت ظهر الجبل وتم تكسيره فى المشروع، وأما جبل الصفا فإنه يمتد من جهة الشرق بأكثر من خمسة وثلاثين أو أربعين متراً. كما حضر (مدير جامعة الملك عبد العزيز السابق معالى الأستاذ الدكتور) محمد بن عمر بن عبدالله زبير حامل البطاقة رقم ۱۰۵۰۶۴۰۵۵۴ وهو من مواليد عام ۱۳۵۱ ه-، وقرر قائلًا:

إن المروة لا علم لى بها، وأما الصفا فالذى كنت أشاهده أن الذى يسعى كان ينزل من الصفا ويدخل فى برحة عن يمينه، وهذه البرحة يعتبرونها من شارع القشاشية ثم يعود إلى امتداد المسعى بما يدل على أن المسعى فى تلك الأماكن أوسع.

كما حضر (الدكتور) درويش بن صديق بن درويش جستنية حامل البطاقة رقم ۱۰۱۹۵۵۹۵۸۰ وهو من مواليد عام ۱۳۵۷ ه-، فقرر قائلًا: إن بيتنا سابقاً كان فى الجهة الشرقية من نهاية السعى فى المروة وكان يقع على الصخور المرتفعة التى هى جزء من جبل المروة، وقد أزيل جزء كبير من هذا الجبل بما فى ذلك المنطقة التى كان عليها بيتنا وذلك أثناء التوسعة التى تمت فى عام ۱۳۷۵ ه-، وهذا يعنى امتداد جبل المروة شرقاً فى حدود من خمسة وثلاثين إلى أربعين متراً، شرق المسعى الحالى، وأما الصفا فإنها كانت منطقة جبلية امتداداً متصلًا بجبل أبى قبيس ويعتبر جزءاً منه وكنت أصعد من منطقة السعى فى الصفا إلى منطقة أجياد خلف الجبل.

كما حضر محمد بن حسين بن محمد سعيد جستنية حامل البطاقة رقم ۱۰۰۱۷۷۰۲۰۳ وهو من مواليد عام ۱۳۶۱ ه-، وقرر قائلًا: إن جبل المروة كان يمتد من الجهة الشرقية والظاهر أنه يمتد إلى المدعى، وأما جبل الصفا فإنه يمتد شرقاً أيضاً أكثر من امتداد جبل المروة، فأمرت بتنظيم صك بذلك، وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. حرر فى ۲۴/ ۱۲/ ۱۴۲۷ ه-.

القاضى عبد الله بن ناصر الصبيحى

القاضى بالمحكمة العامة بمكة المكرمة

تحليل المعلومات السابقة

فى ضوء السابق من الحقائق اللغوية، والطبيعية، والتاريخية، ونصوص الفقهاء، وشهادة الثقات من كبار السن من السادة أهل مكة المكرمة يتبين الآتى:

أن عرض جبلى الصفا والمروة فى أصلهما الطبيعى أكبر مما هو ظاهر على وجه الأرض، وأن امتدادهما فى القاعدة أكبر بكثير مما هو على وجه الأرض خصوصاً وقد طالت قممهما وجوانبهما الظاهرة الكثير من التكسير والتشذيب والتسوية مع سطح الأرض.

١- أن عرض المسعى لم يحدد نصاً، ولم يتعرض له الفقهاء، ومن حدده من المؤرخين، أو الفقهاء نزر يسير جداً يعدون على أصابع اليد، وقد عبر عن هذه الحقيقة العلامة شمس الدين الرملى، إذ يقول: «ولم أر فى كلامهم ضبط عرض المسعى، وسكوتهم عنه لعدم الاحتياج إليه، فإن الواجب استيعاب المسافة بين الصفا والمروة كل مرة» (١)، فلزم أن يكون مناط الحكم فى تحديد العرض هو مدلول كلمة (جبل الصفا) و (جبل المروة) بكامل المدلول اللغوى لهذين الاسمين.

١- نهاية المحتاج ٢٩١: ۴

ص: ۴۶

أن مسافة عرض المسعى التى ذكرها بعض المؤرخين أو الفقهاء تقرير للواقع فى ذلك الوقت بصورة تقريبية ليس إلا، لم يرد فيها نص من السنة، أو الأثر، يقول العلامة ابن حجر الهيتمى المكى: «ولك أن تقول: الظاهر أن التقدير لعرضه المسعى بخمسة وثلاثين، أو نحوها على التقريب، إذ لا نص فيه يحفظ عن السنة فلا يضر الالتواء اليسير بحيث لم يخرج عن سمت العقد المشرف على المروة لم يضر».

۲- ذكر الفقهاء والمؤرخون المكيون أن المسعى فى الوقت الحاضر منذ العهد بتوسعة الخليفة المهدى العباسى عام ستين ومائة ليست فى الموقع الذى سعى فيه رسول الله ۹، وصحابته من بعده، فمن ثم أبرز العلامة قطب الدين بن علاء الدين النهروالى المكى الحنفى هذا الإشكال وأجاب عليه، كما تقدم ذكر هذا سابقاً. علماً بأن المقصود بكلمة (الموقع الذى سعى فيه رسول الله ۹) هو مكان الهرولة بين الميلين الأخضرين.

الخاتمة

من خلال ما تقدم عرضه من العناصر توصل البحث إلى النتائج التالية:

أولًا: خصت الصفا والمروة بالذكر فى النصوص الشرعية: الكتاب والسنة، ضمن شعائر الحج والعمرة لتكون علامات طبيعية ثابتة لهذه الشعيرة على مدى العصور، وكما هى عادة الشرع الشريف أن يحد المشاعر بعلامات طبيعية.

ثانياً: الصفا: يطلق هذا الاسم على جبل يبدأ من نهاية جبل أبى قبيس وهو أكبر مما هو عليه الآن، حيث يمتد شرقاً فى العرض إلى سور قصور الصفا الملكية القائمة على نهاية جبل الصفا فى امتداد جبل أبى قبيس.

ثالثاً: الصخر البارز الموجود الآن فى مشعر الصفا ليس هو كل الجبل وإنما هو جزء منه، وقد أبرزت جريدة عكاظ فى الصفحة الحادية عشرة، فى عددها الصادر يوم الثلاثاء ۱۷ ربيع الأول عام ۱۴۲۹ ه-، الموافق ۲۵ مارس ۲۰۰۸ م، السنة الخمسون العدد ۱۵۱۸۶ جبل الصفا على طبيعته فى صورتين فوتوغرافيتين فأصبح واضحاً للعيان (بعد تواريه عقوداً طويلة).

رابعاً: تمتد حدود جبل الصفا العرضية قدر امتداده الطبيعى، ذلك أن جبل الصفا يمتد عرضاً من جهتيه الغربية والشرقية، بأكثر مما هو موجود حالياً، وهذا معروف بداهة.

خامساً: قد عبر العلامة الفقيه، المؤرخ تقى الدين الفاسى المكى عن هذا بتعبير دقيق جداً فقال:» وهو الصفا موضع مرتفع.. من جبل «فليس الصفا الحالى، ولا السابق قبل التوسعة السعودية الذى يقف عليه الناس هو كل جبل الصفا.

سادساً: المروة: رأس هو منتهى جبل قعيقعان، أما الجزء البارز الواضح من هذا الجبل فى المروة فى الوقت الحاضر فهو جزء بسيط من أصل الجبل.

سابعاً: يمتد جبل الصفا عرضاً من طرفيه، وكذلك المروة بأكثر من الأجزاء الموجودة فى الوقت الحاضر.

حيث لم يرد فى السنة المطهرة تحديد للصفا والمروة فإن مناط الحكم الشرعى وتعلقه هو ما يطلق عليه جبل الصفا وجبل المروة بقدر امتدادهما. و أن يكون أداء السعى بينهما وفى حدودهما، وهو ما قرره بعض العلماء المعاصرين فى مجلس العلامة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم، ونقل هذا العلامة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدى، كما تقدم.

ثامناً: أن ما بين ضفتى هذين الجبلين الشرقية والغربية واد عريض جداً، كانت تدخل منه السيول إلى الحرم، ومن أجل أن ينحرف السيل عن دخول الحرم وضع الخليفة عمر بن الخطاب ما يسمى تاريخاً ب- (الردم) فى المدعى المعروفة اليوم، ولا زال هذا الارتفاع علامة طبيعية بارزة حتى وقتنا الحاضر.

تاسعاً: إن اتساع الوادى عرضاً كان هو المبرر لتحويل المسعى عما كان على عهد رسول الله ۹، والتابعين حتى عهد المهدى الخليفة العباسى، ولا يعد هذا تغييراً لموضع شعيرة السعى.

عاشراً: المهم الأساس فى أداء شعيرة السعى هو نقطة البداية لما يطلق عليه جبل الصفا، ونقطة النهاية فيها هو ما يطلق عليه جبل المروة.

حادى عشر: السعى بين جبلى الصفا والمروة، واستيفاء المسافة بينهما هو مناط الحكم الشرعى ومتعلقه، وهو أحد واجبات السعى الذى أكد الفقهاء على المحافظة عليه فى أداء شعيرة السعى، واهتموا به الاهتمام الكامل، حتى أنهم ذرعوا الطول بصورة دقيقة، واجتهدوا كثيراً فى تحديد بدايتها ونهايتها قديماً وحديثاً.

ثانى عشر: ليس من الافتئات على الشريعة دعوى إجماع الفقهاء أن الواجب فى السعى هو استيفاء المسافة بين الصفا والمروة طولًا، أما العرض فإن السعى صحيح ومتحقق فى جميعه ما دامت المسافة التى يقطعها الساعى متحققة بين الجبلين الصفا والمروة. ولهذا لم يتعرض الفقهاء للكلام عن العرض، ذلك أن العرض رهين بمحدودية الجبلين عرضاً فى كليهما.

ثالث عشر:

ص: ۴۷

۱. قد عرف عن الشرع الإسلامى الشريف من طريق الاستقراء أن الحدود للمشاعر هى الحدود الطبيعية من وديان، وجبال، وأكمات. هذه القاعدة تنطبق تماماً على جبلى الصفا والمروة بحدودهما الطبيعية من الجهتين العرضيتين الشرقية والغربية،

۲. استيفاء المسافة فى السعى بين الصفا والمروة فى حدودهما الطبيعية تحقيق للمطلوب الشرعى فى المكان المحدد شرعاً فى كل من الشعيرتين.

ليس هذا بدعاً فى هذه الشعيرة، بل يمتد هذا المعنى فى كافة المشاعر، مثلًا: الوقوف بعرفة، والمزدلفة، ومنى المقصود من ذلك هو الكينونة فى محدود مسماها، والسعى بين الصفا والمروة ليس بدعاً من تلك المشاعر مادام الأداء متحققاً فى حدود العرض الطبيعى لمسمى الجبلين.

آخراً وليس أخيراً، فإنه من الواجب أن أنوه هنا بالإضافة المهمة المفيدة التى دونها العلامة الفقيه المحقق الشيخ جعفر السبحانى حفظه الله بعد اطلاعه على البحث المبدئى لتوسعة المسعى؛ لتأييد ماسبق ذكره من حقائق وتأكيدها قائلًا:

«ومع ذلك كله فهناك قرائن تدل على أن المسعى كان أوسع حتى من الجانب الآخر الذى يقابل المسجد، وهذه القرائن عبارة:

۱. أن الصفا جزء من جبل أبى قبيس كما أن المروة جزء من جبل قعيقعان فمن البعيد أن يكون طول الجبل وامتداده حوالى ۲۰ متراً من غير فرق بين الصفا والمروة، وهذا يدل على أن الامتداد الحالى ليس هو كما فى السابق لحصول الحفريات على جانبيه.

۲. توجد حالياً بقايا من جبل المروة خارج المسعى فى الجانب الشرقى، وهذا يدل على امتداده سابقاً، ولكنه حفر لإيجاد الطريق.

۳. يظهر من الحاكم فى ترجمة الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى قوله: إن دار الأرقم وهو الدار التى كان النبى ۹ يدعو الناس فيها إلى الإسلام، وأسلم فيها قوم كثير أن داره كانت على الصفا، وتصدق بها الأرقم على ولده، فقرئت نسخة صدقة الأرقم بداره: (بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما قضى الأرقم فى ربعه ما حاز الصفا أنها صدقة بمكانها من الحرم لاتباع، ولا تورث). إلى أن قال الحاكم: فلم تزل هذه الدار صدقة قائمة فيها ولده يسكنون ويؤجرون، ويأخذون عليها حتى كان زمن أبى جعفر: قال محمد بن عمر: فأخبرنى أبى عن يحيى بن عمران بن عثمان بن الأرقم أنه يسعى بين الصفا والمروة فى حجة حجها ونحن على ظهر الدار فيمر تحتنا، لو شئت أن آخذ قلنسوته لأخذتها، وإنه لينظر إلينا من حين يهبط الوادى حتى يصعد إلى الصفا) (۱)

وهذه الوثيقة التاريخية تدفعنا إلى القول: أن المسعى من جانبه الشرقى كان أوسع مما عليه الآن.

۴. أن دار الأرقم صارت فى السنوات السالفة مكاناً لما يسمى (دار الحديث المكى)، ولو بذلت جهود لسؤال المسنين والمعمرين الذين شاهدوا دار الحديث قبل التوسعة، وحددوا مقدار الفاصلة بينه وبين المسعى الحالى لكان ذلك دليلًا للموضوع. (۲)

هذا وقد نشر المشرفون على التوسعة مخططاً أوضحوا فيه أن دار الأرقم بن أبى الأرقم (دار الحديث) كما ورد فى المصادر التاريخية كانت تقع فى المسعى، وهى الآن تبعد عن المسعى الحالى ۱۸/ ۲۱ متراً، وبما أن مشروع التوسعة الجديد يمتد إلى شرق المسعى ۲۰ متراً فيكون الامتداد ضمن المسعى الواقعى.

وهذا الذى يعانى منه العلماء والمحققون اليوم هو أحد النتائج السلبية التى سببها هدم الآثار التاريخية المتعلقة بعصر النبى ۹، وصدر الإسلام، والكثير من المعالم الإسلامية فى مكة والمدينة المنورة.

ولو كانت التوسعة مقرونة بحفظ معالم الإسلام وآثاره لما ضاع علينا معرفة حدود المشاعر الإسلامية».

ثم انتهى حفظه الله إلى القول:

«ما ذكرنا من الدراسة يؤيد امتداد جبل الصفا حوالى ۲۰ متراً إلى الشرق» ثم انتقل إلى القول:

«۸. أكدت الدراسات التاريخية والجغرافية والجيولوجية التى قامت بها اللجان المشرفة على توسعة المسعى أن هناك امتداداً سطحياً لجبل المروة بما لا يقل يقيناً عن ۲۵ متراً من الناحية الشرقية، وهذا ما ثبت بعد دراسة عينات الصخور التى أخذت من الناحية الشرقية

لجبل المروة والتى ظهرت مشابهتها لصخور المروة» (۳).

النتيجة:

يعلم مما تقدم من عرض العناصر السابقة: أن جبلى الصفا والمروة يمتدان عرضاً من جانبيهما بأكثر مما هما عليه فى الوقت الحاضر حتى بعد توسعة المسعى، هذا مؤكد لدى كل من عاصر مكة المكرمة قبل أن تبدأ التوسعة السعودية الأولى للحرم الشريف عام ۱۳۷۵ ه-، ودرج على ترابها الطاهر طفلًا وشاباً، فالأمر بالنسبة لكل من عاصر الفترة الزمنية قبل التخطيط الحديث والتغيير للمنطقة التى يقع عليها الجبلان، أن الساعى بينهما فى التوسعة الجديدة لم يخرج عن حدودهما العرضية الطبيعية.

فى ضوء ما سبق من النصوص الفقهية، والحقائق التاريخية، والنتائج العلمية الجيولوجية، وشهادة أهل الخبرة الثقات من كبار رجال مكة المكرمة الذين عاشوا فى تلك المنطقة قبل إزالتها، فإنى أرى والله أعلم بالصواب أنه لا مانع من توسعة المسعى من الناحية الشرقية للمسجد الحرام،

۱- المستدرک على الصحيحين ۵۰۲: ۳- ۵۰۳.

۲- قد أخذت حكومة المملكة العربية السعودية على عاتقها المبادرة فى هذا، ووثقت شهادة الشهود فى المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة، وصدر بهذا صك شرعى برقم ۱۵۸/ ۴۴/ ۱۱، وتاريخ ۲۵/ ۱۲/ ۱۴۲۷ ه-، كما سبق تقرير هذا فى هذا البحث تحت عنوان شهادة أهل الخبرة فقد استنفدت حكومة المملكة العربية السعودية كل الطاقات والإمكانات للتحقق والتثبت من سلامة الإجراءات التى اتخذتها لتوسعة عرض المسعى بما لايدع شكاً لأحد فى سلامة إجراءاتها تقديراً لمسؤوليتها الدينية.

۳- الحج فى الشريعة الإسلامية الغراء، الطبعة الأولى مكتبة التوحيد، عام ۱۴۲۸ ۵۹۲: ۵؛ ميقات الحج، العدد ۱۰: ۲۷- ۱۲.

ص: ۴۸

ليس هـذا من قبيل الترخيص، بل هـذا هو الأصل، وكما يعبر عنه الفقهاء (عزيمـة) لا (رخصـة) فإن الحكم لم يتغير، ذلك أن التوسـعة التى يجرى تنفيـذها على أرض المسـعى، وبمساحـة تقدر بنفس المساحة القديمة، وقدرها كما عرفت عشـرون متراً لا تعد خروجاً عن حدود المسعى المقررة شرعاً لهذه الشعيرة بل لازالت داخل حدود جبلى الصفا والمروة.

بدء السعى فى التوسعة الجديدة للمسعى

تم بحمد الله وعونه افتتاح توسـعة المسـعى فى التوسـعة الجديدة من الناحية الشرقية فى موسم حج عام ۱۴۲۸ ه-، وقـد وفقنى الله لأداء شعيرة الحج فشاهدت التوسعة الجديدة للمسعى وقد هيئت للساعين من الحجاج والمعتمرين، وقد جزئت التوسعة إلى مسارين للذاهب من الصـفا إلى المروة، ومسار آخر من المروة إلى الصـفا، وقـد فصل بين المسارين بصف من الحواجز البلاستيكية ذات اللون الأحمر، وظل المسعى القديم كحاله ممتلئاً بالساعين.

لوحظ فى نهايـة توسـعة المسـعى بالمروة عمل ارتفاع مصـطنع من الاسـمنت مسامت لارتفاع جبل المروة فى المسـعى القـديم لإعطاء الساعى انطباعاً بجبل المروة فى تلك الناحية.

شيد المسعى فى امتدادها الجديد بطراز من الديكور مختلف عنه فى القديم، ولكنه ليس بعيداً عنه.

جاءت التوسـعة مطابقة فى بدايتها ونهايتها للمسـعى القديم على الرغم من أن فى الشـريعة متسعاً؛ ذلك أنه يمكن أن يمتد جدار بداية الصـفا، ونهاية جدار المروة إلى الوراء بأكثر من الحدود القديمة مادام أن الساعى وصل بداية كل من الصـفا والمروة فتأخره وقوفاً فى المروة يوسع للساعين ليتموا سعيهم فى راحة واطمئنان من دون مضايقة لهم ما دام أنه استوفى المسافة الكاملة للسعى بين الجبلين.

وقد تابعت الصـحافة المحلية العمل الجارى فى المسـعى الجديد والقديم فنشرت جريدة عكاظ فى الصفحة الحادية عشرة، الثلاثاء ۱۷ ربيع الأول عام ۱۴۲۹ ه- الموافق ۲۵ مارس عام ۲۰۰۸ م مقالًا بعنوان: (المسعى الجديد نقطة تحول فى تاريخ الحرم المكى) جاء فيه: «بعـد أيام قليلـة يـدخل الحرم المكى الشـريف مرحلـة تاريخيـة جديـدة بإنجاز واحـد من المشاريعه التوسـعية المتمثلة بإنشاء المسـعى الجديـد الـذى سـيغير كثيراً من ملامـح الحرم وخصوصاً ما يتعلق منها بجبل الصـفا الشـهير الـذى أبرزت عمليات البناء ملامحه بعد أن ظلت متوارية لعقود طويلة.

الشـركة المنفـذة للمشـروع وضـعت اللمسات الأخيرة عليه بعـد تركيب ممرات للعربات وفتـح الأبواب من جهـة المروة تسـهيلًا لخروج المعتمرين، وهى آخر مراحل المشروع الذى بلغت تكلفته نحو ثلاثة مليارات ريال.

ويسـتخدم الزوار والمعتمرون الآن المسـعى الجديد لأداء شـعائرهم ريثما يتم الانتهاء من إنجاز المسـعى القديم، ومن ثم يتم اسـتخدام الاثنين معاً.

كما شارفت عمليات إزالة المسعى القديم على الانتهاء حيث لم يتبقّ سوى جزء يسير فى منتصفه.

يذكر أنه يواصل أكثر من ألفى عامل ومهندس العمل بالليل والنهار من خلال فترتين، وتشير مصادر عكاظ أنه سيتم الانتهاء من الدور الأول قبل بداية شهر رمضان القادم لتمكين المعتمرين من السعى فيه إضافة إلى المسعى الجديد المستخدم حالياً.

وتتيح التوسعة لنحو ۴ ملايين معتمر وزائر لبيت الله الحرام فرصة السعى على مدار اليوم، ويتوقع أن ترتفع الطاقة الاستيعابية حال إنجاز كافـة مراحل المشـروع لتصـبح قادرة على استيعاب ۱۱۸ ألف شـخص لكل ساعـة للسـعى، و ۱۱۵ ألفـاً و ۶۰۰ مصل وهو الأمر الـذى أسـهمت فيه زيادة الرقعـة المساحيـة للمسـعى، فمساحة المسـعى قبل التوسـعة كانت تقدر ۲۹ ألفـاً و ۴۰۰ متراً مربعاً، أما بعـد التوسـعة فسترتفع لتبلغ ۷۸ ألف متراً مربعاً شاملة كل الطوابق الأرضى والأول والثانى».

والله أعلم بالصواب، وهو الموفق، ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ص: ۴۹

ص: ۵۰

ص: ۵۱

قراءة فى سورة الحج

محسن الأسدى

تعدّ هذه السورة المباركة من السور القرآنية العجيبة لأنها وسورة الجمعة تحملان اسماً يدل على فريضة عبادية، وإذا تمعنا أكثر لوجدنا أن سورة الجمعة تتحدث عن صلاة الجمعة وهى فريضة واحدة من فرائض الصلاة لا عن الصلاة ككل، وعندئذ نعرف أن سورة الحج التى نحن بصددها تفردت بأنها السورة الوحيدة التى سميت بهذا الاسم «الحج»، تخليداً لدعوة الخليل إبراهيم ۷ وندائه للناس لحج بيت الله الحرام، وذلك بعد انتهائه وابنه إسماعيل ۷ من بناء البيت العتيق وتطهيره كما يأتينا فى الآيات التى ذكرناها ضمن المقالة هذه:

فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع نداؤه من هم فى الأصلاب والأرحام وأجابوا النداء «لبيك اللهم لبيك ..» كما تذكره كتب المفسرين. ولأن الحج فريضة عبادية ذات مكانة كبيرة ومنزلة رفيعة بمناسكه العديدة وبمبادئه الجليلة فى الشريعة الإسلامية وفى الساحة الإيمانية.. فنالت اهتماماً كبيراً من قبل المسلمين وحظيت باهتمام واسع من قبل العلماء والفقهاء والمؤرخين والمفكرين والأدباء والشعراء والكتاب، وتوفرت على الكثير من المدونات والمصادر والمؤلفات المتحدثة عنها فقهاً وأحكاماً ومفاهيم وتاريخاً وأهدافاً ومنافع.. قد لا نجد مثيلًا لها فى الفرائض العبادية الأخرى ...

وهذا ما جعل لسورة الحج قيمة مضاعفة، فإضافة إلى أن لسورة الحج قيمة بذاتها حالها حال أى سورة قرآنية، تبرز قيمة أخرى لها من خلال موضوعها لأن الموضوع الأساسى للسورة كما هو واضح هو الحديث عن هذا الواجب العظيم من واجبات الإسلام. وأهمية الحج أنه من أسمى العبادات التى يترك فيها المسلم كثيراً من عاداته التى تعوّد عليها فى حياته، ليبنى نفسه من جديد ويعودها على الالتزام والجدية والصبر واقتحام الصعاب وتحمل المتاعب، وأن يجعل نفسه تتذوق معانى العبودية المطلقة الخالصة لله وحده تبارك وتعالى ..

وهنا نحاول أن نعيش أجواء بعض آياتها، وهل هناك من ارتباط بين ما تتضمّنه هذه السورة القرآنية من مواضيع متعددة وفريضة الحج وأجوائها وغاياتها، من خلال تعرّضنا لبعض آيات الحج فى السور: البقرة وآل عمران والمائدة، وفيما تتوفر عليه هذه السورة المباركة من آيات تشكل موضوع الحج فيها والتى كانت كما يبدو السبب فى تسميتها بالحج، وقد كانت مصدر استفادة العديد من أحكام الحج وأحكام مناسكه وآدابه وأهدافه وما يتعلق به. فشأن هذه السورة شأن سائر السور المدنية التى تُعنى بأمور التشريع ..

ومن الأمور اللافتة الأخرى لهذه السورة أنها مع مدنيتها إلا أنها يغلب عليها جوّ السور المكية وموضوعات السور المكية كالتوحيد والإيمان، والإنذار والتخويف من الساعة وإثبات البعث والجزاء وإنكار الشرك ومشاهد القيامة وأهوالها وآيات الكون المبثوثة فى صفحات الكون كلها بارزة فى السورة، حتى ليكاد يُخيل للقارئ أنها من السور المكية..

ص: ۵۲

فيما هناك الموضوعات التى يغلب عليها الطابع المدنى التشريعى من الإذن بالقتال والأمر بالجهاد فى سبيل الله، فالمسلمون لم يؤذن لهم بالقتال والقصاص إلا بعد الهجرة، لردّ أذى المشركين والدفاع عن حرية العبادة.. كما أنها تتضمن أحكام الحج والهدى وحماية الشعائر وما وراءها من إثارة مشاعر التقوى فى القلوب لبناء الحاج بناءاً أخلاقياً صلباً.. ثم تذكر الوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغى وهو يرد العدوان، وغير ذلك من المواضيع التى هى من خصائص السور المدنية، حتى لقد عدها بعض العلماء من السور المشتركة بين المدنى والمكى.

نزلت هذه السورة بعد سورة النور، ترتيبها فى القرآن ۲۲ بعد سورة الأنبياء، عدد آياتها ۷۸، عدد كلماتها ۱۲۷۹، وعدد حروفها ۵۱۹۶، وهى تشكل مع سورة الأنبياء الجزء ۱۷، ويضمّها حزب واحد وهو الحزب ۳۴.

فضلها

عن أبى بن كعب أنه قال: قال النبى ۹: من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى.

قال أبو عبد الله ۷: من قرأها فى كل ثلاثة أيام لم يخرج من سنة حتى يخرج إلى بيت الله الحرام وإن مات فى سفره دخل الجنة.

وهى تعدّ أيضاً من أعاجيب السور القرآنية كما يقول الغزنوى: «وهى من أعاجيب السور نزلت ليلًا ونهاراً، سفراً وحضراً، مكياً ومدنياً، سلمياً وحربياً، ناسخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً، مختلف العدد» (۱).

إن آيات هذه السورة توزعت بين ما هو مكى وما هو مدنى، فمنهم من يقول: كلها مكية إلا بعض الآيات، فيما يقول غيرهم: إنها مدنية إلا بعض الآيات، وهذا يعنى أن الاختلاف وقع بينهم فى أصل السورة بين كونها مكية إلا بعضها وكونها مدنية إلا بعضها فهناك إذن آيات منها نزلت فى مكة فيما نزلت أخرى فى المدينة، وفيها آيات نزلت ليلًا وآيات أخرى نزلت نهاراً، وآيات نزلت فى السفر وآيات نزلت فى الحضر ...

ابن عباس فى قول ومجاهد يذهبان إلى أن السورة مكية سوى ثلاث آيات:

هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ ما فِى بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ.

وعن ابن عباس أنهنّ أربع آيات أى بإضافة الآية التالية:

كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ.

وفى مجمع البيان عن ابن عباس وعطاء أنها مكية إلا آيات. ولم يذكر هذه الآيات.

وفى قول آخر منسوب إلى ابن عباس ومعه الضحاك وقتادة إلى أنها مدنية إلا أربع آيات:

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ .... عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ، فهنّ مكيات.

أخرج ابن المنذر، عن قتادة قال: نزل بالمدينة من القرآن الحج، غير أربع آيات مكيات:

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ .... عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (۲)

وقال الحسن كما عن مجمع البيان: هى مدنية غير آيات نزلت فى السفر، وقال بعضهم: غير ست آيات، وقال بعضهم: غير أربع.

وعد النقّاش ما نزل بالمدينة عشر آيات. وقال الجمهور: السورة مختلطة منها مكى ومنها مدنى.

يقول القرطبى فى جامعه: وهذا هو الأصح لأن الآيات تقتضى ذلك، لأن يا أَيُّهَا النَّاسُ مكى و يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مدنى (۳).

آيتا السجود

ذكرت بعض الروايات أن سورة الحج تتضمن آيتين يسجد عند قراءتهما، وقد تميزت بهما هذه السورة بل وفضلت بوجودهما على

غیرها من السور القرآنیة، وهاتان الآیتان هما:

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ یَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ کَثِیرٌ مِنَ النَّاسِ وَ کَثِیرٌ حَقَّ عَلَیْهِ الْعَذابُ وَ مَنْ یُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُکْرِمٍ إِنَّ اللهَ یَفْعَلُ ما یَشاءُ (۴).

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا ارْکَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّکُمْ وَ افْعَلُوا الْخَیْرَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۵).

۱- انظر: أحکام القرآن للقرطبی، السورة.

۲- الحج: ۵۲- ۵۵.

۳- انظر کلًا من أحکام القرآن للقرطبی ومجمع البیان للطبرسی: سورة الحج.

۴- الحج: ۱۸.

۵- الحج: ۷۷.

ص: ۵۳

ومن هذه الروايات:

وجاء فى فضلها ما رواه الترمذى وأبو داود والدارقطنى عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله فضلت سورة الحج بأن فيها سجدتين؟ قال: نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما.

أخرج أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم والبيهقى فى سننه وابن مردويه، عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟

قال: «نعم. فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما».

وأخرج أبو داود فى المراسيل والبيهقى، عن خالد بن معدان: أن رسول الله ۹ قال: فضلت سورة الحج على القرآن بسجدتين.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والإسماعيلى وابن مردويه والبيهقى، عن عمر أنه: كان يسجد سجدتين فى الحج. قال: إن هذه السورة فضلت على سائر السور بسجدتين.

وأخرج ابن أبى شيبة، عن على وأبى الدرداء: أنهما سجدا فى الحج سجدتين.

وأخرج ابن أبى شيبة من طريق أبى العالية، عن ابن عباس قال: فى سورة الحج سجدتان.

فيما أخرج ابن شيبة من طريق أبى العريان المجاشعى، عن ابن عباس أنه قال: فى الحج سجدة واحدة. وهو قول سفيان الثورى ..

إذن وقع الاختلاف بينهم بسبب الروايات المختلفة فى كونها تتضمن سجدتين أو سجدة واحدة. ولكن يبدو أن فيها سجدتين وهو ما عليه المصحف الشريف. لكنهما سجدتان غير واجبتى السجود، كما عليه الإمامية الذين حصروا السجود الواجب فقط بآيات سور العزائم الأربع:

السجدة: ۱۵. فصلت: ۳۷. النجم: ۶۲. العلق: ۱۹.

فالسجدة فى سورة العلق كانت أول آية سجدة فى القرآن وهى خاصة بالرسول ۹ وحده، أما آية السجدة فى آخر سورة الحج فهى آخر آية سجدة نزلت وهى موجهة للمؤمنين جميعاً.

إن أول ما تتكلم عنه هذه السورة هو التقوى ثم عن يوم القيامة، فنراها تركّز من البداية على التقوى عبر خطاب عام لكل الناس، كما أن خطاب الحج للناس كافة، ثم تنص على خطورة الساعة و زلزلتها التى تنتظرهم جميعاً وأنه ذلك اليوم العظيم «البعث والنشور والقيامة» قبل أن تنتقل إلى موضوع آخر، وهو الجهاد فى سبيل الله، لتنتقل بعده إلى العبودية والخضوع لله تبارك وتعالى، وتبين بعد ذلك أن الله تعالى يسجد له من فى السماوات والأرض وأن السجود ليس مختصاً بالإنسان وحده وإنما يعم جميع مخلوقاته سبحانه وتعالى.

فما هى تلك العلاقة التى تربط بين هذه الأمور ببعضها؟ وما علاقتها بالحج ومناسكه؟

هناك سرّ فى هذه المناسك العظيمة التى شرعها لنا الله تعالى فى مخزون علمه سبحانه وتعالى، ولكن يمكننا أن نستجلى من خلال قراءتنا لأنشطة هذه الفريضة وما ورد فيها من آيات وروايات وأقوال وآراء وكتابات بعض ذلك السرّ.

فالواقع أن الحج هو العبادة التى تبنى الأمة؛ لما فيه من عبر لا يعلمها إلا من حج واستشعر كل معانى الحج الحقيقية.

إن المسلم عندما يؤدى هذه العبادة العظيمة، أو يعيش مع الحجاج أو يتخيل نفسه معهم إن لم يكن فعلًا معهم يؤدى ما يؤدونه من مناسك الحج، سيفهم ما يريده الله تعالى ربنا من السورة، شريطة أن نفهم أن الحج عبادة لها دور أساسى فى بناء الفرد الذاتى والعقيدى و بناء الأمة وتثبيت وتعميق عقيدتها. وكأن السورة تقول لقارئيها: حجوا حجة صحيحة، كما هى الحجة التى حجها رسول الله ۹ فهو القدوة والأسوة وهو القائل: «خذوا عنى مناسككم».

لتبنوا أنفسكم البناء الصحيح وتدربوها على حمل المعانى الرائعة والمفاهيم الأساسية، لأن هذه الأمور جميعاً تعد عاملًا أساسياً لبناء

الأفراد والمجتمعات وبالتالى الأمة كلها ...

فما أنزل الله تعالى الآيات إلا فى مكانها المناسب بتدبير وحكمة لا يعلمها إلا هو، ولكن إذا ما تمعنا فى الآيات وتدبرناها واجتهدنا فى التقصى والتحرى لمعانيها فلعلنا نصيب حكمها ونفهم أهدافها ومراد الله تعالى منها ... وعندئذ قد نوفق بلطف من الله سبحانه لمعرفة تلك العلاقة..

فقوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ.

إذن الخطاب فى بداية السورة جاء إلى الناس:

ص: ۵۴

يا أَيُّهَا النَّاسُ ...

وقد ذكرت لفظة (الناس) فى السورة خمس عشرة مرة، وهذه تعد أعلى نسبة فى سور القرآن الكريم بعد سورة الناس التى ذكرت فيها لفظة الناس خمس مرات، والمقصود بأعلى نسبة نسبة تكرار كلمة (الناس) إلى عدد كلمات السورة.. إذن هذا خطاب للناس بأن يتقوا الله تعالى لا إلى فئة معينة دون غيرها..

فيما جاءت الآية ۹۷ من سورة آل عمران وهى توجب فريضة الحج:

... وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ.

وقوله تعالى فى سورة الحج الآية ۲۷:

وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ....

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ ... (۱).

إن خطاب الإيجاب للحج فى آية الحج المذكورة من سورة آل عمران وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ .. يدل على أن فريضة الحج هى العبادة الوحيدة التى عبر عنها بهذه الصيغة، وهذه الصيغة لا نجدها فى إيجاب فريضتى الصلاة والصيام وأيضاً الزكاة، فقد توجه الخطاب فيهما إلى المؤمنين فى سورتى النساء والبقرة:

إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً (۲).

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۳).

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ... وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ .. (۴).

وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ ... (۵).

ولم يأت الخطاب: لله على الناس إقامة الصلاة أو إيتاء الزكاة أو لله على الناس أن يصوموا..

كما أن تقديم اللفظ (لله) على المبتدأ المؤخر يدل على أن السياق يفيد معنى الحصر، أى إن هذه العبادة هى لله وحده، وهذه خصوصية انطوت عليها هذه العبادة من بين سائر العبادات، ولهذا نجد بعض الروايات تبين أن الحج فرار إلى الله وحده، فعن أبى جعفر ۷ فى قوله تعالى:

فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ.

قال: «حجوا إلى الله» (۶).

فالحاج أسلم نفسه وحياته بكل حالاتها ولحظاتها لله تعالى وحده لا شريك له، يأمره فيأتمر وينهاه فينتهى، وجوده كله يصرفه فى سبيل الله وقربة إليه وبالتالى فهو يصوغ حياته كلها وفق هدى الله ومنهجه ويبعدها عن كل ما يصرفه عن ذلك، وحتى يصل الحاج إلى هذه النتيجة عليه أن يلتزم بما يقوله الإمام الصادق ۷: «إذا أردت الحج فجرد قلبك لله عز وجل من قبل عزمك من كل شاغل وحجاب حاجب، وفوض أمورك إلى خالقك، وتوكل عليه فى جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك وسلّم لقضائه وحكمه وقدره ودع الدنيا والراحة» (۷)

أو كما فى تفسير للآية الكريمة ۲۶: وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ أى طهر قلبك لدخول السكينة فيه ولتحل فيه الأنوار الإلهية ..

وقد قال القرطبى: والقائمون هم المصلون، ذكر تعالى من أركان الصلاة وأعظمها وهو القيام والركوع والسجود (۸).

فبمثل هذه الحالة والتجريد النفسى والتطهير القلبى والتوجه الخالص والتسليم الكامل والتفويض المطلق يدخل الحاج الذى يريد أن يستفيد من فريضة الحج ويبنى بها كيانه بجدّ وصدق، يدخل أيام الحج وموسمه وبمثل ذلك يخرج ليستقبل حياته من جديد وبتاريخ

جدید یستأنف نشاطه.. لهذا ورد عن رسول الله ۹: «للحاج والمعتمر إحدی ثلاث خصال: إما أن یقال له: قد غفر لک ما مضی، وإما أن یقال له: قد غفر لک ما مضی فاستأنف العمل، وإما أن یقال له: قد حفظت فی أهلک وولدک وهی أخسهنّ».

أو کما جاء فی الحدیث الذی یذکره الطبرانی عن ابن عمر عن رسول الله ۹: «... وأما وقوفک بعرفة ... فلو کان علیک مثل رمل عالج أی متراکم أو مثل أیام الدنیا، أو مثل قطر السماء ذنوباً غسلها الله عنک. وأما رمیک الجمار فإنه مدخور لک. وأما حلقک رأسک، فإن لک بکل شعرة تسقط حسنة. فإذا طفت بالبیت خرجت من ذنوبک کیوم ولدتک أمک» ..

۱- آل عمران: ۹۶.

۲- النساء: ۱۰۲.

۳- البقرة: ۱۸۳.

۴- البقرة: ۱۷۷.

۵- حم السجدة: ۷.

۶- سفینة البحار: ۲۱۰.

۷- المصدر نفسه: ۲۱۱.

۸- انظر: تفسیر وبیان مفردات القرآن د. الحمصی. أحکام القرآن: الآیة.

ص: ۵۵

أو وكما تحمله لنا رواية أخرى عن الإمام الصادق ۷: «من أمّ هذا البيت حاجاً أو معتمراً مبرءاً من الكبر رجع من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه، والكبر هو أن يجهل الحق ويطعن على أهله، ومن فعل ذلك فقد نازع الله رداءه» (۱).

فالإنسان المؤمن يخرج من الحج ومن مناسكه إنساناً آخر بحياة أخرى، وكأنه يبدأ عمراً جديداً وشوطاً جديداً يحمل كل معانى الخير والعطاء لنفسه ولأسرته ولمجتمعه وأمته ولدنياه وآخرته ..

ونلاحظ أن الخطاب فى آية الحج جاء للناس دون سائر الأركان العبادية الأخرى، وهذا يدل على أن فريضة الحج كما يظهر هى استحقاق ربانى، حيث إن التعبير عام كما فى الآية يقول تعالى:

لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ... (۲).

وهكذا

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ.

.. وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ.

وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ.

وحتى البيت نفسه مركز فريضة الحج هو مثابة للناس كما فى الآية:

وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً ..

وحتى الأذان بالحج كان للناس كما فى الآية: وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ ... (۳).

فهو للناس وللعالمين وعلى الناس وعن العالمين.. كلها ألفاظ تميزت بها هذه الفريضة مكاناً وزماناً وتاريخاً ودعوة، وتدل على عمومية الخطاب وهى فضيلة اختصّت بها دون سواها..

يقول الشيخ السيورى فى كنزه: (على الناس) عام أبدل منه (من استطاع) بدل بعض من الكل للذكور والإناث والخناثى، خص بمنفصل إما عقلًا وهو اشتراط الفهم للخطاب لاستحالة تكليف غير الفاهم، أو نقلًا وهو قوله ۹:

«رفع القلم عن ثلاثة، عن الصبى حتى يبلغ، والمجنون حتى يفيق، والنائم حتى ينتبه».

ولما كان العبد محجوراً عليه لا قدرة له على التصرف فى نفسه لم يكن مستطيعاً فخرج أيضاً من العموم (۴).

إنه استحقاق، وهو دَين على الناس، كل الناس، كيف لا والمسجد الحرام هو أول بيت وضع لعبادةالله؟! كيف لا ومكة هى أم القرى، أى أمّ الأمم، فمنها كان انطلاق الإنسان فى خلافته الأرض؟! من هنا كان الخطاب للناس كل الناس.

فكما خوطب الإنسان أن يعبد ربه وحده، وفق ما بيّنه الله تعالى فى رسالاته، خوطب أيضاً بأن يقصد البيت الحرام الذى فيه عبد الآباء الأوائل ربهم، والذى منه انطلقوا ليكونوا خلفاء الأرض، ومن أراد أن يستجيب إلى هذا الأذان فعليه أن يقبل شروط أداء هذا الاستحقاق. من هنا ندرك بعض أسرار ختم الآية (۹۷) من آل عمران بقوله تعالى: ... وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ.

ثم إذا عدنا إلى قراءة الآية (۹۶) من سورة آل عمران، والتى تسبق الآية (۹۷) تقول:

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ نلاحظ:

وُضِعَ لِلنَّاسِ ... هُدىً لِلْعالَمِينَ.

والآية (۹۷) ... وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ ... غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ.

ونرجع إلى الآية (۲۷) من سورة الحج وهى آخر آية ذكر فيها لفظ الحج فى القرآن الكريم نجد أن أذان إبراهيم ۷ بالحج كان أذاناً عالمياً عاماً للجميع بعد أن هيأته له السماء ووطأته كما فى الآية الكريمة ۲۶ من السورة نفسها: وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ.

و أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً.

فهو بیت لله وحده دون سواه.

۱- انظر: من لا یحضره الفقیه ۱۳۶: ۲.

۲- آل عمران: ۹۷.

۳- الحج: ۲۷.

۴- انظر: کنز العرفان فی فقه القرآن، کتاب الحج؛ وانظر السراج المنیر ۳۱۷: ۲، من حدیث عائشة وعمر وأخرجه فی الوسائل عن الخصال الباب ۴ من أبواب العبادات ح ۱۱ ...

ص: ۵۶

ثم يأتى التطهير وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ فلهؤلاء أنشئ البيت، الذين يعبدون الله تعالى ولا يشركون فى عبادتهم له أحداً فى طوافهم بالكعبة وفى قيامهم وركوعهم وسجودهم.. كل هذا كان تمهيداً للأذان المبارك.

وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ.

يأتون يسعون على أقدامهم من طرق بعيدة وعلى كل إبل وقد جهدها السير والبعد والجوع فهزلت وضمرت حتى ورد أنه لا يدخل بعير ولا غيره الحرم إلا وقد هزل ..

وفى ثواب السعى إلى البيت المبارك روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال لبنيه: يا بنى حجوا من مكة مشاة حتى ترجعوا إليها مشاة فإنى سمعت رسول الله ۹ يقول: للحاج الراكب بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللحاج الماشى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم. قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة بمائة ألف حسنة (۱).

وبدلالة وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ ... و ... مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ..

أى ناد فى الناس وأعلمهم بوجوب الحج وإن تعددت أماكنهم وتباعدت بلدانهم وتناءت أمصارهم ..

ولا بأس بنقل هذا الخبر: قال محمد بن ياسين: قال لى شيخ فى الطواف: من أين أنت؟ فقلت: من خراسان. قال: كم بينكم وبين البيت؟ قلت: مسيرة شهرين أو ثلاثة. قال: فأنتم جيران البيت. قلت: أنت من أين جئت؟ قال: من مسيرة خمس سنوات وخرجت وأنا شاب فاكتهلت. قلت: والله هذه الطاعة الجميلة والمحبة الصادقة. فقال:

زر من هويت وان شطت بك الدار

وحال من دونه حجب وأستار

لا يمنعنك بُعد عن زيارته

إن المحب لمن يهواه زوار (۲)

وسواء أكان المخاطب نبى الله إبراهيم أم رسول الله محمد صلوات الله عليهما، فقد وقع الاختلاف بين المفسرين فى من الذى يؤذن بالحج؟

فجمهور المفسرين ذهب إلى أن المخاطب هو نبى الله إبراهيم ۷ وقالوا: أسمع الله تعالى صوت إبراهيم كل من سبق علمه بأنه يحج إلى يوم القيامة ... عن ابن عباس قال: لما أمر الله سبحانه إبراهيم أن ينادى فى الناس بالحج صعد أبا قبيس «وهو جبل» ووضع إصبعه فى أذنيه وقال: يا أيها الناس أجيبوا ربكم فأجابوه بالتلبية فى أصلاب الرجال وأول من أجابه أهل اليمن.

فيما ذهب غيرهم إلى أن المخاطب بالآية هو نبينا محمد ۹ أى وأذن يا محمد فى الناس بالحج فأذن ۹ فى حجة الوداع، أى أعلمهم بوجوب الحج (۳)..

إن الحج إلى البيت العتيق كما يبدو لمن تتبع تاريخ الحج كان فى شريعة الأنبياء والرسل وأنه كان عبادة مألوفة منذ عصور قديمة، فقد صحت آثار على ذلك، منها:

ما ورد من أن هوداً وصالحاً ۸ قد مروا بوادى عُسفان يلبون ويحجون البيت العتيق... ومن أن يونس وموسى ۸ قد حجا أيضاً (۴).

وأيضاً يمكن الاستفادة من الآية (۲۷) من سورة القصص التالية على أن الحج كان معروفاً لهم حيث اعتادوا أن يعدوا السنين بالحج، وفى ذلك يقول نبى الله شعيب لموسى الكليم ۸:

قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ ....

المقصود هنا ثمانية أعوام، وإنما سمى العام حجة على اعتبار أن فى كل عام حجة إلى بيت الله الحرام، وهذا قد يصح أن يكون دليلًا على أنهم كانوا يحجون. ويقال فى لغة الشهور: «ذو الحجة»؛ لوقوع حج البيت فى هذا الشهر ..

وإذا ما نظرنا إلى الحديث النبوى الشريف:

«الحج عرفة».

وإلى ما عليه الناس من الاجتماع فى صعيد واحد أرض عرفة وزمن واحد يوم عرفة، ندرك عندئذ الطابع الجماعى وهو ما يحمله الخطاب الجماعى لهذه الشعيرة والعبادة المباركة الوارد فى آياتها، بل إن مناسك الحج وأعماله ترمز بأجمعها إلى السنن الفاعلة فى الاجتماع الإنسانى أو

۱- انظر: مجمع البيان للشيخ الطبرسى: الآية.

۲- هامش تفسير وبيان مفردات القرآن: الآية الكريمة. إعداد د. الحمصى.

۳- هذا تلخيص ما ورد فى مجمع البيان للطبرسى: الآية.

۴- انظر: مسند أحمد و صحيح مسلم.

ص: ۵۷

البشرى. وإذا كان بالإمكان أن يصلى الإنسان أو يصوم وحده فقد لا يكون بالإمكان أن يحج الإنسان وحده أو لا يجد نفسه إلا وهو محاط بالكثير ممن يحجون معه، ولم يحدثنا تاريخ هذه العبادة إلا عن الحج وهم مجتمعون، فالحج عبادة جماعية يرجى أن تحقق آثاراً تتعلق بالمجموع الإنسانى، وهو نفير عام فى جميع المواقف والمناسك فى الإحرام وفى التلبية والطواف والسعى والوقوف فى المشاعر المقدسة عرفات والمزدلفة ومنى والجمرات، يعلن فيه الجميع استجابته لمتطلبات رسالة الإسلام وأحكامه وقيمه، ورفضه لغير الإسلام من الكفر والانحراف ومناهج الشياطين من الإنس والجن.

يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر+: ألا ترى أنّ أهم ما يبدو للإنسان فى هذا المنسك الرائع منسك رمى الجمار هو هذا الرمى المجموعى لرموز الشيطان واحداً بعد الآخر تعبيراً حسياً عن لزوم نفى الشر من الأرض بعد اتباع طريق الخير، والطواف حول رمز الخير الكعبة، والجميل فى الأمر أن المسلم يشعر إذ يطوف حول مركز واحد، ويرمى رموزاً للشر ثلاثة بأن طريق الله واحد فى حين أن طرق الشيطان متعددة، وباستحباب التكبير له عند كل رمية يشترك اللفظ فى الموقف ليؤكد فى شعور الإنسان عهده لله تعالى بأن يرمى الشر والشيطان ولا يتبعهما، ويبقى وفياً لعقيدته بأن الله خالق كل شىء وفوق كل قوة (۱).

إنه بحق مؤتمر إيمانى إنسانى كبير لا نظير له تحت شعار واحد ونداء واحد واستجابة واحدة:

«لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ...».

ويأمل المخلصون من أبناء الإيمان أن يساعد تطور الوعى والمعرفة عند الناس خصوصاً الأمة الإسلامية على إدراك جوهر الحج ومراميه وأهدافه، لتعود فعالية هذه الأمة كما بدأت فى حمل رسالة الإسلام الحق إلى البشرية جمعاء.

هذا فيما يتعلق بالخطاب الأول لسورة الحج يا أَيُّهَا النَّاسُ ... فهو خطاب عام وخطاب الحج خطاب عام أيضاً.

التقوى

إن أول ما بدأت به هذه السورة المباركة: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. وفى الآية الثانية والثلاثين التى تتوسط تقريباً آيات الحج فى هذه السورة ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ وللشعائر تفاسير منها:

إنها معالم دين الله والأعلام التى نصبها لطاعته، ثم اختلف فى ذلك فقيل: هى مناسك الحج كلها.. وقيل: هى البدن.. وقيل: دين الله كله، وتعظيمها التزامها (۲) ..

وسواء هى معالم دين الله أم هى مناسك الحج ومنها البدن أم هى دين الله كله وتعظيمها يعنى التزامها، فإن الغاية منها هو هذا الأمر العظيم والذى هو أساس كل شىء فى حياتنا «التقوى» أن لا يراك الله تعالى حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك. أو احترسوا بطاعته عن عقوبته ... وكل ما نجده فى عرصات وميادين هذه الفريضة من مناسك كلها طاعة لله تعالى ومواضع عبادة تحب السماء وجودنا فيها وتثيبنا عليه.. وهى تؤسس للتقوى وتبنيها فى النفوس وتثبتها فى القلوب عبر طاعة خالصة لأوامر وأحكام على جميع الحجيج الالتزام بها وإلا ترتبت على مخالفتها عقوبات.. إن الحج مدرسة نتيجتها التقوى وهو الفوز الكبير.. وإضافة التقوى إلى القلوب فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ لأن حقيقة التقوى تقوى القلوب ..

وترتبط بين الهدى الذى ينحره الحاج وتقوى القلوب إذ إن التقوى والقول لسيد قطب هى الغاية من مناسك الحج وشعائره. وهذه المناسك والشعائر إن هى إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته. وقد تحمل فى طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم ٧ وما تلاه، وهى ذكريات الطاعة والإنابة والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة، فهى والدعاء والصلاة سواء (۳)..

ثم تأتى التقوى أيضاً فى الآية الخاتمة لآيات الحج، وهى السابعة والثلاثون: لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ ....

وهم حين يؤمرون بنحرها باسم الله لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها، فإن اللحوم والدماء لا تصل إلى الله سبحانه إنما تصل إليه تقوى

القلوب وتوجهاتها لا كما كان مشركو قريش يلطخون أوثانهم وآلهتهم بدماء الأضحيات على طريقة الشرك المنحرفة الغليظة (۴) ...

وجاءت الآيـة تـذكيراً للناس جميعاً وتحـذيراً لهم من هول تلك الساعـة وعظيم حـدوثها وشدة خطرها، وأنه لا بد لهم من ذلك اليوم الرهيب يوم الحساب الأكبر، إنه يوم القيامة. فمن أول آية نقرأ قوله تعالى: إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ.

إن فريضة الحج المباركة فى أغلب مناسكها ومفاصلها تذكرنا مشاهدها بذلك اليوم العظيم وهذه المشاهد تجسّد لنا العلاقة بين الحج والحديث عن القيامة..

فلباس الإحرام والغسل الذى قبله يذكرنا برحلة الموت وقد بدأت بالتغسيل ثم التكفين.. لباس الحج البسيط يذكرنا بالكفن الذى يلبس للموتى ...

يذكرنا بأننا لا نخرج من الدنيا إلا بهاتين القطعتين.. وندع كل شـيء خلف ظهورنا، كل ما جهدنا أنفسنا للحصول عليه وكل ما اختلفنا من أجله أو تنازعنا عليه أوتقاتلنا بسببه وتقاطعنا نذره وراءنا..

إن الحج ولباسه يطلب منا العودة إلى حيث البداية، بل إن الحاج يتمثل الحالة التى كانت أولًا من البساطة فى المظهر واللباس..

۱- انظر: نظام العبادات فى الإسلام. الحج.

۲- انظر: مجمع البيان: الآية.

۳- انظر: فى ظلال القرآن: الآية.

۴- المصدر نفسه.

ص: ۵۸

وزحمة الحج والناس يملأون أرجاء أرض المناسك وكلهم متجهون إلى مكان واحد فى لباس واحد فى حر الشمس، والنزول من عرفة والنفرة من مزدلفة والتوجه لرمى الجمرات تذكرنا بزحمة ذلك اليوم يوم القيامة. الشمس الضاربة المحرقة والحر الشديد والعرق والزحام الخانق وما يترتب على هذا كله من متاعب وحرج وضيق و أذى.. يذكرنا ببأس يوم القيامة وهوله..

والطواف بالبيت المبارك والسعى بين الصفا والمروة وما يرافق ذلك من الزحام الخانق والضغط الشديد، والانتظار الطويل والصبر والتحمل والتقيد بالتعليمات الخاصة بكل منسك والابتعاد عما يسبب الأذى للآخرين ومراعاة مريضهم وكبيرهم وصغيرهم.. يذكرنا بيوم القيامة .. بل إن القيامة لتتجسّم بمثل هذه المواقف المهابة فى عمرة الحج ومتعته حيث الصحارى المملوءة بالحجيج والمشاعر المكتظة بهم ... تعلو أجسامهم ثياب بيض كالأكفان وتصهرهم أشعة الشمس وترى وجوههم تفيض عرقاً وأجسامهم كادحة وقد عنت للحى القيوم.. كما هى حالتهم حينما يقفون بين يديه تعالى للحساب وهم ينظرون إلى رحمته ولطفه بهم وهم شعث غبر، قد أخذ الجهد والإرهاق منهم مأخذه والعرق يتصبب منهم ينتظرون مغفرته ورضوانه وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (۱) منتشراً يخشون أن يصيبهم بشرّه وضرره ويختم أمرهم إلى نار وقودها الناس والحجارة.. لكن هذه العبادة والصدق فيها تعطى الأمل لهؤلاء وهم يجوبون عرصاتها وهم يحرمون يلبون يطوفون يصلون يسعون يقصرون يدعون يذبحون يحلقون يرجمون ... فلا يقنطون كما تعطيهم رحمة الله تعالى هناك فى عرصات يوم القيامة الأمل والرجاء والبشرى بالمغفرة والرضوان والجنة التى وعدهم إياها رب العزة رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَ لا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ وحاشا لله أن يخلف ميعاده لأوليائه ..

عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ۹ يقول:

«إن الله تعالى يباهى بأهل عرفات الملائكة يقول: يا ملائكتى انظروا إلى عبادى شعثاً غبراً أقبلوا يضربون إلى من كل فج عميق فأشهدهم أنى قد أجبت دعاءهم وشفعت رغبتهم ووهبت مسيأهم لمحسنهم وأعطيت محسنهم جميع ما سألونى غير التبعات التى بينهم ...».

أو كما فى رواية أخرى عن رسول الله ۹ يذكرها الطبرانى: «أما خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام، فإن لك بكل وطأة تطؤها راحلتك، يكتب الله لك بها حسنة، ويمحو عنك بها سيئة. وأما وقوفك بعرفة، إن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا، فيباهى بهم الملائكة، فيقول: هؤلاء عبادى، جاءونى شعثاً غبراً من كل فج عميق، يرجون رحمتى، ويخافون عذابى ولم يرونى، فكيف لو رأونى؟ ...».

جاء ذلك بسبب الدعاء المتواصل والدموع المنحدرة والقلوب المشدودة إلى بارئها والأعناق المشرئبة إلى ربها.. آلاف يتضرعون إلى الله يتوسلون إليه، أن ينجيهم من هول المطلع ونداؤهم يعلو يؤكدون استجابتهم: «لبيك اللهم لبيك ... لبيك لا شريك لك لبيك ...». يعترفون له أن كل شىء فانٍ إلا وجهك الكريم وأن كل شىء هو ملكك وحدك لا شريك لك ليست النعمة و المال إلا لك وليست القوة إلا بك وليس السلطان إلا لك وإنك المالك الحقيقى الذى يستوجب منا الحمد و الشكر دون أن يكون هناك أحد سواك.. وهو مشهد يحكى لنا وقوفنا بين يديه تعالى وحده وحده.

يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (۲).

وأكثر الروايات تؤكد أن التلبية تعبر عن استجابة بشرية كبرى لنداء تاريخى عظيم طلب من إبراهيم شيخ الموحدين أن يعلنه فى الأرض وأعطى وعداً بأن يستجيب له المؤمنون. وهو ما وقع بالفعل منذ أول أذان بالحج وإلى يومنا هذا ..

أما مشاهد ذلك اليوم ووصف أهواله فنترك الآية تصوره لنا وهل هناك تصوير أبلغ منها وأدق وأصدق حتى كأنك تراها أمام عينيك:

يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللهِ

شَدِيدٌ.

وما مشاهد الحج إلا صورة عملية ومصغرة نحياها كل عام من مشاهد القيامة.

ثم تنتقل الآيات إلى البعث يوم الفزع الأكبر حين نفخة البعث لتقرّر بلا أدنى شك ولا ريب أن تلك الساعة واقعة لا محالة، وأن الله العزيز القدير سيبعث الموتى ويخرجهم من أماكنهم التى طال انتظارهم فيها والتراب يعلو وجوههم وأجسادهم.

وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ.

لتذكرنا أن أمر الساعة والبعث واقع لا محالة، وإن ارتبنا فى قدرة الله تعالى أن يبعث أشلاءنا وهى رمة أو رميم فإن الله القادر يذكرنا أن أصلنا كان من تراب، وأن خلقنا الأول كان من ذلك التراب وأننا أبناء الأرض التى تكوّنا من ترابها ومنها نشأنا وكذلك عليها عشنا ومن عناصرها استفدنا وما زلنا ..

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ.

إن ارتابكم الشك فى بعثكم ونشوركم فإنا خلقنا أباكم وهو آدم ۷ من تراب، فمن قدر على أن يصيّر التراب بشراً سوياً حياً فى الابتداء، قدر على أن يحيى العظام وهى رميم ويعيد الأموات ويحشرهم إليه.. أيها الناس وإن من كان قادراً على الابتداء فهو قادر على الإعادة ..

وفى الحج أيضاً، تذكرة لنا فى الدنيا عن ذلك اليوم عندما تنظر لنفسك بعد يوم أو يومين من ارتداء ملابس الإحرام، ترى أنك أصبحت شعثاً وقد علاك التراب والغبرة. فإذا نويت المبيت فى مزدلفة، ترى الكثير من الناس تعباً، لا بل كأنه من التعب والمشقة والإعياء ميت فعلًا. فمنظر

۱- الإنسان: ۷.

۲- الشعراء: ۸۸- ۸۹.

ص: ۵۹

الحجيج فى مزدلفة وهم نيام بعد وقوفهم فى عرفة وأداء أعمالها ثم إفاضتهم منها بذلك الزحام الشديد وعليهم آثار التعب ويعلوهم التراب والغبار والضنك. وما أن يؤذن لصلاة الصبح فى المزدلفة حتى تراهم يقومون وينفضون عنهم التراب وينشطون من جديد كما لو أنهم بعثوا من قبورهم يوم البعث. نعم إذا أتى وقت الفجر يستيقظ الناس كأنهم يبعثون من القبور: الكل بالثياب البيض يتحرك هنا وهناك يستعد إلى حركة أخرى وهى رمى الجمرات وما يرافقها من أعمال منى ...

لذلك تأتى الآية السابعة لتذكرنا بالبعث من القبور:

وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

وهكذا نرى أول أثر من آثار الحج فى تربية الأمة: تربيتها على اليوم الآخر والاستعداد له، بأن يعيش أفراد الأمة بعض لحظاته ومعالمه العملية أثناء أيام الحج..

الكل ساجد لله

ومن روعة الحج أنه يجعلك تستشعر أن الكون كله عبد لله وأنك خاضع لله مع من حولك. ففى يوم عرفة تشعر أنك لست وحدك من يسجد لله فى هذا الكون ويدعوه، بل تشعر أن كل شىء ساجد فالخيمة التى تستظل تحتها ساجدة، وأن جبل عرفات الذى تعلوه ساجد، بل الكون كله ساجد، فتنضم أنت أيها الإنسان الضعيف إلى هذه المخلوقات وتشاركها فى سجودها وخضوعها لله تعالى. وهذا ما نراه بوضوح فى الآية ۱۸:

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَ مَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ.

فى عرفة الجميع فى الحج يدعون إلهاً واحداً حتى الشجر والدواب والطير والسموات والأرض كلهم يدعون ربهم ويسبحونه لكن لا نفقه تسبيحهم..

.. وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ....

إن الحج يذكرنا بالعبودية الخالصة لله تعالى فهذه حياة الأمة المسلمة تقع بين سجدتين فى سورة الحج، فأول سورة نزلت فيها سجدة مع بداية البعثة كانت سورة العلق، التى جاء فيها قوله تعالى:

كَلَّا لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ بينما آخر سورة نزلت فيها سجدة كانت سورة الحج، التى نزلت مع نهاية البعثة، والتى ترى فيها قوله تعالى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

والفرق بين السجدتين يظهر النقلة العظيمة التى انتقلتها الأمة، من السجدة الأولى الموجهة للنبى ۹ وحده فى سورة العلق، إلى السجدة الأخيرة التى وجهت للأمة كلها فى سورة الحج. فهى نقلة نوعية فى فترة محدودة، من النبى وحده فى غار حراء يعبد الله تعالى ويتفكر فى ملكوته وفى أوضاع قومه وما آلت إليه أمورهم من عبادة الأصنام والأوثان والظلم والطغيان والتسلط والقهر والحروب، فاعتزلهم وما يعبدون، فنقلوا نقلة نوعية إلى أمة مؤمنة عابدة مجاهدة ..

ثم تنتقل الآيات (۲۶- ۳۷) إلى ذكر مناسك الحج المختلفة، لتأتى خلالها الآية المحورية: ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ.

وإذا عدنا إلى سورة البقرة إلى الآية ۱۹۷ التى تنص على أن خير ما يتزود به العبد المؤمن لآخرته هو التقوى ... وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ خصوصاً إذا عرفنا أن العرب تطلق كلمة الزاد على طعام السفر لا طعام الحضر، ولهذ نجد الإمام علياً ۷ يتأوه:

«آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق وهول المطلع ..».

وقد جاء هذا بعد أن نفت الآية نفسها كلًا من الرفث و الفسوق والجدال، وأن لا تكون هذه الأمور حاضرة فى ساحة الحج لما تسببه من إفساد للحج وآثام ومخالفات حيث قالت:

فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِى الْحَجِّ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِى الأَلْبابِ.

ولورود هذه الكلمة فى سورة الحج نحن نقف فقط عند (ولا جدال) الذى يعنى فيما يعنيه أنه لا خصام فى الحج ولا مماراة فى الحج ولا ملاحاة فى الحج ولا مشادة فى الحج؛ لما فيه من مخالفة للتقوى وإفساد لهذا العمل العظيم.. إذن فلا جدال فى الحج. الجدال المنبوذ الذى يترك البغضاء والحقد فى القلوب والسوء فى العلاقات والغضب الذى تمتلأ به النفوس ...

والجدال مصدر جادل.. والجدال: أشد الخصام وهو مشتق من الجدالة، وهى الأرض فكأن كل واحد من الخصمين أو المتجادلين يقاوم صاحبه حتى يغلبه فيكون كمن ضرب به الجدالة أو يرميه بالجدالة قال الشاعر:

ص: ۶۰

قد أركب الآلة بعد الاله

وأترك العاجز بالجداله

منعفراً ليس له محاله

ومنه الأجدل: الصقر لشدته. والجدل فتل الحبل، ومنه زمام مجدول أى محكم الفتل (۱).

وتأتى الآيـة نفسـها لتحبب إلينا فعل الجميل عبر: وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ ثم راحت الآيـة تـدعو الجميع إلى الزاد الأكبر النافع عبر: وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ.

ومن اللافت أن سورة الحج تتعرض إلى الجدال الخالى من الدليل والمعرفة.. جدال التطاول المجرد من البرهان، جدال الضلال والانحراف المتبع لشيطان عاتٍ متبجح بعيد عن الحق مخالف له.. وقد جاء هذا النوع من الجدال مرتين فى الآيـة الثالثة وفى الآية الثامنة من هذه السورة:

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ ...

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ ...

يقول صاحب مجمع البيان فى الآيـة الأولى التى تحمل رقم ۳: هذا إخبار عن المشركين الذين يخاصمون فى توحيد الله سبحانه ونفى الشرك عنه بغير علم منهم، بل للجهل المحض وقيل: إن المراد به النضر بن الحرث بأنه كان كثير الجدال وكان يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، وينكر البعث ...

وكأن السورة باعتبارها سورة الحج تحذرنا من الجدال وتبين خطورته على هذه الفريضة وعلى من يؤديها وإن أخذ شكلًا آخر ومنحى آخر، وأنه منبوذ فى كل الأوقات ومحرم إلا أنه فى موسم الحج أكثر خطورة وأشد حرمة حتى لا يشغلنا عن مناسكه وأدائها بالشكل السليم وحتى لا يمنعنا من الاستزادة من معانى الحج الجميلة ولا يبعدنا عن قيمها وحلاوتها شيء.. ولهذا جاءت الآية: فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا ... وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِّ.

إن مناسك الحج تعدّ غاية الطاعة لله تعالى.. إنك فى خلال الحج، تنفذ أوامر وتعليمات محددة ومشددة من الله تعالى، إن لم تنفذها بدقة تفسد الحج. فالمسلم فى الحج يطوف سبع مرات حول حجر، ويسعى سبع مرات بين حجرين الصفا والمروة، ثم عند رمى الجمرات، فهو يرمى بحجر على حجر ويكبر مع كل حصاة يرميها ... فهو يطبق مناسك عديدة قد لا يفهم الحكمة من ورائها، لكنه ينفذها فقط طاعة لله تعالى، واستسلاماً لأوامره، وانقياداً لأحكامه مع صبر رائع وتحمل كبير لا يداخله ملل ولا ريب.. وفى هذا قمة العبودية والطاعة لله تعالى، وقد شاركت الألفاظ الأعمال، ففى كل موقف كان اللفظ يشترك مع العمل والحركة توكيداً للطاعة والتزاماً بعهده لله تعالى، بأن يرمى الشر والشيطان ولا يتبعهما ويبقى وفياً لعقيدته بأن الله خالق كل شيء وفوق كل قوة.. إن الحج باختصار شديد وبنظرة إجمالية وبنظرة تفصيلية يشكل أروع الأساليب التربوية التى جاء بها الإسلام لتهذيب النفوس وتأكيد سيرها على خط التكامل.. إن الحاج يطوف بتلك المشاهد يستقرؤها ويتملّى فيها ويعاهدها على البقاء والثبات ويرجم كل ما عداها شياطين الإنس والجن ..

إن الحج يعد دورة تدريبية لأداء فريضة أخرى من فرائض الإسلام تحتاج إلى الصبر والحكمة والتحمل، إنه الجهاد:

والمتدبر لكتاب الله العزيز يدرك أن مفهوم الجهاد يشمل كل جهد يبذل من أجل إعلاء كلمة لا إله إلا الله ..

الجهاد فى سبيل الله، الجهاد الذى يستوجب الطاعة وبدونها لا يؤدى الجهاد دوره ولا ينتج لنا نتائجه المرجوة.

لذلك تأتى بعد آيات الحج مباشرة آيات الجهاد فى سبيل الله، فنلاحظ أن الحديث حول الحج فى سورة الحج يبدأ بالآية السادسة والعشرين وينتهى بالآية السابعة والثلاثين، ومن اللافت للانتباه أن الآية التى تليها مباشرة هى:

إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (۲).

تمهيداً كما يبدو للإذن بالقتال وقد جاء لأول مرة فى التشريع الإسلامى:

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (۳).

سبب نزول آية الإذن بالقتال

قال المفسرون: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ۹ فلا يزالون يجيئون من مضروب ومشجوج فشكوهم إلى رسول الله ۹ فيقول لهم: اصبروا فإنى لم أومر بالقتال، حتى هاجر رسول الله ۹ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال ابن عباس: لما أخرج رسول الله ۹ من مكة قال أبو بكر: إنا لله لنهلكن فأنزل الله تعالى: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ الآية. قال أبو بكر: فعرفت أنه سيكون قتال.

۱- انظر: الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبى، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى، الآية.

۲- الحج: ۳۸.

۳- الحج: ۳۹.

ص: ۶۱

وفى مجمع البيان: وهى أول آية نزلت فى القتال (۱).

ومن هم الذين ينص القرآن على أنهم مظلومون؟

إنهم الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ (۲).

وفى الذين أخرجوا احتمالان كما يذكر صاحب مجمع البيان:

أخرجوا إلى المدينة فتكون الآية مدنية. ويحتمل إلى الحبشة فتكون الآية مكية، وذلك بأنهم تعرضوا لهم بالأذى حتى اضطروا إلى الخروج ... لم يخرجوا من ديارهم إلا- لقولهم: ربنا الله وحده، وقال أبو جعفر ۷: نزلت فى المهاجرين وجرت فى آل محمد: الذين أخرجوا من ديارهم وأخيفوا..

ثم يأتى الكلام عن سنّة التدافع التى شرعت للدفاع عن الحق وحفظ معالمه:

... وَ لَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.

إن قوى الشر والضلال تعمل فى هذه الأرض، والمعركة بين الخير والشر والهدى والضلال والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان.. والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان والبيع للنصارى عامة وهى أوسع من الصوامع، والصلوات أماكن العبادة لليهود والمساجد أماكن العبادة للمسلمين، وهى كلها معرضة للهدم على قداستها وتخصيصها لعبادة الله لا يشفع لها فى نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض أى دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها ويعتدون على أهلها (۳)..

وبعد وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ هذا وعد من الله بأنه سينصر من ينصر دينه وشريعته إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذى لا يتخلف يأتى لأهل الصلاح فى الأرض الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (۴).

«والتمكين إعطاء ما يصح معه الفعل ...» والقول لصاحب مجمع البيان.

فجهاد معسكر الإيمان يكون لأهداف سامية تتعلق برفع الظلم، وإحقاق الحق، وإصلاح الأرض. ولا يجوز أن يكون من أجل التسلط والاستضعاف.

أمّا خاتمة سورة الحج فهى الآية ۷۸:

جاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ.

لقد جاءت آيات الجهاد فى السورة بعد آيات الحج لأن الحج تدريب أساسى وقاس على الجهاد فى سبيل الله، لأنه عبارة عن حركة شاقة وانتقال من مكان إلى آخر، والحاج كالمجاهد تماماً كثير الارتحال بين الأماكن والمناسك دون أن يعرف الاستقرار، وفى هذا تعب ومشقة والتزام بأوقات ومشاعر أمر بها الله تعالى وعلمنا إياها رسولنا الكريم ۹ ..

وختاماً إن من يريد أداء هذه الفريضة العظيمة، أو على الأقل العمرة، عليه أن يعدّ نفسه ويربيها على المعانى التى أتت فى هذه السورة الكريمة. وأن يقرأ سورة الحج بنية من يريد أن يستفيد من دروس الحج ومعانيه، حتى لو لم تتح له الفرصة بعد.

وتلك هى ملامح قراءة بعض آيات هذه السورة المباركة وارتباطها ببعضها وبأنشطة فريضة الحج المعطاء.

۱- انظر: الواحدی فی أسباب النزول لمزید من الاطلاع.

۲- الحج: ۴۰.

۳- انظر: فی ظلال القرآن: الآیة.

۴- الحج: ۴۱.

ص: ۶۲

ص: ۶۳

فقه الحج الضرورات و الحاجات (۱)

حیدر حب الله

تمهید

تعدّ فریضة الحج من الفرائض الکبری فی الإسلام، و هی أحد الأرکان الخمسة التی بنی علیها هذا الدین، فقد جاء فی الروایة التی تعدّدت طرقها عند السنّة و الشیعة: «بنی الإسلام علی خمس: الصلاة، و الزکاة، و الحج، والصوم، والولایة ...» (۱).

أو «بنی الإسلام علی خمس: شهادة أن لا إله إلّا الله و أن محمداً رسول الله، و إقام الصلاة، وإیتاء الزکاة، والحج، و صوم رمضان» (۲).

ومهما اختلفت صیغ هذا الحدیث عند السنّة و الشیعة، و هو حدیث دعائم الإسلام، فإن الحج إلی بیت الله الحرام، یمثل القاسم المشترک بین صیغه إلی جانب بعض الفرائض الأخری، و هذا ما یعطی للحج أهمیة إضافیة، إذ تجعله بمثابة العمود الذی یقوم علیه البناء، کما یقوم علی الشهادتین و الصلاة والولایة و ...

و من منطلق الأهمیة التی یحظی بها الحج فی النصوص الإسلامیة و التراث الإسلامی، یبدو من الضروری أن یکون للفقه الإسلامی دوره فی الاهتمام بهذه الفریضة العظیمة، و أن تکون للفقه مساهمةتعطی هذه الفریضة مکانتها الطبیعیة التی یخبرنا عنها حدیث الدعائم، کما نفهمها قبل هذا الحدیث من ذیل الآیة الکریمة التی تشرّع هذه الفریضة، وحیث قال تعالی: (... وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعالَمِینَ) (۳).

وکأننی أرید هنا أن أضع میزاناً لقیمة فقه الحج الذی یمارسه الفقیه المسلم؛ فإذا قدّم الفقه حجاً مفرّغاً من کل قیمة یساعد علی تهاوی الإسلام و المسلمین، و یعزّز من تخلّف الأمة الإسلامیة؛ فلن یکون هذا الحج هو الحج الإبراهیمی المحمدی؛ لأن هذه الحالة التی یعانی منها لن تضعه فی مصاف العبادات التی یقوم علیها الإسلام الذی قدّم الإنسان و حرّره، وصنع منه حضارةً کبری فی تاریخ الإنسانیة؛ و هذا میزان و مؤشر لصواب حرکة الفقه الإسلامی فی نتائجه.

ونحاول هنا أن نتحدّث عن حاجات الدراسات الحجیة المعاصرة؛ و نقدّم بعض الملاحظات العابرة، رغبةً فی المساهمة بتفعیل دور هذه الدراسات لخدمة الأهداف الکبری للشریعة الإسلامیة.

الحج وفقه النوازل والمستحدثات

یواجه الفقه الإسلامی علی الدوام طوارئ و مستجدات تحصل فی الواقع؛ و تلحّ علیه أن یجیب عنها، و تسمّی هذه المستجدات فی الفقه الشیعی بمستحدثات المسائل، فیما یغلب فی الفقه السنی تسمیتها بفقه النوازل، و فی العصر الحدیث و نتیجة التحوّلات الکبری فی العالم علی مختلف الصعد و المجالات، ظهرت مستحدثات کثیرة، ولکثرتها تکاد تکون أرهقت الفقه الإسلامی و أتعبته، ففی المجال الطبی تظهر کل سنة وقائع جدیدة تطالب الفقهاء بالجواب عنها، و فی المجال الاقتصادی لاتکاد تقف کرة الثلج المتدحرجة لتکبر یوماً بعد یوم فی حجمها وإیقاعها و هکذا ...

و لم یکن الحج و العمرة بمعزل عن هذا الواقع الجدید، فالکثرة السکانیة فی العالم فرضت واقعاً جدیداً علی الحج، وحاجات حمایة الحجیج استدعت هی الأخری جملة من الأحداث التی لم تکن من قبل و هکذا ... من هنا دخل فقه الحج إطار المستحدثات و ظهرت فیه مسائل من نوع الجمرات، و حدود الذبح، و الإحرام من الطائرة، و غیر ذلک الکثیر.

وهذا یعنی لیس أن یقوم الفقیه بالجواب عن الاستفتاء فی هذا المستجدّ الحادث فحسب، بل الأهم من ذلک أن تقدّم دراسات حقیقیة تکشف عن اهتمام جاد بهذه الموضوعات، و إذا قلت: «اهتمام جاد» فقد أکون تسامحت فی التعبیر، حیث کان المقصود ما هو أزید من ذلک، وهو إعطاء هذا النوع من الموضوعات الأولویة الأولی فی الأبحاث الفقهیة المتخصّصة، فإذا استجدّ أن وسّع المسعی کان

من المطلوب التسارع لتوجيه دعوات إلى الفقهاء والفضلاء كى يلتقوا لتقديم دراسات تستعين بوثائق التاريخ و الجغرافيا كى ينجم عن تضارب الآراء فى هذه الجلسات و عن عصف الأفكار شىء مركز مدروس، و لا يكتفى بأن يقوم فقيه واحد أو عالم واحد هنا أو هناك بكتابة دراسة فى كتاب أو مجلّة، فإذا كان هذا العالم جزاه الله خيراً قد قام بواجبه فإن المطلوب أن تشكّل لجان تتابع مستجدات المسائل فى فقه الحج، كى تعرضها بشكل دورى متواصل على الفقهاء والمختصّين ليساهموا فى بحثها بشكل جماعى؛ لأن هذا الشكل يساعد على تنضيج الأفكار و رقيها.

ما هى أهمية أن أجلس عشر أو عشرين سنة أدرّس فقه الحج و فى داخل هذا الدرس التكرار للماضى و البحث فى قضايا لا تأخذ أولويةً اليوم؟! فلماذا لا تكون دروسنا قائمة على مستجدات المسائل، ليكون هناك الجواب العلمى المدروس لكل نازلةٍ فى أقرب وقت ممكن؟ فلو سرنا اليوم فى

۱- انظر هذا الخبر بصيغه فى: المحاسن ۲۸۶: ۱- ۲۸۷؛ والكافى ۱۸: ۲- ۲۱، ۳۱؛ و ۶۲: ۴؛ و دعائم الإسلام ۲: ۱؛ و أمالى الصدوق: ۳۴۰؛ و الخصال: ۲۷۷- ۲۷۸، ۴۴۷؛ و فضائل الأشهر الثلاثة: ۸۶- ۸۷، ۱۱۹؛ و من لايحضره الفقيه ۷۴: ۲؛ و تهذيب الأحكام ۱۵۱: ۴ و روضة الواعظين: ۴۲؛ و شرح الأخبار ۲۷۷: ۲؛ و أمالى المفيد: ۳۵۳ و ...

۲- انظر صيغ هذا الخبر عند أهل السنّة فى: صحيح البخارى ۸: ۱؛ و صحيح مسلم ۳۴: ۱- ۳۵؛ وسنن الترمذى ۱۱۹: ۴؛ و سنن النسائى ۱۰۷: ۸- ۱۰۸؛ و سنن البيهقى ۳۵۸: ۱، و ۸۱: ۴، ۱۹۹؛ ومسند ابن حنبل ۲۶: ۲، ۹۳ و ...

۳- آل عمران: ۹۷.

ص: ۶۴

الکثیر من الأبحاث الفقهیة عند المذاهب الإسلامیة سنجد حجماً لایستهان به من الدراسات المکرورة، فیما دراسات هامة ما تزال غائبة أو حجم المساهمة فیها أقلّ.

لو أخذنا مسألة ذبائح منی وهی مسألة هامة جداً الیوم، وصرفنا النظر عن الفتاوی، فکم دراسة جادة قدّمت فی هذا المجال؟ فربما تجد ما کتب فی حج الصبی أضعاف ما کتب فی هذا الموضوع!

من هنا الحاجة إلی تشکیل حلقات دائمة تعرض علیها المستجدات فی فقه الحج مستعینة بالخبراء، وتکون وظیفتها وفی أقرب فرصة ممکنة إصدار مجموعة دراسات فی هذا الأمر المستجدّ، وخلق جوّ فکری وعلمی یضاعف من الاهتمام بهذه الموضوعات؛ علّنا بهذه الطریقة نستطیع أن نعطی للفقه بحقّ وجدارة صفة المواکبة للعصر فی بعض أشکالها.

الحج بین النظریة التجریدیة و المعایشة المیدانیة

کثیراً ما یجلس الباحث حول الحج سواء علی صعید فقه الحج أمغیره- یجلس فی بیته و یبدأ بدراسة تطال هذا الموضوع أو ذاک فیما یخصّ مکة أو المدینة أو الحج أو العمرة أو الزیارة أو ... و یبدأ یغوص فی النصوص أو الوثائق التی بین یدیه، دون أن یعایش المناخ المیدانی لهذه النصوص، و هذا ما قد یورّطه فی أحکام تجریدیة و مواقف غیر واقعیة ناتجة عن غیابه عن مسرح الأحداث، و لو أنّه اقترب قلیلًا من أرض الواقع لربما تبلورت لدیه تصوّرات مختلفة أو تراءت له احتمالات فی تفسیر النصوص ما کان لیلتفت إلیها لولا ذلک.

وفی هذا السیاق، یتناقل أن بعض الفقهاء الکبار غیّر رأیه فی بعض الموضوعات الفقهیة والنتائج الاجتهادیة التی کان توصّل إلیها بعدما سافر إلی الحج بنفسه؛ لأنه رأی علی أرض الواقع بعض المعطیات التی ترکت أثرها فی تعدیل فهمه للنص أو لظرف صدوره.

والسبب فی هذه الظاهرة فی کثیر من الأحیان أن الباحث أو الفقیه یحاول تصوّر النصوص کما لها من تطبیق فی عصره بحسب طبیعة المحیط الذی یعیشه؛ فیعمّم هذه الصورة إلی سائر الأماکن و الأزمنة بظنّ التشابه أو عدم وجود عنصر إضافی قد یغیّر الصورة، أما عندما یعایش النص فی المناخ نفسه الذی جاءت فیه النصوص أو یحاول الاقتراب منه قدر الإمکان فإن رؤیته للحدث أو الصورة ستکون أقرب للواقع.

ولکی أقترب من طرح الموضوع، آخذ الفکرة التی کان یتحدّث عنها سید قطب (۱۹۶۷ م) سیما عند تفسیره لآیة التفقه فی الدین: (فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ کُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِیَتَفَقَّهُوا فِی الدِّینِ وَ لِیُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَیْهِمْ لَعَلَّهُمْ یَحْذَرُونَ) (التوبة: ۱۲۲)

إن سید قطب یری أن الجهاد ساحة تفقّه حقیقی؛ إذ فی الجهاد یری الإنسان العنایة الإلهیة، أی بهذا السبیل یفهم الدین و یری التجلیات الإلهیة فیه، لهذا لا یقدر علی تفسیر القرآن عند سید قطب و العلامة فضل الله إلا الحرکیون (۱)، أی أولئک الذین عایشوا الواقع و خاضوا التجارب واقتربوا من طبیعة الحیاة بألوانها وتمظهراتها لیفهموا المناخ الذی جاء هذا النص أو ذاک لیحلّ مشکلةً فیه أو یرفع التباساً ما.

إنّ هذه الفکرة صحیحة إلی قدر کبیر؛ فالإنسان الذی لایفهم معنی السیاسة و لایعرف طبیعة الملک والإدارة لایقدر علی فهم النصوص السیاسیة فی الکتاب و السنّة کما یفهمها الفقیه و المفسّر الذی یعایش واقع الحیاة السیاسیة و إدارة البلاد أو یقترب من ذلک إلی حدّ بعید، أما الفقیه الذی یرید أن یضع حلولًا للاقتصاد و یدیر بالفقه الحیاة الاقتصادیة للناس، ویظنّ أنّه بجلوسه فی البیت وتشقیقه الشقوق الافتراضیة للمسائل والإجابة عن کل افتراض بشکل تجریدی ... یستطیع أن یقدّم أجوبة الفقه الإسلامی لأعقد القضایا، فهو غیر مصیب فی تصوّراته، و التجربة کفیلة بتصویب أخطائه.

إذن، فالذی یبدو لنا أن فقه الحج و فقیه الحج یجب أن یقترب من الواقع و یدرسا الحج والواقع الجغرافی والمناخی والتاریخی والعرفی و ... للمنطقة هناک؛ لأن ذلک یساعد علی اقتراب الفقه من أرض الواقع، و لتتسم أجوبته بالواقعیة لاتتصادم مع الواقع و حقائقه.

حج فقهی أم حج روحی؟!

قد یوحی هذا العنوان بأن الفقه یناقض الروح و الروحانیة، أو یختلف عنهما، فهناک حج فقهی و هناک حج روحی، ولکن الذی نریده هنا أن نثبت أن الحج الفقهی یجب أن یکون روحیاً تربویاً تطهیریاً، وأن الحج الروحی والتطهیری الذی یعید الإنسان إلی وطنه کیوم ولدته أمه ... هذا الحج لایتجاوز الضوابط الفقهیة و الشرعیة ولا یستهین بها، ولایتخطاها.

إننا نجد علی أرض الواقع ظاهرتین نعتقد أنه یجب تصحیحهما:

الظاهرة الأولی: أشخاص یذهبون للحج و العمرة و یحاولون الاقتراب من المدرسة الروحیة لهذه الفریضة العظیمة، فیملؤون أوقاتهم بالدعاء والصلاة و التوبة والتطهّر، صادقین مخلصین، یهدفون بفعلهم هذا أن یرتقوا فی مدارج الروحانیة أو أن یشطبوا علی تاریخ حیاتهم السابق الملیء بالذنوب والمعاصی، و کثیر من عامة الناس یعیشون قدراً من هذا الجو الروحی فی رحلة الحج، ویحاولون أن یعیشوا معانی الحج الروحانیة، لکن المشکلة أنهم لا یراعون لسبب أو لآخر الأحکام الشرعیة للحج، فبعضهم یعیش حالة جهل حقیقیة بفقه الحج؛ ولهذا ربما یقع هؤلاء فی أحیان کثیرة فی أمور توجب بطلان الحج نفسه، أو یترتب علیها کفارات شرعیة یجب أداؤها، من هنا کان من الضروری ترشید عمل الناس من خلال نشر ثقافة التفقه فی أحکام الحج، کی یضمن هؤلاء أن یکون الحج صحیحاً مجزءاً و فی الوقت عینه مقبولًا عند الله تعالی.

۱- انظر: سید قطب، فی ظلال القرآن ۱۷۳۴: ۳- ۱۷۳۶، دار الشروق، بیروت والقاهرة، الطبعة العاشرة، ۱۹۸۲ م.

ص: ۶۵

الظاهرة الثانية: وفی مقابل الحالة الأولی المتقدمة نجد الكثير من الناس سيما من المتشرّعة والمؤمنين الملتزمين بخط الإسلام يغرقون فی متابعة الجانب الفقهی لقضايا الحج حتی تراه يغيب عن روح الحج و عن رسالته المعنوية الكبری؛ ففی الطواف تجده يعيش عقدة أخذ الكعبة علی يساره، و يركز كل همّه و طاقاته علی أن لاينحرف كتفه الأيسر عن الكعبة الشريفة، و لا يخرج من هذا الهم و الغم إلا فی الشوط السابع؛ حيث يكون قد أتم أعمال الطواف، ليبتلی بهمّ آخر حيث يصارع فی عدم الالتفات المخل عن الصفا أو المروة أثناءالسعی، و هكذا فی سائر المناسك.

إن هذا الاستغراق فی البعد الفقهی للحج علی حساب البُعد الروحی، يشبه ما يتحدّث عنه علماء الأخلاق والعرفان عن الاستغراق فی مسائل تجويد القرآن والاهتمام بمخارج الحروف فی الصلاة علی حساب حضور القلب، و كأن عمود الدين يكمن فی التلفظ الصحيح فقط بالكلمات و فی جعل تركيز الإنسان كلّه فی كيفية إخراج الألفاظ من مخارجها وما شاكل ذلك، وقد أشار الإمام الخمينی (۱۴۱۰ ه-) إلی هذا الأمر فی إفاداته الأخلاقية والعرفانية (۱).

وإذا أردنا أن نتعمّق أكثر فی هذه النقطة، نحاول أن ندخل إلی الهيكلية التی جاءت فی الفقه الإسلامی لأداء فريضة الحج؛ ففی الفقه الإسلامی بمذاهبه اليوم، وعلی غالب الآراء، يمكن للإنسان أن يذهب إلی الحج دون أن يتزوّد روحياً و معنوياً منه؛ فلا يجب حضور القلب فی أیّ فعلٍ من أفعال الحج، ويمكن للحاج أن ينام طيلة الوقت فی عرفة والمزدلفة و منی؛ بل بإمكانه أن يقضی وقته بالمسامرات والضحك واللهو و اللعب والتسوّق دون أن يبطل حجه أو حتی أن ينخدش ... إن خلوّ العديد من الكتب الفقهية من البُعد الروحی للحج و من ثم عدم تحرّك الرسائل العملية لتنشيط هذا البعد الهام، ترك و يترك الكثير من الأثر علی أن يصبح المتشرّعة والمتديّنون مستغرقين فی قضايا من نوع وضع الكعبة علی اليسار دائماً و أمثال ذلك.

بينما لو نظرنا إلی القرآن الكريم لوجدنا التركيز علی ذكر الله تعالی فی الحج كذكرنا آباءنا أو أشدّ ذكراً، و قد استعرضنا هذا الموضوع فی دراسة فقهية مستقلة متواضعة لتأكيد أن الذكر الكثير لله تعالی فی الحج فريضة و واجب، وعلی الإنسان أن يعيش الذكر الإلهی فی هذا السفر العظيم إلی الله تعالی ... دون أن يكلّف الناس ما لايطيقون أو أن نطلب منهم أن يصبحوا عرفاء وفلاسفة فی عيشهم للحج و دركهم لرسالته و معانيه السامية (۲).

من هنا، تكمن الضرورة فی إعادة ترتيب البحث الفقهی والرسالة العملية الفقهية بما يخدم مقاصد الحج و رسالته المعنوية الكبری، و أن لا نضع هذه المسؤولية فقط علی عاتق علماء الأخلاق الذين لم يقصّروا فی محاولاتهم العديدة لاستخراج المدلولات المعنوية للحج. بل هذه وظيفة الجميع لأنها تمثل المقصد الأساس لفريضة الحج إلی جانب مقاصده الأخری الهامة علی الصعيد السياسی و الاجتماعی و ...

فقه الحج القرآنی

من أهم الملفات البحثية فی فقه الحج، فتح ملفّ الفقه القرآنی للحج، و نقصد بذلك أن تجمع الآيات القرآنية حول الحج و العمرة وأمثال ذلك لتدرس بشكل مستقل، و تتحدّد الأطر التی وضعها القرآن الكريم فی هذا المجال، و فائدة هذا النوع من الدراسات أنه يقدّم لنا تصوّراً علوياً للخطوط التی طرحها القرآن الكريم فی مسألة الحج، حتی إذا حملها الفقيه معه إلی البحث الفقهی التفصيلی استطاع أن يعتبرها بمثابة المبادئ القرآنية الحاكمة علی مجمل النصوص و القواعد والتفصيلات الجزئية لقضايا الحج.

ولا نطرح هذا الموضوع فی فقه الحج و حده، وإنما نأخذ الحج أحد تطبيقات هذا الموضوع؛ وذلك أنه من المؤسف غياب الفقه القرآنی كما يشير إليه العلامة الطباطبائی فی الميزان حين يستنكر غياب الدرس القرآنی عموماً فيقول: «وذلك أنّك إن تبصرّت فی أمر هذه العلوم و جدت أنها نظمت تنظيماً لا حاجة لها إلی القرآن أصلًا، حتی أنه يمكن لمتعلّم أن يتعلمها جميعاً: الصرف و النحو، و البيان، و اللغة، و الحديث، و الرجال، و الدراية، و الفقه و الأصول فيأتی آخرها، ثم يتضلّع بها ثم يجتهد فيها وهو لم يقرأ القرآن، و لم

یمسّ مصحفاً قط، فلم یبق للقرآن بحسب الحقیقة إلّا التلاوة لکسب الثواب أو اتخاذه تمیمة للأولاد تحفظهم عن طوارق الحدثان، فاعتبر إن کنت من أهله» (۳).

إذن، فالمطلوب تنشیط فعل الاستنتاج الفقهی من القرآن نفسه حتی لو کانت بعض النتائج التی نحصل علیها من البحث القرآنی موجودة فی الأدلّة الأخری، فالمفترض إذا اشترکت الأدلّة فی إیصالنا إلی نتیجة أن نأخذ بأقواها و أوّلها و هو کتاب الله الذی یتمتع بالقطعیة السندیة إلی جانب وضوح فی الدلالة فی کثیر من الأحیان.

ولأخذ شاهد و مثال ننظر فی بحث المحقق النجفی (۱۲۶۶ ه-) لمسألة الإیلاء، فإنه یصرّح فی مطلع البحث بأن الأصل فی الإیلاء هو الآیة القرآنیة المعروفة الواردة فی سورة البقرة؛ ثم یقول: «بل منها یستفاد الوجه فی جملة من أحکامه الآتیة» (۴)، إذاً فبعض أحکام الإیلاء یمکن أخذها من هذه الآیة الکریمة التی هی الأصل فی هذا الموضوع الفقهی، لکن لما نواصل مطالعتنا لبحث الإیلاء فی کتاب «جواهرالکلام» لا نجد حضوراً لهذه الآیة فی عملیات الاستدلال، بل الحاضر هو سائر الأدّلة کالروایات و غیرها، فما دامت الآیة قادرة علی أن تعطینا أجوبة عن بعض أحکام الإیلاء فلماذا غابت فی البحث الفقهی حول هذه الأحکام؟

هذا هو الواقع الذی نحاول هنا الإشارة إلیه، و هو الذی یستدعی إعادة إحضار الفقه القرآنی للحج، لیشکّل الأساس فی دراسة موضوع الحج فی الفقه الإسلامی بأدلته المتنوّعة.

إننا بحاجةٍ إلی تکوین ثقافة قرآنیة حجیة مهیمنة؟ تحرّک رؤیة الفقیه لأحکام الحج و تشکل المفاصل الأساسیة التی یتحرک عبرها و یتنقل، و لا نقصد تفسیراً تجزیئیّاً بجمع الآیات القرآنیة فقط وإنما بحث موضوعی متکامل یکوّن الصورة القرآنیة لهذه الفریضة العظیمة.

فتاوی الحج والحاجات العملیة

۱- أنظر: الآداب المعنویة للصلاة: ۳۶۲، تعریب: السیّد أحمد الفهری، دار الکتاب الإسلامی.

۲- انظر: حیدر حب الله، الذکر فی الحج: هل ذکر الله فی المشاعر واجب أو مستحب؟ مجلة میقات الحج، العدد ۱۰۷: ۲۳- ۱۳۲.

۳- الطباطبائی، المیزان فی تفسیر القرآن ۲۷۶: ۵.

۴- النجفی، جواهر الکلام ۲۹۷: ۳۳.

ص: ۶۶

وفی سیاق الحدیث عن فقه الحج نرکّز علی نقطة جوهریة، وهی مسألة فتاوی الحج؛ فتعدّد المرجعیات الدینیة و حصول حالة تحوّل فی الرأی عند بعض الفقهاء وکلاهما أمرٌ غیر معیب بل هو حالة صحیّة فی الجملة یؤدی إلی تذبذب الناس أحیاناً وضیاعهم فی أمر الفتاوی؛ فلو أردت أن تطبع کتاباً جامعاً لفتاوی أبرز المراجع المعاصرین لوجب علیک أن تعید طبعه کل عام؛ لأن قسماً من الفتاوی سیتغیّر و یتبدّل، من هنا من الضروری وضع حلول عملیة لتسهیل هذا الأمر میدانیاً، ولا نقصد تغییر الفقه أو آراء المجتهدین دون استناد إلی دلیل والعیاذ بالله، لکن فلتؤخذ هذه المشاکل المیدانیة بعین الاعتبار.

ومما یتصل بهذا الشأن ظاهرة الاحتیاط الوجوبی فی فقه الحج، فالحج لیس کالصلاة یتمکن الإنسان من إقامته دون عناء کبیر، وإنما هو تکلفة مالیة وجهود بدنیة واستعداد نفسی وتنظیم للأوقات و ... لهذا من العسیر أن نکثر من الاحتیاطات الوجوبیة فی بحث کفارات الأحکام، أو فی إعادة الحج أو ما شابه ذلک، لذلک یرجَّح أن تسعی الجهات المعنیّة لبت أمر الفتوی و رفع حالة الاحتیاط الوجوبی قدر الإمکان والتخفیف علی الناس فی حجها حیث یمکن، دون تجاوز قید أنملة للخطوط الشرعیة والأدلّة المعتبرة فی هذا المجال.

فقه الحج وآلیات الإشراف علی الحرمین الشریفین

وفی سیاق فتاوی الحج یأتی عدم إلزام الناس بفتوی مذهب معیّن، إلا ما یخص تنظیم أعمال الحج بحیث یلزم من عدم الأخذ بفتوی خاصّة لمذهب معیّن أو لمرجع دینی معیّن.. یلزم الفوضی أو بعض الآثار السلبیة.. فتعدّد الاجتهادات نعمة وفتح باب الاجتهاد والحریة للناس فی انتخاب مرجعها ومفتیها لیس نقمة بل فسحة وإباحة؛ فلماذا التشدید علی الناس لإلزامهم بشخص معیّن وإلا تعرّضوا للمضایقة أو إلزامهم بمذهب معین وإلا تم التعامل معهم کأنهم خارج الأسرة الإسلامیة؟!

من هنا، نهیب بالقیمین علی الأماکن المقدسة فی الحجاز وسائر بلاد المسلمین ألا یفرضوا فتوی خاصة علی عامة المسلمین، مادام المسلمون ینتهجون فی طریقة أدائهم للعبادات منهج الرجوع إلی القرآن والسنّة کلّ حسب نظریته واجتهاده، فلتحترم هذه الاجتهادات ولا یتم التعامل مع من یسیر وفقها علی أساس أنّه فاسق أو یجب أن یعدل عن موقفه لصالح اجتهاد فقهی آخر.. وأعتقد أن القیمین علی الحرمین الشریفین وعامة الأماکن المقدّسة یمکنهم أن یستفیدوا من تجربة الإمام مالک بن أنس (۱۷۹ ه-) عندما عرض علیه الخلیفة العباسی أن یجعل کتابه «الموطأ» کتاباً قانونیاً مرجعیاً ملزماً للمسلمین فی الآفاق والأقطار، فأجابه بالقول بوجود آراء واتجاهات، وکل واحد له علمه وفضله (۱).

نحن لا نقف هنا عند حدود أن یحترم القیمون علی الأماکن المقدسة فی الحج والعمرة والزیارة أفکار واجتهادات المذاهب الإسلامیة الأخری.. مادامت هذه الاجتهادات تحتکم لکتاب الله وسنّة نبیّه.. بل وأیضاً أن لا یتمّ التعاطی فی موسم الحج والعمرة مع أتباع المذاهب الأخری ومقلّدی مفتین آخرین بمنطق من یرید أن یهدیهم للحق والدِّین، وکأنّهم خارج إطار الإسلام، فمن أراد أن یهدی المسلمین فعلیه أن یفعل ذلک بالوسائل المنطقیة الأخلاقیة الهائدة غیر المتشنّجة، لا أن یلاحق الناس ویتهمهم بالشرک والکفر والضلالة والفسق والانحراف هنا وهناک، حتّی أن الحاج عندما ینتمی إلی بعض المذاهب لا یشعر بالأمان منذ دخوله بلاد الحجاز الکریمة الطیبة، کأنّه مستهدف فی دینه وأخلاقه!!

إن هذه الطریقة فی هدایة الناس من أشدّ الطرق تمزیقاً للمسلمین وتخویفاً لهم، فخدمة الحرمین الشریفین تکتمل وتتمّ بخدمة حجاج هذین الحرمین وزوارهما، لا بالتعامل مع هؤلاء الحجاج بمنطق التکفیر والتخوین و ... مع تقدیرنا التام واحترامنا الکامل للجهود الطیبة التی قامت وتقوم بها غیر جهة فی المملکة العربیة السعودیة، حکومة وشعباً ومؤسسات، لخدمة الزوار والحجاج، لکن هذا لا یمنع علی الدوام من أن یقوم النقاد المسلمون بتصویب بعض الأخطاء والإشارة إلی بعضها الآخر بالکلمة الحسنة والحوار الهادئ، علّ ذلک یقرّب المسلمین من بعضهم ویخلق جوّ احترامهم لبعضهم بعضاً رغم الاختلاف فی المذهب وفی الاجتهاد الفقهی.

فقه الحج المقارن، خطوة عملیة للتقریب الإسلامی

إذا طالعنا التراث الإسلامی القدیم نجد المذاهب، علی ما حصل بینها من تخاصم واختلاف.. تتناول أفکار بعضها بعضاً بالنقد والتأیید.. خصوصاً علی الصعید الشیعی، فقد ألّف الشیخ الطوسی (۴۶۰ ه-) فی القرن الخامس الهجری کتاب «الخلاف» فی الفقه المقارن؛ وفعل ذلک علی نطاق أوسع بعده العلامة الحلی (۷۲۵ ه-) فی کتابه الشهیر «تذکرة الفقهاء»، ولم یتحفظ العلماء المسلمون أن یحضروا دروس بعضهم بعضاً، فکان یحضر مجلس المفید (۴۱۳ ه-) والمرتضی (۴۳۶ ه-) والطوسی (۴۶۰ ه-) فی بغداد عدد کبیر من أبناء المذاهب الأخری، کما حضر الشهیدان الأول والثانی عند علماء کبار من أهل السنّة فی أقطار وبلاد المسلمین ..

لکن المؤسف أنّنا نجد غیاب الفقه المقارن غیاباً تاماً، ففی الوسط الشیعی هناک اطلاع علی الفقه السنی، ولا نقول: إنّه بالمستوی الذی نأمله، لکن فی الوسط السنّی والحق یقال هناک غیاب تام أو شبه تام للفقه الشیعی الإمامی، بل نحن نجد من یتعالی علی هذا الفقه وکأنه لا قیمة له، وهذا أمر فیه قدر کبیر من عدم الإنصاف.. فکیف ننادی بالتقریب بین المسلمین سنّة وشیعة وهناک مثل هذه النظرة لفقه أهل البیت:؟! فبدل أن نُحضِر الفقه الشیعی فی الأبحاث الفقهیة السنیة، والفقه السنی فی الأبحاث الفقهیة الشیعیة.. نکتفی بإطلاق شعارات التقارب بین المسلمین دون القیام بخطوات عملانیة.

سأعطی مثالًا مبسطاً.. عندما ألفت الموسوعة الفقهیة فی مصر والمعروفة بموسوعة جمال عبدالناصر.. استحضرت المذاهب الفقهیة الثمانیة بما فیها مذاهب المسلمین الشیعة والإباضیة، وکانت هذه الخطوة طیبة یشکر علیها القیمون.. لکننا وجدنا تراجعاً فی تجربة لاحقة أخذت شهرة، وهی موسوعة الفقه الإسلامی المعروفة بالموسوعة الکویتیة.. حیث اقتصرت هذه الموسوعة الضخمة علی المذاهب الأربعة السنیة المعروفة، مستبعدة مذاهب الشیعة والإباضیة.. فهل یمکن قراءة ذلک تراجعاً فی العقل المقارن والتقریب أم لا؟!

۱- أنظر القصّة ولها عدّة صیغ بعضها لا یدل علی رفض مالک فی: الرازی، الجرح والتعدیل مقدّمة المعرفة ۱۲: ۱؛ والذهبی، تاریخ الإسلام ۳۲۱: ۱۱؛ وتاریخ ابن خلدون المقدمة ۱۷: ۱؛ ووضوء النبی ۳۵۴: ۱.

ص: ۶۷

فی المقابل، وجدنا فی الوسط الشیعی موسوعة الفقه الإسلامی طبقاً لمذهب أهل البیت:، تختصّ بالفقه الشیعی، لکنها تنجز إلی جانب ذلک الیوم، ضمن فریق عمل، موسوعة الفقه المقارن أیضاً مستحضرةً المذاهب السنیة، ووجدنا المشروع الذی أطلقه المرجع الدینی الشیخ ناصر مکارم الشیرازی، وهو موسوعة الفقه المقارن التی صدر المجلد الأول منها، ویتوقع أن تزید عن الستین مجلداً ..

إنّنا نأمل أن یتنامی الفقه المقارن وتتعرف الأوساط ببعضها، سیما الوسط السنی بالفقه الإمامی شبه المغیب فیه، وفی الحج تبدو هذه القضیة بالغة الأهمیة جداً، لأن الحج مرکز تلاقی المسلمین جمیعاً وقضایاهم وهمومهم هناک مشترکة، فیفترض أن یشکلوا لجاناً مشترکة من فقهاء المذاهب الثمانیة کافة لتدارس کل مستجد فی فقه الحج أو طارئ ینزل، بدل أن ینفرد هذا المذهب أو ذاک بهذه القضیة، مع إعطاء الحق للدولة فی أن تکون لها صلاحیاتها الراجعة للتنظیم ورفع الفوضی والاضطراب و ..

وفی هذه المناسبة نری أن أیّ مشروع ترید الجهات المسؤولة فی بلاد الحجاز إنجازه لخدمة الحجیج والزوار کإصلاح الجمرات وتوسعة المسعی ونحن نشکرها علی ذلک یفترض أن یکون بالتشاور وضرب الآراء ببعضها وإشراک علماء وفقهاء المذاهب الأخری فی إبداء الرأی، بصرف النظر عن إلزامیة هذه المشورة.. إن الاستفادة من آراء الآخرین لا تُعدم الإنسان نضج الأفکار وتنمیتها.. ونحن لا ـ نقصد أخذ رأی المذاهب غیر السنیة فقط، بل الأمر یشمل آراء المذاهب السنیة الأخری مثل الأحناف والشوافع والمالکیة إلی جانب الزیدیة والإسماعیلیة والإمامیة والإباضیة.. خصوصاً إذا بلغ الموضوع حد أعمال الهدم والردم والتغییر الجغرافی فی أماکن الحج والعمرة والزیارة ... وفی ذلک تقارب المسلمین واستفادتهم من بعضهم.. وعلی علماء المذاهب الأخری أن لا یبخلوا فی تقدیم کل مقترحاتهم للجهات المعنیة سألتهم أم لم تسألهم فإن فی ذلک للطرفین مصداق النصیحة وتبادل الرأی ومشاورة العقول وغیر ذلک من مکارم الأخلاق ومحاسن الأفعال.

إن هذا الذی نطرحه لا یهدف سحب الإشراف من ید جهة معینة، حتّی لا یثیر هذا الأمر قلق أحد؛ وإنّما نتحدّث فی الجوانب العلمیة والتقریبیة بین المسلمین.. علّ ذلک یشکل مصداقاً لقوله تعالی: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِیعاً وَ لا تَفَرَّقُوا (آل عمران: ۱۰۳)

کانت هذه بعض الملاحظات و المقترحات المدخلیة المفتاحیة فی فقه الحج، أقدّمها بین یدی الفقهاء و الباحثین والأساتذة فی هذا المجال، لترشید عملنا إلی ما فیه الخیر للإسلام و المسلمین إن شاءالله تعالی؛ ونکمّل بعض الأفکار الأخری فی الحلقة الثانیة بعون الله سبحانه.

ص: ۶۸

وُلد الهدى

أحمد شوقى و مدح الرسول ۹

وُلد الهدى فالكائنات ضياء

وفمُ الزّمان تبسُّم وثناء

الرّوح والملأ الملائكُ حَولهُ

للدين والدُّنيا به بُشَراءُ (۱)

والعرش يزهو والحظيرة تزدهى

والمنتهى والسِّدرةُ العصماء (۲)

وحديقةُ الفرقان ضاحكةُ الربى

بالتَّرجُمانِ شَذِيّةٌ غنّاءُ (۳)

والوحى يقطر سَلسَلًا من سَلسل

واللوح والقلم البديعُ رواءُ (۴)

نُظِمَتْ أسامى الرُّسْلِ فهى صحيفةٌ

فى اللوح واسمُ محمّد طُغرَاءُ (۵)

اسمُ الجلالة فى بديع حروفِهِ

أَلِفٌ هنالك واسم طه الباءُ

يا خير من جاء الوجود تحيَّةً

من مُرْسَلين إلى الهدى بك جاؤوا

بيتُ النبيين الذى لا يلتقى

إلا الحنائفُ فيه والحُنفاءُ (۶)

خيرُ الأبوّةِ حازَهم لك آدم

دونَ الأنام وأحرزَتْ حَوّاءُ

هم أدركوا عِزَّ النبوّةِ وانتهت

فيها إليكَ العزَّةُ القعساء

خُلِقت لبيتكَ وهو مَخلوقٌ لها

إن العظائِم كفؤها العظماءُ

بكَ بَشّرَ اللهُ السّماء فزُيِّنَت

وتضَوَّعت مسْكاً بك الغبراءُ (۷)

وبدا محيّاك الّذى قَسماتُه

حَقٌّ وغرتُه هدًى وحياءُ (۸)

وعليه من نورِ النبوّةِ رونقٌ

ومن الخليل وهَدْيِهِ سيماءُ (۹)

۱- الروح: هو الروح الأمين جبريل الملائك: أى الملائكة، والملأ: أشراف القوم البشراء: جمع بشير، والبشير الذى يحمل البشرى وهى كلّ نبأ سارّ.

۲- العرش يزهو: أى يشرق ضياءً السدرة: هى سدرة المنتهى ويقال: إنها شجرة نبق على يمين العرش العصماء: مثنى الأعصم وهو الظبى الذى فى ذراعيه بياض.

۳- الفرقان: القرآن الكريم الربى: جمع ربوة وهى المرتفع من الأرض الشذيّة: ذات الشذى العطر والطيّب.

۴- الرواء: حسن المنظر، والسلسل: الماء العذب.

۵- الطغراء: هى الطرّة عند العامّة مأخوذة من طغرى بالقصر، وهى صحيفة تصدر بها الأوامر التى تكتب بالقلم العريض.

۶- الحنفاء: جمع الحنيف وهو من كان على دين إبراهيم ۷ أى الدين الصحيح، والحنيف أيضاً: الذى ميله إلى الإسلام صحيح لا شبهة فيه، والجمع حنفاء.

۷- تضوّعت مسكاً: أى انتشرت فيها رائحة المسك الغبراء: الأرض.

۸- قسماته: القسمة ما بين الوجنتين والأنف والمحيّا: الوجه.

۹- الخليل: أى إبراهيم ۷ السيماء: العلامة.

ص: ۶۹

أثنى المسيحُ عليه خلفَ سمائه

وتهلَّلت واهتَزتِ العذراءُ (۱)

يومٌ يتيهُ على الزّمان صَبَاحه

ومَساؤه بمحمّد وضّاءُ

الحقُّ عالى الركنِ فيه مُظَفَّرٌ

فى المُلكِ لا يعلو عليه لواءُ

ذعِرَت عروشُ الظالمين فزُلزِلت

وعلَت على تيجانِهم أصداءُ

والنّار خاوية الجوانب حولَهُمْ

خَمَدَتْ ذوائِبُها وغاص الماءُ (۲)

والآى تَتْرى والْخَوَارقُ جَمَّةٌ

جبريلُ رَوَّاحٌ بها عَدّاءُ (۳)

نِعْمَ اليتيمُ بَدَت مَخايلُ فضلِهِ

واليُتمُ رزق بعضُهُ وذكاءُ (۴)

فى المهد يُستَسْقى الحيا برجائه

وبقصْدِهِ تستدفع البأساءُ (۵)

تسوِى الأمانة فى الصّبا والصدق لم

يعرفْهُ أهل الصدق والأمناءُ

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا

منها وما يَتَعَشَّقُ الكبراءُ

لو لم تُقِمْ ديناً، لقامت وحدَها

ديناً تُضِيءُ بنُورِهِ الآناءُ

زانتك فى الخلقِ العظيم شمائلٌ

يُغرَى بهنّ ويولعُ الكُرماءُ

والحسنُ من كرم الوجوهِ وخيرُه

ما أوتى القُوّادُ والزعماءُ

فإذا سَخَوْتَ بلغت بالجود المدى

وفعلت ما لا تفعلُ الأنواءُ (۶)

۱- أثنى عليه: مدحه وأطراه العذراء: السيدة مريم.

۲- الذوائب: جمع ذؤابة وهى هنا ألسنة النار أو اللهب خمود النار: سكون لهيبها وانطفاؤه.

۳- الآی: جمع آیة، وهی العلامة أو العبرة، والمقصود بقوله: تتری، توالی نزول آیات القرآن وحیاً علی النبیّ الخوارق: المعجزات جمّة: عظیمة.

۴- مخایل: جمع المخیلة، وهی المظنة، أی ظهرت مخایل فضله.

۵- یستسقی الاستسقاء: طلب السقی، والحیا: المطر تستدفع البأساء: أی یدفع الفقر والشدّة.

۶- سخوت: السخاء الجود الأنواء: جمع نوء وهو المطر.

ص: ۷۰

وإذا عَفَوْتَ فقادراً ومقدّراً

لا يستهين بِعفوِك الجُهلاءُ

وإذا رحمْتَ فأنت أُمٌّ أو أبٌ

هذان فى الدُنيا هما الرُّحَماءُ

وإذا غَضِبْتَ فإنما هى غضبةٌ

فى الحق لا ضِغنٌ ولا بغضاءُ (۱)

وإذا رضيتَ فذاك فى مرضاته

ورِضَى الكثير تَحلُّمٌ ورِياءُ (۲)

وإذا خَطبْتَ فللمنابر هِزَّةٌ

تَعْرو النَّدِىّ وللقلوب بكاءٌ (۳)

وإذا قضيتَ فلا ارتيابَ كأنّما

جاء الخصومَ من السماء قضاءُ

وإذا حَمَيْتَ الماء لم يُورَدْ ولو

أن القياصِرَ والملوكَ ظِماءُ

وإذا أجَرتَ فأنت بيت الله لم

يدخل عليه المستجير عداءُ

وإذا ملكت النفسَ قمْتَ ببرّها

ولو أن ما ملكت يَداك الشاءُ

وإذا بنيتَ فخيرُ زوْجِ عِشرة

وإذا ابْتَنَيْتَ فدونكَ الآباءُ (۴)

وإذا صحبت رأى الوفاءَ مجسماً

فى بردك الأصحابُ والخلطاءُ

وإذا أخذتَ العهدَ أو أعطَيْتَهُ

فجميعُ عَهْدِكَ ذمّةٌ ووفاءُ

وإذا مَشَيْتَ إلى العدا فغضَنفَرٌ

وإذا جريْتَ فإنكَ النّكباءُ (۵)

وتَمُدُّ حِلْمَكَ للسفيهِ مُداريا

حتّى يضيقَ بِعرضِكَ السُفهاءُ

۱- الضغن: الحقد البغضاء: الكراهية.

۲- التحلّم: تكلف الحلم أى السماحة الرياء: التملق والخداع.

۳- الندیّ: النادی.

۴- بنیت: من بنیبأهله أی زفّ إلیهم، وابتنی: صار له بنون یمتدح سیرة النبیّ مع أهله ورفقه بهم.

۵- العدا: الأعداء الغضنفر: الأسد کنایة عن شجاعة النبیّ فی قتال أعدائه النکباء: ریح یقول: إن النبیّ ۹ مقدام فی مواجهة أعدائه وسریع کالریح النکباء.

ص: ۷۱

فی کل نفْسٍ من سُطَاکَ مهابةٌ

ولکل نفس فی نداکَ رجاءُ (۱)

والرأی لم یُنْضَ المُهَنّدُ دونه

کالسّیفِ لم تَضرب به الآراءُ (۲)

یا أیّها الأمِّیُ حسبُک رتبةً

فی العلم أنْ دانَتْ بکَ العلماءُ

الذکرُ آیهٔ ربّکَ الکبری التی

فیها لباغی المعجزاتِ غناءُ (۳)

صَدْرُ البیانِ لَهُ إذا التقت اللغی

وتقدّم البلغاءُ والفصحاءُ (۴)

نُسِخَتْ به التوراةُ وهی وضیئهٔ

وتخلَّف الإنجیلُ وهو ذُکاءُ (۵)

لما تمشَّی فی الحجاز حکیمُه

قضّت عکاظُ به وقام حراءُ (۶)

أزری بمنطِقِ أهلِهِ وبیانهم

وحیٌّ یقصِّرُ دونه البلغاءُ (۷)

حسدوا فقالوا شاعرٌ أو ساحرٌ

ومن الحسود یکون الاستهزاءُ

قد نال بالهادی الکریم وبالهدی

ما لم تَنَلْ من سؤددٍ سیناءُ

أمسی کأنک من جلالک أمةٌ

وکأنه من إنسِه بَیداءُ

یُوحی إلیک الفوْزُ فی ظلماته

متتابعاً تُجْلَی به الظلماءُ

دینٌ یشیّدُ آیةً فِی آیةٍ

لبنائه السُوراتُ والأضواءُ

الحقُّ فیه الأساسُ وکیف لا

واللهُ جلَّ جلاله البنّاءُ

۱- سطاک: جمع سطوهٔ وهی الغلبهٔ والقهر نداک: جودک وعطاؤک.

۲- لم ینض: أی لم یسلّ المهنّد: السیف.

۳- باغی المعجزات: طالبها الغناء: ما یغنی.

۴- التقت اللغی: أی اجتمع أصحاب اللغات البلغاء: أصحاب البیان والفصاحة.

۵- ذکاء: من أسماء الشمس یشیر فی الأبیات ۱۰ و ۱۱ و ۱۲ إلی إعجاز القرآن وشمول معانیه وکیف جمع شؤون الدین والدنیا.

۶- حراء: هو غار حراء الذی کان النبی ۹ یتعبّد فیه، وفیه نزل الوحی علیه، وإلیه لجأ حین غادر مکّة إلی المدینة.

۷- أزری به أو بمنطقه: عابه البیان: بلاغة القول وفصاحة الکلام.

ص: ۷۲

أما حديثُكَ فی العقول فمشْرَعٌ

والعلمُ والحِكَمُ الغوالی الماءُ (۱)

هو صِبْغةُ الفرقان نفحةُ قُدْسِهِ

والسین من سُوراته والراءُ (۲)

جَرتِ الفصاحةُ من ینابیع النُهی

من دوْحِهِ وتفجَّر الإنشاءُ (۳)

فی بحرِهِ للسابحین به علی

أدبِ الحیاةِ وعلمِها إرساءُ

أتتِ الدُّهُورُ علی سُلافته ولم

تَفْنَ السُّلافُ ولا سَلا الندماءُ (۴)

بک یابن عبدالله قامت سمحةٌ

بالحقِّ من مِلَلِ الهدی غراءُ (۵)

بُنیت علی التوحید وهی حقیقةٌ

نادی بها سُقراطُ والقدماءُ (۶)

وجد الزعافَ من السُّموم لأجلها

کالشُّهْدِ ثم تتابَعَ الشُّهَداءُ (۷)

ومشی علی وجه الزّمان بنورها

کهَّانُ وادی النیل والعُرَفاءُ (۸)

إیزیسُ ذاتُ الملک حین توحدتْ

أخَذتْ قِوامَ أمورها الأشیاءُ (۹)

لما دعوت النّاسَ لبّی عاقل

وأصَمَّ مِنْک الجاهلین نداءُ

أبو الخروجَ إلیک من أوهامهم

والنّاسُ فی أوهامهم سُجناءُ

ومِن العُقول جداول وجلامِدٌ

ومن النُفوس حرائر وإماءُ (۱۰)

داءُ الجماعةِ من أرسطالیس لم

یوصَف له حتی أتیْتَ دواءُ

۱- المشرع: المورد الذی یستقی منه الحکم الغوالی: أی الحکم الجلیلة الغنیة بمرامیها.

۲- صبغة الفرقان: نوعه.

۳- النّهى: العقل الدوح: جمع دوحة، وهى الشجرة العظيمة.

۴- سلافته: السلافة: أجود الخمر الندماء: جمع نديم المنادم على الشراب، جمع ندماء وندمان.

۵- السمحة: الملّة ذات الجود والسماحة الغراء: مؤنث الأغرّ وهو السّيد الشريف، وهو الحسن والكريم الأفعال.

۶- سقراط: أحد كبار فلاسفة الإغريق الثلاثة، والآخران هما أفلاطون وأرسطو.

۷- الزعاف: السمّ القاتل يشير إلى شرب سقراط السم دفاعاً عن الحقيقة، وكان بوسعه أن ينجو من الموت ولكنه آثر أن يقدم حياته من أجل توعية الشباب والنهوض بمجتمعه فكان من أوائل شهداء الواجب فى تاريخ البشرية.

۸- العرفاء: جمع عرّاف وهو المنجم.

۹- إيزيس: من آلهة قدماء المصريين.

۱۰- يقول: إن بعض العقول متحررة وهى أشبه بالجداول الرفرافة، ولكن هناك بالمقابل عقول جاهلة وهى صلبة كالجلامد أى الصخور، والنفوس مثل العقول بعضها حرّ وبعضها الآخر راغ فى العبودية كالإماء.

الجلامد: الصخور جمع جلمد، الإماء: الجوارى جمع أمة.

ص: ۷۳

فرسَمْتَ بعدَك للعِبَادِ حكومةً

لا سوقةٌ فيها ولا أمراءُ (۱)

الله فوقَ الخلق فيها وحدَهُ

والناسُ تحت لوائها أكفاءُ (۲)

والدِّينُ يُسْرٌ والخلافةُ بَيعةٌ

والأمرُ شُورَى والحقوقُ قضاءُ

الإشتراكيون أنتَ إمامُهم

لولا دَعاوى القوم والغُلوَاءُ (۳)

داويْتَ مُتَّئِداً وداوَوْا طَفْرةً

وأخفُّ من بعض الدواءِ الدّاءُ (۴)

الحربُ فى حقٍّ لديْكَ شريعةٌ

ومن السُّموم الناقعاتِ دواءُ (۵)

والبرُّ عِندكَ ذِمّةٌ وفريضةٌ

لا مِنَّةٌ ممنونةٌ وجباءُ (۶)

جاءتْ فوحّدَت الزكاةَ سبيله

حتّى التقى الكُرَماءُ والبخلاءُ (۷)

أنصفتَ أهلَ الفقر من أهل الغنى

فالكلُّ فى حقِّ الحياة سواءُ

فلو أن إنساناً تخيَّرَ ملةً

ما اختار إلا دينكَ الفقراءُ (۸)

يا أيّها المُسْرَى به شرفاً إلى

ما لا تنالُ الشّمسُ والجوْزاءُ

يتساءلون وأنتَ أطهَرُ هيكل

بالروح أم بالهيْكل الإسراءُ (۹)

بهما سَموْتَ مُطهَّرَيْن كلاهما

نورٌ وريحانيةٌ وبهاءُ

فضل عليك لذى الجلالِ ومِنةٌ

واللهُ يفعلُ ما يرى ويشاءُ

۱- السوقة: الرعية من الناس، سمّوا كذلك لأن الملك يسوقهم ويصرفهم إلى ما شاء من أمره.

۲- الأكفاء: المتساوون فى الحقوق والواجبات.

۳- الدعاوی: کنایة عن المزاعم الباطلة الغلواء: الغلو والمکابرة.

۴- المتئد: المتأنی الذی یطیل الرویّة ویتمهّل فی تصریف الأمور الطفرة: نقیض التّأنی من طفر یطفر أی وثب، والطفرة الوثبة إلی الارتفاع، وقد کنّی بالطفرة فی سیاق البیت عن التصرف الأرعن غیر المسؤول.

۵- یقول: إن محمّداً جعل الحرب مشروعة فی سبیل الحقّ، وهی فی هذه الحال کالسم الذی یکون منه دواء وإن کان قاتلًا.

۶- البرّ: الإحسان الذمّة: العهد المنّة: العطیّة، والمنّة الممنونة: العطیة التی تؤذی، لأنها متّبعة بالمنّ.

۷- الزکاة: مقدار معلوم یقدمه المرء من ماله لیطهره به، والزکاة من أرکان الإسلام.

۸- یقول: إن فریضة الزکاة إنصاف للفقراء من مال الأغنیاء وبها یتساوی الفقیر والغنی فی الحیاة.

۹- المسری به: من الإسراء وهو السیر لیلًا الجوزاء: برج فی السماء یقول: إن القوم یتساءلون هل کان إسراؤک بالروح أم بالهیکل أی الجسم؟ ویستطرد فی البیت التالی لیقول بأن الإسراء کان بهما معاً، أی بالروح والجسم.

ص: ۷۴

تغشی الغُیُوبَ من العوالم کلّما

طُوِیت سماء قُلِّدَتْک سماءُ (۱)

فی کلّ مِنطقةٍ حواشی نورها

نونٌ وأنت النقطةُ الزهراءُ

أنت الجمال بها وأنت المجتلی

والکفُّ والمِرْآةُ والحسناءُ

اللّٰه هَیَّأ من حظیرةِ قُدسِهِ

نزلًا لذاتک لم یَجُزْهُ علاءُ

العرشُ تحتکَ سُدّةً وقوائماً

ومناکبُ الرُّوحِ الأمینِ وطاءُ

والرُّسل دون العرشِ لم یؤذَنْ لهمْ

حاشا لغیرکَ موعد ولقاءُ

الخیلُ تأبی غیرَ أحمد حامیاً

وبها إذا ذُکِر اسمه خیلاءُ

شیخُ الفوارسِ یعلمون مکانَه

إن هیجت آسادَها الهیجاءُ (۲)

وإذا تصدّی للظُّبَی فمُهنّدٌ

أو للرّماح فصعْدة سمراءُ (۳)

وإذا رَمی عن قوسِهِ فیمینُهُ

قدَرٌ وما تَرْمی الیمینُ قضاءُ

مِنْ کلِّ داعی الحقّ همةُ سیفه

فلِسیفه فی الرّاسیات مَضاءُ (۴)

ساقِی الجریح ومُطعمُ الأسری ومن

أمِنَت سنابکَ خیله الأشلاءُ (۵)

إنّ الشجاعَةَ فی الرِّجال غلاظةٌ

ما لم تزنها رأفةٌ وسخاءُ

والحربُ من شرف الشّعوب فإن بغوا

فالمجدُ مما یدّعون براءُ

۱- تغشی الغیوب: من غشی المکان أی أتاه.

۲- الآساد: الأسود الهیجاء: الحرب.

۳- الظّبی: جمع ظبّة وهی حدّ السیف المهنّد: السیف الصعدة: القناة المستویة.

۴- المضاء: مصدر مضی السیف مضاء أی قطع.

۵- الأشلاء: جمع شلو وهو العضو من الأعضاء، والأشلاء أیضاً: أعضاء الإنسان بعد البلی والتفرّق.

ص: ۷۵

والحربُ يَبعثُها القويّ تجبُّراً

وينوءُ تحت بلائِها الضعفاءُ (۱)

كَمْ من غَزاةٍ للرّسول كريمةٍ

فيها رضىً للحقِّ أو إعلاءُ

كانت لجند الله فيها شِدّةٌ

فى إثرِها للعالمين رَخاءُ

ضَرَبُوا الضلالةَ ضربةً ذهبت بها

فعَلى الجهالة والضلال عفاءُ

دَعموا على الحرب السلامَ وطالما

حقنت دِماءً فى الزّمان دِماءُ

الحقُّ عِرضُ اللهِ كلّ أبيَّةٍ

بين النّفوس حمىً له ووِقاءُ

هل كان حول محمّد من قومه

إلّا صبيّ واحد ونساءُ

فدعى فلَبَّى فى القبائل عُصبةٌ

مُستَضعفونَ قلائلٌ أنضاءُ (۲)

رَدُّوا ببأس العزم عنه من الأذى

ما لا تَرُدُّ الصخرةُ الصماءُ

والحقُّ والإيمانُ إن صُبَّا على

برد ففيه كتيبةٌ خرساءُ (۳)

نَسفوا بناءَ الشرْك فهو خرائبٌ

واستأصلوا الأصنام فهى هباءُ (۴)

يمشونَ تُغضى الأرضُ منهم هيبةً

وبهم حيال نعيمها إغضاءُ

حتّى إذا فُتِحتْ لهم أطرافُها

لم يُطغِهِم تَرَفٌ ولا نعماءُ

يا مَنْ لَهُ عِزُّ الشفاعةِ وحدهُ

وهُو المنَزّهُ ماله شُفعاءُ

۱- ينوء تحتها: يرزح.

۲- العصبة: الجماعة الأنضاء: جمع نضو وهو المهزول من الإبل ونحوها.

۳- البرد: الثوب، الرداء الكتيبة الخرساء: التى لا يسمع فيها صوت.

۴- نسفوا بناء الشرك: هدموه استأصل: اقتلع الشيء من جذوره الهباء: الغبار.

ص: ۷۶

عرشُ القيامَةِ أنتَ تحت لوائه

والحَوْضُ أنت حيالهُ السَّقاءُ

تروى وتسقى الصالحين ثوابهم

والصالحات ذخائر وجزاءُ (۱)

ألمثل هذا ذُقتَ فى الدّنيا الطّوى

وانشَقَّ مِنْ خلَقٍ عليكَ رداءُ (۲)

لى فى مديحك يا رسُولُ عرائسٌ

تُيِّمن فيك وشاقُهنّ جلاءُ

هُنّ الحسانُ فإن قبلت تكرماً

فمُهُورُهُنّ شفاعَةٌ حَسناءُ

أنت الذى نَظَمَ البريَّةَ دينُهُ

ماذا يَقولُ وينظم الشُعراءُ

المُصلِحون أصابعٌ جُمِعت يَداً

هى أنت بل أنت اليَدُ البيضاءُ

ما جئتُ بابكَ مادحاً بل داعياً

ومن المديح تضَرُّعٌ ودعاءُ

أدعُوك عن قومى الضِّعافِ لأزمةٍ

فى مثلها يلقى عليك رجاءُ

أدرى رسُولُ اللّهِ أن نفوسَهم

ركبت هَواها والقلوب هواءُ

مُتفكِّكون فما تضمُّ نفوسُهم

ثقةً، ولا جَمع القلوب صفاءُ

رقدُوا وغرَّهُمُ نعيمٌ باطلٌ

ونعيمُ قومٍ فى القُيودِ بلاءُ

ظَلَمُوا شريعتك التى نلنا بها

ما لم ينل فى رومة الفقهاءُ

مشتِ الحضارةُ فى سَناها واهتدى

فى الدِّين والدُّنيا بها السُّعداءُ

۱- الذخائر: المؤن، جمع ذخيرة.

۲- الطوى: الجوع الخلق: من خلق الثوب أى بلى.

ص: ۷۷

صلی علیک الله ما صحِب الدُّجی

حادٍ وحنّت بالفلا وجناءُ (۱)

واستقبل الرضوان فی غُرفاتهم

بجنان عدن آلُکَ السُّمحَاءُ

خیرُ الوسائل مَن یقع منهُمْ علی

سَبب إلیک فحسبی الزهراءُ

۱- الحادی: سائق الإبل الوجناء: الناقة الشدیدة الوثیقة الخلق.

ص: ۷۸

ص: ۷۹

ص: ۸۰

علماء الحرم الشريف، نشر النور والزهر نموذجاً

أ. د. أبوبكر أحمد باقادر

مصادر التاريخ المكى

ربما كانت مدينة مكة من أكثر مدن العالم التى حظيت بالتواريخ والاهتمام بتدوين ما جرى ويجرى فيها. والكتابات التاريخية عن المدن الإسلامية عموماً ومكة خصوصاً ليست على طراز أو أسلوب واحد. بل يمكننا الادعاء بأن هناك أكثر من «جنس كتابى» للتأريخ عن المدن العربية المسلمة. فهناك ما يمكن أن نسميه تاريخ المدينة عبر تاريخ سكانها وهو فن طوره المسلمون واعتنوا به وحظيت مكة بالعديد من كتب التاريخ التى تناولت رجالات وسكان ومجاورى مكة المكرمة. بعض هذه الكتابات يدخل فى كتب التاريخ مباشرة وبعضها فى مجالات قريبة مثل المغازى والسير

وكتب رجالات الحديث والطبقات العلمية عموماً. لكن مكة حظيت مع ذلك بكتب «تاريخية» سجلت أهم رجالاتها، ولعل كتاب «العقد الثمين» وما تلاه من مصنفات تاريخية تواصلت حتى قرون متأخرة جداً لتنتهى بنشر النور والزهر وإفادة الأنام للغازى تمثل هذا «الجنس الكتابى» الهام. وفى هذه المتون التاريخية الهامة، تورد أسماء الشخصيات مبوّبة بحسب الترتيب الأبجدى للاسم الأول مع تفاصيل عن سيرة صاحبها، وتقصر بحسب المتوافر من معلومات.

وهناك ما يمكن أن يسمى بالسجل التاريخى السنوى، وفيه رصد بأهم الوقائع والأحداث والأسماء تذكر مفصلة فى كل عام، وهذا النوع من التسجيل يقدم صورة دينامية حية للوقائع والأحداث التاريخية وربما علّل أسبابها المحلية والدولية، من أمثلة هذه الكتابات كتاب «إتحاف الورى بأخبار أم القرى» وما تلاه من كتب على منواله. وكما أوضحنا فإن هذا الجنس الكتابى يمكن أن يكون مكمّلًا وموضحاً لجوانب تتخطى مسألة الترجمة للأعيان من علماء ومفكرين وفقهاء، كما هو اهتمام الجنس السابق. ويصور جوانب تفصيلية من حياة المدينة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية مفصلة من عام لآخر، ومن ثم فإنها توفر معلومات عن التحولات والتغيرات التى مرت وتمر بها المدينة.

وهناك جنس كتابى ثالث يهتم بالتأريخ للسياسة ورجالاتها ومن ثم الأحداث السياسية فى حياة المدينة المقدسة، ومن هذه الكتابات كتب «غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام». وهنا نجد بسطاً للسياقات والأوضاع السياسية التى ربما فسرت وجود أشخاص معينين أو قيام مؤسسات ما ونحو ذلك فى مكة.

بالإضافة إلى وجود العديد من الكتابات التى قدمت تراجم لمن تولوا سدة الحكم فى مكة، لعل من أحدثها ما كتبه الدحلان «حكام مكة»، والعديد من الكتب التى لم تكتف بذكر ولاة مكة وإنما أوردت معلومات عن من ولى إمارة الحج من أوطانهم إلى مكة ومن حج من أمراء المؤمنين والخلفاء والسلاطين المسلمين على مر التاريخ. وبذلك يمكن للمطلع على هذه الكتابات التاريخية أن يتزوّد بنظرة تفصيلية تؤكد على حيوية هذه المدينة وحيوية ما يدور فيها، ولو أثناء الموسم.

ومن الكتابات التاريخية ما يمكن تسميته الكتابة التاريخية الشاملة، ومن أبرزها ما دبجته أقلام الأزرقى والفاكهى، انتهاء بالسباعى من تواريخ عامة للحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مكة. ولقد سعى العديد من الأدباء فى مكة فى العقود الأخيرة إلى تسجيل جوانب ثقافية من حياة مكة والمكيين غدت أثراً بعد عين من هؤلاء الرفيع والسباعى والمغربى وسواهم.

ومكة حاضرة بقوة فى العديد من التواريخ الخاصة، مثل كتب الطبقات، وبالذات فى كتب طبقات الفقهاء والمفسرين. فهناك مدارس علمية هامة قامت ولا يزال إشعاعها مستمراً بإذن الله فى هذه العلوم الإسلامية.

ولقد توافرت فى كافة لغات العالم، ومن أبرزها العربية، كتابات شخصية حميمة عن مكة، أسميتها بأدب الحج وهى تدور فى فلك

أدب الرحلة الحجازية، يصور فيها أصحابها رحلتهم «حجهم» إلى هذه المدينة العظيمة. ولن نكون مبالغين إن قلنا: إن هذا الجنس الأدبى/ لثقافى لا يزال جنساً مجهولًا وما نعرفه من أدب الرحلات هو أقل القليل وينبغى بذل جهود كبيرة لاكتشاف ما يمكن أن يقدمه هذا المنجم بالمعلومات. ولا يقتصر الأمر على الكتابة الفصحى الرفيعة، فالأدب الشعبى غنى جداً بما ذكر من أحاسيس ومشاعر ومعلومات عن هذه المدينة الخالدة.

ورغم أن العقود الثلاثة الماضية شهدت نشاطاً مشكوراً لنشر العديد من هذه المدونات التاريخية فى طبعات محققة وتقدم الفهارس الميسرة للباحث أو الدارس، إلا أن هذه الجهود، مع تقديرنا الكبير لها، لاتزال فى أول الطريق والحاجة ماسة جداً لمزيد من التبويب والفهرسة ومن ثم تسهيل توافر المعلومات للباحثين. فكما هو معروف هذه المتون التاريخية بالصورة التى كتبت بها تشكل فقط مادة أولية غنية، لكنها مادة أولية تتطلب التحليل والسير والحفر والأبحاث التاريخية التى تنطلق من أسئلة إشكالية هذه المتون تقدم لها المادة العلمية للإجابة عنها.

وهذه المعلومات، تشتكى كما هو واقع الحال فى حال أى بيانات أولية من النقص وتضارب المعلومات أو تناقضها أحياناً. كذلك بوصفها بيانات أولية، الحاجة ماسة لمقارنتها وضبطها من أجل الوصول إلى ما يسمى «بيانات نوعية» يمكن اعتمادها فى أى تحليل. ولا مانع للوصول إلى ذلك عبر النصوص الواردة فى مظان عديدة أو بالإحالة إلى الشواهد المادية الإشارية ونحو ذلك. وربما كانت الحاجة ماسة من أجل سرعة الحصول على البيانات والمعلومات، أن تدخل فى الحاسوب، بحيث يمكن للباحثين استرجاعها بسهولة عند الطلب من ناحية ومراجعتها فى العديد من المصادر العلمية، ومن ثم الخروج ببيانات موثقة تاريخياً.

تاريخ مكة الثقافى والاجتماعى

رغم وجود العديد من المحاولات لتقديم دراسات تاريخية حديثة عن مكة المكرمة، لكن مع ذلك بإمكاننا القول: إن المكتبة التاريخية المكية لم تظفر بعد بالدراسات الحديثة التى تقدم لمكة نصوصاً تستخدم الأساليب التاريخية الحديثة. وعمليات التحقيب التاريخى، بحيث يمكننا الحديث عن فترات تاريخية قديمة وأخرى وسيطية وحديثة، لا تزال مناطة بالأفكار العامة عن التاريخ الإسلامى، وهى فى ذلك افتراضية وليست دقيقة، تعتمد على شواهد ووثائق تاريخية علمية.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الدراسات التاريخية الكمية لم تعرف طريقها بعد بشكل واضح لمعالجة هذه النصوص والمتون التاريخية. فكما هو معروف هناك أساليب ووسائل علمية جديدة تسعى إلى تحويل البيانات والمعلومات الواردة فى المتون التاريخية العامة إلى أرقام، حتى يسهل تبويبها ومن ثم معالجتها. فمثلًا يقدم لنا المؤرخ والباحث الأمريكى فى التاريخ الإسلامى المبكر روبرت بوليه؛ دراسات كمية عن فتوحات بلاد الشام ومصر، وعن طريق هذه المحاولات التاريخية الكمية تمكّن من إبراز العديد من الأسئلة والقضايا من ناحية وتمكن أيضاً من لفت النظر إلى أن عملية الأسلمة تمت تدريجية وأوضح كيفية انتشار اللغة العربية وأمور أخرى عديدة.

ص: ۸۱

وتقدم دراسات مونتجمرى وات فى كتابيه: «محمد فى مكة» و «محمد فى المدينة» واستخدامه لبعض هذه المتون والتراجم لدراسة الولاءات القبلية والصلات الشخصية فى تفسير بعض جوانب ما جرى فى السيرة النبوية من ناحية وما تم من تحولات فى المجتمع العربى فى فترة الرسالة. لقد أمدت البيانات وات بمعلومات مهمة لاختيار العديد من الفروض والآراء.

وبغض النظر عن النتائج التى توصل إليها هؤلاء العلماء، تبقى مسألة الفائدة من استخدام هذه البيانات ملحة للتعرف على جوانب عديدة من حياة المكيين وتاريخ مكة شرفها الله. فهذه البيانات لا يمكن التعامل معها بوصفها بيانات فردية غير قابلة للتراكم، أو أن هذه المعلومات عند تراكمها لا يمكن أن تقدم لنا صورة أكثر غنى وعمقاً عما تقدمه من تراجم للأفراد كلًا لوحده!

بالإضافة إلى ذلك، فإن أدوات تصنيف البيانات وترميزها ومن ثم تحويلها إلى بيانات كمية أصبح من الأمور الميسورة، بل وهى تستخدم بشكل واسع فى الدراسات التاريخية. وكما أوضحت فى دراسة سابقة عن السجلات العدلية بوصفها منهلًا غنياً وهاماً لكتابة التاريخ الاجتماعى والثقافى، يمكننا أن نعيد التأكيد نفسه. بل إننا نشهد فى الفترة المتأخرة العديد من الدراسات الرائدة لبعض جوانب حياة المدن: دراسة الأعيان أو العلماء أو الحياة الأسرية أو جوانب من الحياة الاقتصادية اعتماداً على السجلات العدلية أو كتب التراجم. ومما يؤسف له أن من يقومون بهذه الدراسات هم فى غالبيتهم من المستشرقين أو العلماء المحدثين، فلقد وقفوا على العديد من الدراسات التاريخية التى قام بها زملاؤهم فى دراساتهم التاريخية عن أوروبا وخلافها. ولعل مدرسة الحوليات، وبالذات كما هو الحال فى كتابات مؤسسها فردناند جرويل وكتاباته عن البحر الأبيض المتوسط، أو كتابات جوانين عن جنيز العاهرة ومن ثم كتاباته عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية ليهود مصر ومن حولهم، من الأمثلة المشهورة والرائدة عن إمكانيات إعادة الفائدة من البيانات الأولية وأحياناً المعلومات المتناثرة. إن عملية إعادة التبويب والتصنيف ومن ثم ربط هذه البيانات ببعضها يفتح آفاقاً واسعة وكبيرة لمزيد من التحليل ومن ثم الإجابة على أسئلة كبرى كان يعتقد لفترة متأخرة جداً أنه لا توجد معلومات أكيدة للإجابة عنها، ومن ثم مال بعض للتخمين أو إصدار أحكام انطباعية.

ويوضح لنا هارلود موتسكى فى دراسة حديثة، كيف أن الدراسة الكمية التفصيلية، يمكن أن تحسم جدلًا وآراء انطباعية استمرت قروناً، عندما عالج مسألة مساهمة بعض الموالى فى تأسيس علم الفقه، وكذلك دحض الآراء القائلة بتأثير الفقه الرومانى عبر النصارى واليهود على الفقه الإسلامى، انطلاقاً من دور مزعوم لبعض الموالى. وكانت المعالجة متميزة بالدقة والأناقة والبساطة معاً، لكنها فوق كل ذلك حاسمة.

«نشر النور والزهر فى تراجم أفاضل مكة» مصدر لدراسة دور العلماء

نسعى فى هذه المداخلة لتقديم كتاب الشيخ عبدالله مرداد أبو الخير، قاضى مكة والمتوفى عام ۱۳۴۳ هـ، «نشر النور والزهر فى تراجم أفاضل مكة»، وكيف أنه باستخدام أساليب التاريخ الكمية يمكن تحويل هذا المصدر التاريخى إلى منجم معلومات هام عن أعمال علماء الحرم المكى تخصيصاً من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر.

والنص الذى سنعالجه هنا هو المختصر الذى قام بتبويبه وتحقيقه كلٌ من محمد سعيد العامودى وأحمد على، ولقد تم التحقيق عن مخطوطة لكتاب بمكتبة الشيخ عبدالوهاب الدهلوى. ويحتوى الكتاب على تراجم (۶۰۵) من علماء مكة المكرمة ومن بين هؤلاء (۳۰) سيدة! وينتمى هؤلاء العلماء الأفاضل إلى المذاهب الفقهية الأربعة وتعود أصولهم الإثنية إلى كافة الأعراق الإسلامية، فهم من العرب والأفارقة ومن كافة أصقاع آسيا شرقاً وجنوباً ووسطاً بل وأقاصى جنوبها وكذلك الحال فى أفريقيا!

والكتاب قدم تراجم مختصرة عن هؤلاء العلماء، وتتفاوت التراجم المقدمة من حيث المادة المقدمة من حيث التفاصيل التى قد تقدم لهذا العالم عن غيره، لكن إجمالًا هناك انتظام فى تقديم معلومات أساسية عن الجميع. وحتى نفيد من هذه المعلومات أو بالأصح البيانات الأولية، سعينا إلى تحديد (۱۴) مدخلًا للمعلومات قمنا بإعداد البرنامج الحاسوبى لترميزها وإدخالها فيه.

وهـذه المـداخل أو المتغيرات بلغـة العلوم الرياضـية تشـمل: اسم العـالم وتاريـخ ميلاـده ومكان الميلاد، تاريـخ الوفاة ومكانها، اللقب، الكنيـة، المذهب، قائمة المصـنفات التى ألفها، العلوم التى تعلمها، العلوم التى قام بتدريسـها، أشـهر أساتذته كما ورد فى المتن، أشـهر تلاميذه كما ورد فى المتن، أعماله العامة، أهم الصفات التى اشتهر بها وأخيراً سفريّاته.

بطبيعـة الحال قـد تغيب فى المتن بعض هـذه المتغيرات أو قـد لا تنطبق على المترجم له. لكن بحسب اطلاعنا على تراجم الكتاب كان هناك حرص من المؤلف على ذكر كافة هذه البيانات. ولقد عملنا على إعداد البرنامج الحاسوبى على إدخال كافة التفاصيل الممكنة، لكن بشـكل معيـارى، فمثلًا قـد نكتفى فى ذكر الاـسم بالاسم الرباعى فقط، وفى حالـة عـدم توافر هـذه المعلومـة أو أن المؤلف قـدم تفاصـيل أطول فإننا سنسـعى إلى إكمال النقص من مصادر أخرى، وفى حالـة تقـديم معلومات أطول نكتفى بأربعـة أسـماء فقط! وفى حالـة عـدم توافر معلومـة مـا، مثلًا عـدم تقـديم المـذهب أو اللقب أو الكنيـة صـراحة، فإننا سنسـعى إلى توفيرها من مصادر أخرى، إن أمكن، وفى حالة عدم توافرها سنترك ذلك بدون بيانات.

أمـا بخصوص المصـنفات، فإن المؤلف غالباً ما يقـدم معظم مصـنفات المترجم له، وهى فى مجالات علميـة عديـدة، لـذا فإن البرنامج مصـمم على ذكر كل عنوان لوحـده ثم الإشارة إلى العلم الـذى ينتمى إليه: فقه، توحيـد، تفسـير، أدب، نحو، سـيرة (تاريخ)، تصوف، ونمط، حتى يأخذ أسـماءهم الرباعية منعاً لأى التباس، ومن ثم قد نستعين بالكتاب نفسه فى إكمال ما قد ينقص فى أسماء الأساتذة أو الطلاب.

ولقـد كانت لبعض العلماء مشاركات مهمـة فى الحياة الاجتماعيـة أو السياسـية ولقد أخذنا بهذه المعلومات وقمنا بتبويبها إلى نشاطات مختلفـة تعكس ما كان يجرى فى الساحـة الفكريـة والسياسـية العامة. وكذلك يذكر المؤلف بعض الصـفات الشخصـية للمترجم لهم، عرفوا بها على نطاق واسع فى الأوساط المكية أو العالم الإسلامى أبرزتها لتوضيح الأدوار الثقافية والسياسية لعلماء الحرم الشريف على المستويين الشخصى والعام.

ص: ۸۲

أما رحلات وسفريات هؤلاء العلماء وهى سفريات قام بعضهم بها فقط فكانت مهمة للتعرف على شبكات العلاقات العلمية والسياسية لهؤلاء العلماء الذين كانوا يتنقلون بين أوطانهم التى ولدوا فيها ومكة وعبرها إلى أجزاء مختلفة من العالم، كما هو حال العديد من العلماء الحضارمة مثلًا.

ونظراً لأن المشروع فى مراحله الأولية، فإننى سأقدم وصفاً موجزاً لما يمكن أن يحققه المشروع بإذن الله للدراسات المكية التاريخية. أولًا قمنا بإعداد أداة جمع المعلومات وهى كما ذكرنا فى (۱۴) مدخلًا بحسب ما أوردنا من تفاصيل. وسيقوم فريق البحث بإدخال هذه المعلومات فى الحاسوب ثم مراجعة البيانات التى تم إدخالها للتأكد من صحتها ومطابقتها لما ورد فى المتن الأساس، وهذا يُعرف باختيار جودة البيانات من حيث الصدق والثبات.

بعد ذلك، سنتمكن من الحصول على بيانات تفصيلية عن المترجم لهم بشكل عام من حيث سنوات الميلاد والوفاة وتوزيعهم على المذاهب الفقهية وقائمة بألقابهم وكنياتهم وغير ذلك من معلومات. لكن هذه المعلومات ما هى سوى فهرسة للبيانات الواردة وتبويب وترتيب لها، لكن وجودها الآن بهذه الصورة المنظمة والرقمية سيساعدنا بإذن الله على الإجابة على العديد من الأسئلة، من خلال ما يعرف بالمقاربات والمقابلات بين البيانات noitalubatssorC وهى أمور سهلة ومتعارف عليها عند المختصين، كذلك سنتمكن من التعرف على مشجرات الأسماء والكتب التى قام هؤلاء العلماء بتصنيفها أو دراستها، كما سنوضح.

فمثلًا، سنتمكن من خلال معرفة تواريخ الوفيات وربطها بمتغيرات أخرى معرفة معلومات فى غاية الطرافة والأهمية، فمثلًا بالربط بين تواريخ الوفيات والمذهب الفقهى، يمكننا معرفة أى علماء المذاهب كانوا الأكثر انتشاراً ووجوداً فى عقود مختلفة فى الحرم الشريف عموماً. بمعنى مثلًا بإمكاننا عن طريق هذه التواريخ فى كل قرن: العاشر، الحادى‌عشر، الثانى‌عشر، الثالث‌عشر، الرابع‌عشر، معرفة الحرم كم كان عدد علماء السادة الأحناف، الشافعية، المالكية، الحنبلية، فى هؤلاء العلماء.

وانطلاقاً من ذلك يمكننا تقدير تبعات ذلك الفكرية والسياسية والعلمية وأثر ذلك على التفاعل والتنافس بين هؤلاء العلماء. بل يمكننا أن نقدر الأمر حتى بحسب العقود ومن ثم معرفة هذه الأعداد فى تفاوتها بين فترة وأخرى ومن ثم إمكانية تفسير ذلك بحسب تاريخ مكة وما وقع فيها من أحداث أو النظام السياسى السائد، وكذلك نوعية التدخلات الخارجية والسياسية الدولية، خاصة وأننا نتناول حقبة كان الاستعمار وتدخله فيها معروفاً فى أحوال العالم الإسلامى!

ويمكننا فعل الشىء نفسه بخصوص العلاقة بين مذهب المترجم له ونوعية المصنفات التى ألفها وكذلك التى تعلمها أو قام بتدريسها، ومن خلال المقارنات يمكننا التعرف على اهتمام علماء المذاهب المختلفة العلمية، بحيث يمكننا الإجابة على أسئلة مثل: هل كان الأحناف أكثر العلماء اهتماماً بالدراسات الفقهية؟ وما هى أهم المصادر العلمية التى يقبلون عليها عبر القرون؟ وما هى المصنفات التى صنفوها؟ بل يمكننا إجمالًا الربط بين نوعية الكتب المصنفة أو المدروسة أو المدرّسة بحسب تواريخ الوفيات، لتقدير فترات الانتعاش الفكرى أو انحساره فى حياة الحرم الشريف العلمية ومحاولة تفسير ذلك بحسب الظروف السياسية والثقافية والاقتصادية السائدة آنذاك على المستويين: المحلى والدولى.

ويمكننا الربط بين اللقب والكنية والمذهب لمعرفة من أى الخلفيات الاجتماعية والإثنية هؤلاء العلماء؟ هل الأحناف فى غالبيتهم من شبه القارة الهندية ووسط آسيا والأناضول؟ هل السادة الشافعية من اليمن وإندونيسيا ومصر؟ وهكذا. والعمل على معرفة دلالات ذلك على المستوى الاجتماعى والثقافى. بل أحياناً قد تساعدنا البيانات نفسها كما وجدت إلى أنه داخل المذهب الواحد هناك تفاصيل تستحق الدراسة والتفصيل. فمثلًا بين الشافعية نجد نوعاً من تقسيم العمل. فالسادة العلويون من الشافعية الحضارمة يميلون إلى الاهتمام بتدريس السيرة والمواعظ الدينية والتصوف، بينما يميل الحضارمة الشافعية من غير السادة العلويين إلى الفقه والقضاء، ينافسهم فى ذلك الشافعية المصريون، أما الشافعية الأندونيسيون فإنهم يهتمون فى الغالب بدراسة وتدريس اللغة والأدب العربى، وهكذا نجد إذن

تفاصيل يمكن أن تفسر ديناميات الاهتمامات التى يقوم العلماء بتدريسها والاهتمام بها.

أما الربط بين المترجم لهم وأساتذتهم فإن هذا الربط سيساعد جداً على التعرف على ما يمكن أن يسمى سلاسل العلماء ومدارسهم، وهى ستمكن من الإجابة عن من علّم منه؟ وبربطها بالمذهب يمكننا الإجابة عما إذا كان التعليم مقتصراً فى مجال معرفى أو كافة المجالات المعرفية داخل مذهب واحد أم أكثر؟!

بل وبالإمكان التعرف على مدى استمرارية حلقة أو سلسلة تعليمية عبر الزمان، والإجابة على الكيفية التى تواترت فيها هذه السلسلة من العلماء وما هى العوامل التاريخية: الاجتماعية أو السياسية التى حالت أو ساعدت على الاستمرار. وفى هذا الخصوص تصبح العوامل الداخلية والخارجية مهمة فى فهم ما يجرى على الساحة العلمية الفكرية والتفاعلات المستمرة بين هذه الآفاق.

أما مهام العلماء وهى وإن كانت محدودة فى معظم الأحيان بمهام تدريسية أو قضائية أو لعب بعض الأدوار فى الحياة السياسية والثقافية المحلية، لكن فى بعض الأحيان قد تأخذ شكل سفارات للتدخل فى سياسات بعض الدول العربية أو الإسلامية. فإن هذه المهام ستوضح الأدوار التى لعبها العلماء فى حياة مجتمعهم وتأثيرهم فيه وأهمية هذا التأثير. فكما هو معروف للعديد من هؤلاء العلماء طلاب ومريدون من أصحاب المهن والتجار وهؤلاء يشكلون بشكل ما جمهور المثقفين فى تلك الفترات التاريخية، ومن المفيد معرفة المعلومات لفهم ومعرفة ما يجرى على الساحة الفكرية والاجتماعية المكية.

أما سفريات العلماء وشبكات العلاقات فيما بينهم فإنها إن ربطت بالمذهب والكنية فإنها ستوضح مجالات التأثير السياسى والثقافى لهؤلاء العلماء فى حياة الأمة آنذاك، وكذلك ربما قدمت لنا معلومات عن أدوارهم فى معارك الاستقلال والتحرير من ربقة الاستعمار. كذلك توضح من هذه الارتباطات مدى التداخل بين مدرسة الحرم الشريف مع غيرها من مدارس فكرية فى العديد من الأقطار الإسلامية وأهمية ذلك فى معرفة ودراسة الحركة العلمية والفكرية العامة.

ص: ۸۳

أما ما يقدمه كتاب «نشر النور والزهر» عن الفاضلات من علماء الحرم الشريف فإنه يشكل صفحة ناصعة ومشرفة من تاريخنا العلمى والاجتماعى تستحق الإشادة والفخر. فلقد توافر فى المسجد الحرام ومكة إجمالًا زمن كانت فيه حلقات علم ودرس للمرأة ولقد توصلت بعضهن إلى مستويات رفيعة من العلم والمعرفة جعلت مؤرخاً مثل السيد عبدالله مرداد أبو الخير يضع لهن مكانة ومنزلة فى تراجمه للعلماء وأفاضل مكة. وبطبيعة الحال ربط هؤلاء النساء من حيث تواريخ الوفيات أو المذهب أو الكنية سيساعد على معرفة أى المذاهب عنيت بتعليم المرأة وتشجيعها على النبوغ والتبريز؛ وكذلك أى الخلفيات الإثنية، هل للعربيات دور أم كل الدور لغير العرب؟ إن وجود الطبريات وبهذا الزخم يدل إضافة إلى كل ذلك على وجود تقاليد عائلية ربما امتدت لقرون فى شأن تعلم المرأة ورقيها.

أما معرفة ما اهتمت المرأة بتعلمه وتعليمه وأشهر التلاميذ والأساتذة فإن هذه الارتباطات تمكننا من إبراز وفهم ما يمكن أن نسميه المدرسة النسائية المكية. وكيف أن أوضاع المرأة فى القرون الماضية على قلة المعلومات المتوافرة لم تكن كلها جهلًا وأمية كما هو سائد، وربما مزيد من البحث والتنقيب ستفرج عنه تفاصيل أوسع وأكبر عن المرأة وأدوارها العلمية والفكرية المختلفة.

وهكذا فإن عملية تكميم البيانات يمكن أن تساعد على فتح آفاق جديدة والإفادة القصوى من بيانات فردية متقطعة مجزأة.

نأمل أن نتمكن من إتمام مشروعنا هذا، الذى لا تقف فى طريقه سوى بعض الصعاب المالية والفنية التى نرجو أن نتجاوزها فى القريب. آملين بعرضنا المتواضع هذا أن نكون قد أبرزنا جانباً من جوانب خدمة تراث مكة، وأملنا أن توسع المشاريع لتشمل الموسوعات الكبرى فى تاريخ مكة كالعقد الثمين.

ص: ۸۴

أوّل بيت

رافد الفاضل

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبارَکاً وَهُدیً لِلْعالَمِینَ). (۱)

إنه الأول فی الموقع الأهم، والأول فی الخير والعطاء، والأول فی أماكن العبادة وبيوتها، إنه المسجد الحرام، ذلك المكان المقدس الواقع فی قلب الدنيا فی قلب مكة المكرمة، قلب الحرم المكی، القلب النابض الذی تتوسّطه الكعبة المشرفة، قبلة المسلمين أينما كانوا، ومركز شعائرالله الأخرى التی يقوم بها الناس فی الحج والعمرة.. إنه أرض الله الحرام المباركة وآياته البينات التی راحت تشكل بمجموعها بيت الله المخصّص للعبادة للطائفين والعاكفين والركع السجود حيث فرض الله الحج إليه لمن استطاع إليه سبيلًا.. وجعله مباركاً وجعله هدی للعالمين، وهو بالتالی بيت مبارك تضاعف فيه الحسنات، وتتنزل فيه الرحمات، وتتعاظم فيه الدرجات وبيت صلاح وهداية للناس أجمعين.. وهو مثابة الأمن للخائفين (وَمَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً) منذ أن بناه خليل الله إبراهيم وإسماعيل ۸.

«فهذا هو البيت كما يقول سيد قطب الذی اختاره الله للمسلمين قبلة.. وهو بيت الله الذی جعل له هذه الكرامة. وهو أول بيت أقيم فی الأرض للعبادة. وهو بيت أبيهم إبراهيم، وفيه شواهد علی بناء إبراهيم له. والإسلام هو ملة إبراهيم. فبيته هو أولی بيت بأن يتجه إليه المسلمون. وهو بمثابة الأمان فی الأرض. وفيه هدی للناس، بما أنه مثابة هذا الدين ...».

وأما الشيخ المكارم فيقول: «فلا عجب إذن أن تكون الكعبة قبلة للمسلمين، فهی أول مركز للتوحيد، وأقدم معبد بنی علی الأرض ليعبد فيه الله سبحانه ويوحّد، بل لم يسبقه أی معبد آخر قبله، إنه أول بيت وضع للناس ولأجل خير المجتمع الإنسانی فی نقطة من الأرض محفوفة بالبركات، غنية بالخيرات، وضع ليكون مجتمع الناس، وملتقاهم ...».

إن المصادر الإسلامية والتاريخية والقول ما زال للشيخ تحدثنا بأن الكعبة تأسّست علی يدی آدم ۷ ثمّ تهدمت بسبب الطوفان الذی وقع فی عهد النبی نوح، ثمّ جدد بناءها النبی العظيم إبراهيم الخليل ۷؛ فهی إذن عريقة عراقة التاريخ البشری.

ولاشكّ أن اختيار أعرق بيت اسس للتوحيد من أجل أن يكون قبلة للمسلمين، أولی وأفضل من اختيار أية نقطة أُخری وأی مكان آخر.

هذا، وممّا يجدر الانتباه إليه هو أن (الكعبة) والتی تسمی فی تسمية أُخری ب- (بيت الله) وصفت فی هذه الآية بأنها (بيت للناس)، وهذا التعبير يكشف عن حقيقة هامة وهی: أن كلّ ما يكون باسم الله ويكون له، يجب أن يكون فی خدمة الناس من عباده، وأن كلّ ما يكون لخدمة الناس وخير العباد فهو لله سبحانه.

كما تتضح ضمن ما نستفيده من هذه الآية قيمة الأسبقية فی مجال العلاقات بين الخلق والخالق، ولذلك نجد القرآن يشير فی هذه الآية إلی أسبقية الكعبة علی جميع الأماكن الأُخری، وإلی تاريخها الطويل الضارب فی أعماق الزمن، معتبراً ذلك أول وأهم ما تتسم به الكعبة من الفضائل والمزايا ...» وسنذكر بعض أقوال المفسرين فی الآتی. (۲)

و يقول الكاتب الحجازی عمر المضواحی ذو الاهتمام بالكتابة عن الأماكن المقدسة وتاريخها:

۱- آل‌عمران: ۹۶.

۲- انظر فی ظلال القرآن وتفسير الأمثل: الآية.

ص: ۸۵

إن من أسرار الكعبة أنها صرة الأرض وموصولة بالبيت المعمور فى السماء السابعة، وأول بيت وضع للناس بناه إبراهيم وابنه إسماعيل ۸، وليس هناك فى الكون بقعة أكثر مهابة وقدسية من هذه الحجرة المكعبة..

وعن موضوع العبادة والكعبة يقول:.. لم تعبد فى تاريخها من دون الله قط، فقد كان العرب يعبدون الأصنام والأوثان حولها ولم يخصوها أبداً بالعبادة، حجّ إليها كل الأنبياء، ومجرد النظر إليها عبادة تعادل أجر عابد فى غير مكة.

ثم يضيف المضواحى عما سجله قلمه عن هذه البقعة التى توصف بأنها قدس الأقداس الإسلامية:

حول الكعبة ثلاثة أسرار لا يوجد مثيل لها فى الأرض، الحجر الأسود، ومقام إبراهيم، وهما ياقوتتان من يواقيت الجنة، وبئر زمزم وهو نهر من أنهار الجنة ينبع عينه المتدفق من تحت أعتاب الحجر الأسود.

بحث لغوى فى الآية الكريمة

اللغة: بكة: لغة فى مكة وسميت مكة لأنها قليلة الماء تقول العرب: مك الفصيل ضرع أمه وأمكه إذا امتص ما فيه من اللبن. وفى القاموس ما يدل على أنها سميت بذلك لأنها تمك الذنوب أى تمحوها وتزيلها. وذكروا أيضاً: أن أصل بكة البك وهو الزحم، يقال: بكه يبكه بكاً إذا زحمه ويباك الناس إذا ازدحموا فيها قال:

إذا الشريب أخذته الاكه

فخله حتى يبك بكه

فبكة مزدحم الناس للطواف وهو ما حول الكعبة من داخل المسجد الحرام. وقيل: سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تذلهم وتهلكهم إذا ألحدوا فيها بظلم ولم يمهلوا.

هذا وإن اشتقاق مكة يجوز أن يكون كاشتقاق بكة وإبدال الميم من الباء كقوله: «ضربة لازب ولازم»، ويجوز أن يكون من قولهم: أمتك الفصيل ما فى ضرع الناقة إذا مص مصاً شديداً حتى لا يبقى منه شىء، ومك المشاش مكاً إذا تمشش بفيه فسميت مكة بذلك لقلة مائها ..

وأصل البركة الثبوت من قولهم برك بروكاً أو بركاً إذا ثبت على حاله، فالبركة ثبوت الخير بنموّه، ومنه البركة شبه الحوض يمسك الماء لثبوته فيه، ومنه قول الناس: تبارك الله لثبوته لم يزل ولا يزال وحده.

وقفة إعرابية مع الآية:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ).

كلام مستأنف مسوق للدلالة على أن أول مسجد وضع للناس هو المسجد الحرام ثم البيت المقدس، وأول من بناه إبراهيم ۷.

وإنّ واسمها وبيت مضاف إليه، ووضع فعل ماض مبنى للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره: هو، وللناس جار ومجرور متعلقان بوضع، والجملة صفة لبيت، وللذى اللام المفتوحة هى المزحلقة، والذى اسم موصول فى محل رفع خبر إن، وببكة جار ومجرور متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة الموصول، ومباركاً حال من اسم الموصول أو من الضمير المستكن فى متعلق الجار والمجرور، وهدى عطف على مباركاً، وللعالمين جار ومجرور متعلقان بهدى، أى هادياً لهم (۱)..

وذكروا فى أسباب النزول

تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء وفى الأرض المقدسة. وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل. فأنزل الله تعالى هذه الآية (۲)

الآية وأقوال المفسرين

قبل أن نتعرض إلى بعض أقوال المفسرين نلقى ضوءاً بسيطاً على مفردات الآية المباركة؛ فالآية تتوفر على خصائص رائعة هى صفات

للبيت فإضافة إلى أنه وصف بأول بيت ظهر على وجه الأرض فيما يحمله من مزايا عالية وأهداف سامية وفضائل عظيمة، راح يتحلى بمزايا أخرى وهى كونه (مباركاً) والبركة تعنى لغةً النماء والخير والزيادة والسعادة والرفعة، ونظراً لعدم وجود تحديد لها فهى واسعة ولعدم وجود ما يخصصها بنوع فهى تشمل المعنوية والمادية.. وكونه (هدى للعالمين) والهدى لغة الرشاد والطريق والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب، وهنا يجد الإنسان ما يدلّه على دين الله ومغفرته ورضوانه ...

۱- انظر: تفسير مجمع البيان وإعراب القرآن الكريم.

۲- انظر: أسباب النزول للواحدى: الآية.

ص: ۸۶

وقد اختلفت الأقوال بین کونه أول بیت وضع للناس، یعبد الله فیه مبارکاً وهدی للعالمین ببکة وبین أنه هو أول بیت وضع فی الأرض، وقیل: قبلها بألفی عام، وکانت زبدة بیضاء علی الماء لأنه قد کانت قبله بیوت کثیرة. وبین أنه خلق قبل جمیع الأرضین، أو عند خلق السماء والأرض، ثم دحِیت الأرضون من تحته. أو هو موضع الکعبة، موضع أوّل بیت وضعه الله فی الأرض.

فقد روی عن علی بن الحسین ۷: أن الله تعالی وضع تحت العرش بیتاً وهو البیت المعمور، وأمر الملائکة أن یطوفوا به، ثم أمر الملائکة الذین هم سکان الأرض أن یبنوا فی الأرض بیتاً علی مثاله وقدره، فبنوا واسمه الضراح، وأمر مَنْ فی الأرض أن یطوفوا به کما یطوف أهل السماء بالبیت المعمور.

وروی أن الملائکة بنوه قبل خلق آدم بألفی عام، وکانوا یحجّونه، فلما حجه آدم، قالت الملائکة: بر حجک یا آدم، حججنا هذا البیت قبلک بألف عام، ویرُوی عن ابن عباس أنه قال: أراد به أنه أول بیت بناه آدم فی الأرض، وقیل: هو أول بیت مبارک وضع فی الأرض هدی للناس، یروی ذلک عن علی بن أبی طالب ۷، قال الضحاک: أول بیت وضع فیه البرکة. وقیل: أول بیت وضع للناس یحج إلیه. وقیل: أول بیت جعل قبلة للناس. وقال الحسن والکلبی: معناه: أول مسجد ومتعبد وضع للناس یعبد الله فیه کما قال الله تعالی: (فِی بُیُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ) یعنی المساجد.

وبعد هذه الإشارات المختصرة نقرأ ما یقوله کل من صاحب المیزان وتفسیر الأمثل بخصوص أنه أول بیت وکونه مبارکاً وهدی للعالمین.

السید الطباطبائی فی میزانه

و المستفاد من الآیة إن أول بیت أنهم جمعوا فی شبهتهم بین شبهة النسخ وبین انتساب الحکم إلی ملة إبراهیم فیکون محصل الشبهة: أن الکعبة کیف یمکن أن یکون قبلة فی ملة إبراهیم مع أن الله جعل بیت المقدس قبلة، وهل هذا إلا القول بحکم نسخی فی ملة إبراهیم الحقة مع کون النسخ محالًا باطلًا؟

و الجواب: إن الکعبة موضوعة للعبادة قبل غیرها کبیت المقدس فلقد بناها إبراهیم من غیر شک ووضعها للعبادة، وفیها آیات بینات تدل علی ذلک کمقام إبراهیم، وأما بیت المقدس فبانیه سلیمان وهو بعد إبراهیم بقرون.

قوله تعالی: (إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ) إلی آخر الآیة، البیت معروف، والمراد بوضع البیت للناس وضعه لعبادتهم وهو أن یجعلوه ذریعة یتوسل به إلی عبادة الله سبحانه، ویستعان به فیها بأن یعبد الله فیه، وبقصده والمسیر إلیه وغیر ذلک، والدلیل علی ذلک ما یشتمل علیه الکلام من کونه مبارکاً وهدی للعالمین وغیر ذلک، ویشعر به التعبیر عن الکعبة بالذی ببکة فإن فیه تلویحاً إلی ازدحام الناس عنده فی الطواف والصلاة وغیرهما من العبادات والمناسک، وأما کونه أول بیت بنی علی الأرض ووضع لینتفع به الناس فلا دلالة علی ذلک من جهة اللفظ.

و المراد ببکة أرض البیت سمیت بکة لازدحام الناس فیها، وربما قیل: إن بکة هی مکة، وأنه من تبدیل المیم باء کما فی قولهم: لازم ولازب وراتم وراتب ونحو ذلک، وقیل: هو اسم للحرم، وقیل: المسجد، وقیل: المطاف.

و المبارکة مفاعلة من البرکة وهی الخیر الکثیر، فالمبارکة إفاضة الخیر الکثیر علیه وجعله فیه، وهی وإن کانت تشمل البرکات الدنیویة والأخرویة، إلا أن ظاهر مقابلتها مع قوله: (هُدیً لِلْعالَمِینَ) أن المراد بها إفاضة البرکات الدنیویة وعمدتها وفور الأرزاق وتوفر الهمم والدواعی إلی عمرانه بالحج إلیه والحضور عنده والاحترام له وإکرامه فیؤول المعنی إلی ما یتضمنه قوله تعالی فی دعوة إبراهیم: (رَبَّنا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِیُقِیمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ) (۱).

وکونه هدی هو إراءته للناس سعادة آخرتهم، وإیصاله إیاهم إلی الکرامة والقرب والزلفی بما وضعه الله للعبادة، وبما شرع عنده من

أقسام الطاعات والنسك ولم يزل منذ بناه إبراهيم مقصداً للقاصدين ومعبداً للعابدين ...

فهو هدى بجميع مراتب الهداية آخذة من الخطور الذهنى إلى الانقطاع التام الذى لا يمسه إلا المطهرون من عباد الله المخلصين.

على أنه يهدى عالم المسلمين إلى سعادتهم الدنيوية التى هى وحدة الكلمة وائتلاف الأمة وشهادة منافعهم، ويهدى عالم غيرهم بإيقاظهم وتنبيههم إلى ثمرات هذه الوحدة وائتلاف القوى المختلفة المتشتتة.

ومن هنا يظهر أولًا: أنه هدى إلى سعادة الدنيا والآخرة كما أنه هدى بجميع مراتب الهداية، فالهداية مطلقة.

وثانياً: أنه هدى للعالمين لا لعالم خاص وجماعة مخصوصة كآل إبراهيم أو العرب أو المسلمين؛ وذلك لما فيه من سعة الهداية.

الشيخ المكارم الشيرازى فى أمثله

«المبارك» يعنى كثير الخير والبركة، وإنما كانت الكعبة المعظمة مباركة لأنها تعتبر بحق واحدة من أكثر نقاط الأرض بركة وخيراً، سواء الخير المادى، أم المعنوى.

۱- إبراهيم: ۳۷.

ص: ۸۷

وأما البركات المعنوية التى تتحلى بها هذه الأرض وهذه المنطقة من اجتماع الحجيج فيها، وما ينجم عن ذلك من حركة وتفاعل ووحدة، وما يصحبه من جاذبية ربانية تحيى الأنفس والقلوب وخاصة فى موسم الحج فمما لا يخفى على أحد.

ولو أن المسلمين لم يقصروا اهتمامهم فى موسم الحج على الجانب الصورى لهذه الفريضة بل أحيوا روحها، والتفتوا إلى فلسفتها، لاتضحت حينذاك البركات المعنوية، وتجلت للعيان أكثر فأكثر، هذا من الناحية المعنوية.

وأما من الناحية المادية، فإن هذه المدينة رغم أنها أقيمت فى أرض قاحلة لا ماء فيها ولا عشب، ولا صلاحية فيها للزراعة والرعى بقيت على طول التاريخ واحدة من أكثر المدن عمراناً وحركة، وكانت دائماً من المناطق المؤهلة خير تأهيل للحياة، بل وللتجارة أيضاً.

أجل، إن الكعبة هدى للعالمين فهى تجتذب الملايين من الناس الذين يقطعون إليها البحار والوهاد، ويقصدونها من كلّ فج عميق ليجتمعوا فى هذا الملتقى العبادى العظيم، وهم بذلك يقيمون هذه الفريضة فريضة الحجّ التى لم تزل تؤدى بجلال عظيم منذ عهد الخليل ۷.

ولقد كانت هذه البنية معظمة أبداً حتّى من قبل العرب الجاهليين، فهم كانوا يحجون إليها وإن مزجوا مناسك الحجّ ببعض خرافاتهم وعقائدهم الباطلة، إلَّا أنهم ظلوا أوفياء لهذه المناسك على أنها دين إبراهيم، وقد كان لهذه المناسك والمراسم الناقصة، والخليطة أحياناً بالخرافات الجاهلية، أثرها فى سلوكهم، حيث كانوا يرتدعون بسببها عن بعض المفاسد بعض الوقت، وهكذا كانت الكعبة سبباً للهداية حتّى للوثنيين ...

إن لهذا البيت من الجواذب المعنوية ما لا يستطيع أى أحد أن يقاومها ويصمد أمام تأثيرها الأخّاذ.

إن فى هذا البيت معالم واضحة وعلائم ساطعة لعبادة الله وتوحيده، وفى تلك النقطة المباركة من الآثار المعنوية ما يبهر العيون ويأخذ بمجامع القلوب. وإن بقاء هذه الآثار والمعالم رغم كيد الكائدين وإفساد المفسدين الذين كانوا يسعون إلى إزالتها ومحوها لَمن تلك الآيات التى يتحدث عنها القرآن فى هذا الكلام العلوى.

الكعبة والروايات

هذه مجموعة من الروايات التى تلقى بظلالها على هذا المكان المبارك رأينا ذكرها كما هى من مصادرها الحديثية:

۱- روى أنه إنما سميت كعبة لأنها مربعة، وصارت مربعة لأنها بحذاء البيت المعمور وهو مربع، وصار البيت المعمور مربعاً لأنه بحذاء العرش وهو مربع، وصار العرش مربعاً، لأن الكلمات التى بنى عليها الإسلام أربع وهى: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

۲- ووضع البيت فى وسط الأرض لأنه الموضع الذى من تحته دحيت الأرض، وليكون الفرض لأهل المشرق والمغرب فى ذلك سواء.

۳- وفى الدر المنثور، أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق الشعبى عن على بن أبى طالب ۷، فى قوله: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ)، قال: كانت البيوت قبله ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله.

وعن ابن شهرآشوب عن أمير المؤمنين ۷، فى قوله تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ...) فقال له رجل: أهو أول بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً، فيه الهدى والرحمة والبركة. وأول من بناه إبراهيم، ثم بناه قوم من العرب من جرهم، ثم هدم فبنته العمالقة ثم هدم فبناه قريش.

۴- عن خالد بن عرعرة قال: قام رجل إلى على ۷ فقال: ألا تحدِثنى عن البيت: أهو أول بيت وضع فى الأرض؟

قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً. وذكر تمام الخبر فى كيفية بناء إبراهيم البيت.

۵- عن سماك، عن خالد بن عرعرة قال: قام رجل إلى علىّ ۷ فقال: ألا تخبرنى عن البيت؟ أهو أول بيت وضع فى الأرض؟

فقال: لا، ولكنه أول بيت وضع فى البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً.

۶- وفى رواية عن أبى عبدالله الصادق ۷ قال: موضع البيت بكة، والقرية مكة.

وفى العلل، عن الصادق ۷: موضع البيت بكة، والقرية مكة.

وفيه، أيضاً عنه ۷: إنما سميت بكة بكة لأن الناس يبكون فيها.

أقول: يعنى يزدحمون.

وفيه، عن الباقر ۷: إنما سميت مكة بكة لأنه يبك بها الرجال والنساء، والمرأة تصلى بين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك ومعك ولا بأس بذلك إنما يكره ذلك فى سائر البلدان.

ص: ۸۸

و فيه، عن الباقر ۷ قال: لما أراد الله أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربن متن الماء حتى صار موجاً ثم أزبد فصار زبداً واحداً فجمعه فى موضع البيت ثم جعله جبلًا من زبد ثم دحى الأرض من تحته، وهو قول الله: إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً، فأول بقعة خلقت من الأرض الكعبة، ثم مدت الأرض منها.

۷- عن أبى ذَر، رضى الله عنه، قال: «قلت: يا رسول الله، أى مسجِد وضع فى الأرض أول؟

قال: «المسجِد الحرام».

قلت: ثم أى؟ قال: «الْمسجِد الأقصى». قلت: كم بينهما؟

قال: «أربعون سنة».

قلت: ثم أى؟

قال: ثُم حيث أدركت الصلاةَ فَصل، فكلها مسجد».

۸- أخبرنا إبراهيم بن يزيد التيمى، عن أبيه، قال سمعت أبا ذر يقول: قلت: يا رسول الله! أى مسجد وضع فى الأرض أولًا؟

قال: «المسجد الحرام، قلت: ثم أى؟ قال: المسجد الأقصى قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة، ثم أينما أدركتْكَ الصلاة بعد فصل، فإن الفضل فيه».

۹- عن ابن عباس قال: مكة من الفج إلى التنعيم، وبكة من البيت إلى البطحاء.

وأما بخصوص ما ورد فى بعض الروايات عن دحو الأرض من تحت الكعبة، فالسيد الطباطبائى يذهب الى عدم مخالفتها للكتاب حيث يقول: والأخبار فى دحو الأرض من تحت الكعبة كثيرة، وليست مخالفة للكتاب، ولا أن هناك برهاناً يدفع ذلك غير ما كانت تزعمه القدماء من علماء الطبيعة أن الأرض عنصر بسيط قديم، وقد بان بطلان هذا القول بما لا يحتاج إلى بيان.

ثم يقول: «و هذا تفسير ما ورد من الروايات فى أن الكعبة أول بيت، أى بقعة فى الأرض، وإن كان الظاهر من الآية ما تشتمل عليه الروايتان.. أى رواية ابن شهر آشوب ورواية الدر المنثور المذكورتان أعلاه».

الكعبة والطواف

فى أخبار مكة حديث منسوب إلى محمد بن على بن الحسين: وفى الأعلام حدثنا الإمام محمد الباقر بن الإمام على زين العابدين بن الحسين بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب: أنه قال: «كنت مع أبى على بن الحسين بمكة فبينما هو يطوف بالبيت وأنا وراءه إذ جاءه رجل شرجع من الرجال يقول طويل، فوضع يده على ظهر أبى، فالتفت أبى إليه فقال الرجل: السلام عليك يا ابن بنت رسول الله، إنى أريد أن أسألك، فسكت أبى وأنا والرجل خلفه حتى فرغ من أسبوعه، فدخل الحجر، فقام تحت الميزاب، فقمت أنا والرجل خلفه فصلى ركعتى أسبوعه ثم استوى قاعداً، فالتفت إلىّ، فقمت فجلست إلى جنبه، فقال: يا محمد! فأين هذا السائل؟ فأومأت إلى الرجل، فجاء فجلس بين يدى أبى فقال له أبى: عم تسأل؟ قال: أسألك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت لم كان وأنى كان وحيث كان وكيف كان؟ فقال له أبى: نعم من أين أنت؟ قال: من أهل الشام، قال: أين مسكنك؟ قال: فى بيت المقدس قال: فهل قرأت الكتابين؟ يعنى التوراة والإنجيل قال الرجل: نعم قال أبى: يا أخا أهل الشام! احفظ ولا تروين عنى إلا حقاً؛ أما بدء هذا الطواف بهذا البيت فإن الله تبارك وتعالى قال للملائكة: إِنِّى جاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً فقالت الملائكة: أى رب أخليفة من غيرنا ممن يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون، ويتباغضون ويتباغون؟ أى رب اجعل ذلك الخليفة منا فنحن لا نفسد فيها، ولا نسفك الدماء، ولا نتباغض، ولا نتحاسد، ولا نتباغى، ونحن نسبح بحمدك، ونقدس لك، ونطيعك، ولا نعصيك. فقال الله تعالى: إنى أعلم ما لا تعلمون قال: فظنت الملائكة أن ما قالوا رداً على ربهم عز وجل وأنه قد غضب من قولهم، فلاذوا بالعرش، ورفعوا رؤوسهم، وأشاروا بالأصابع يتضرعون، ويبكون إشفاقاً لغضبه وطافوا بالعرش ثلاث ساعات، فنظر الله إليهم فنزلت الرحمة عليهم، فوضع الله تعالى تحت العرش بيتاً على أربع أساطين

من زبرجد وغشاهن بياقوتة حمراء، وسمى ذلك البيت الضراح، ثم قال الله تعالى للملائكة: طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش، قال: فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش وصار أهون عليهم من العرش، وهو البيت المعمور الذى ذكره الله عز وجل، يدخله فى كل يوم وليلة سبعون ألف ملك لا يعودون فيه أبداً، ثم إن الله سبحانه وتعالى بعث ملائكة فقال لهم: أبنوا لى بيتاً فى الأرض بمثاله وقدره، فأمر الله سبحانه من فى الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، فقال الرجل: صدقت يا ابن بنت رسول الله ۹ هكذا كان» (۱).

الكعبة موقعاً وتأريخياً

نبدأ أولًا بذكر موقع الكعبة المشرفة، فهى أصل مدينة مكة المكرمة، وتقع فى وسط المسجد الحرام على شكل حجرة كبيرة مرتفعة البناء مربعة الشكل، ويبلغ ارتفاعها خمسة عشر متراً، ثم نشأت حول البيت الحرام مدينة مكة المكرمة التى صارت موطن قبيلة قريش الكبرى التى تضم ثلاثاً وعشرين قبيلة عربية ذرية إسماعيل ۷، كما تقع الكعبة المشرفة فى المركز الوسط للكرة الأرضية، ويعلوها فى السماوات العلى البيت المعمور الذى تطوف حوله الملائكة.

۱- انظر: أخبار مكة للأزرقى ۳۳: ۱- ۳۴

ص: ۸۹

إن مكة المكرمة تقع غرب الحجاز فى أرض محاطة بالجبال من جميع جهاتها، ولا يوجد لها سوى أربع مداخل، هى المدخل الشمالى الشرقى، ويفضى إلى وادى منى، والمدخل الشمالى الغربى ويفضى إلى وادى فاطمة، والمدخل الجنوبى ويؤدى إلى اليمن، والمدخل الغربى ويؤدى إلى سيناء جدة.

وتحدث المصادر الإسلامية والتاريخية أن الكعبة أسسها آدم ۷ وهناك من يذهب إلى أن الملائكة التى لم تنقطع عن زيارتها أبدأ منذ بذرتها الأولى واستمرت زياراتها لهذه البقعة الطاهرة حتى ورد عن ابن عباس:

«أن جبريل ۷ وقف على رسول الله ۹ وعليه عصابة حمراء قد علاها الغبار فقال له رسول الله ۹:

ما هذا الغبار أرى على عصابتك أيها الروح الأمين؟

قال: إنى زرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن، فهذا الغبارالذى ترى مما تثير بأجنحتها» (۱).

فالملائكة هم الذين قاموا ببناء الكعبة فى هذا المكان بأمر السماء وبعد أن أذن لهم الله تعالى بذلك قبل خلق الإنسان مما يدل على عراقة تاريخها وأنها تعرضت للتهديم بسبب الطوفان الذى وقع فى عهد النبى نوح ۷ فجددها إبراهيم الخليل ۷. ومن الجدير ذكره أن الكعبة جدد بناؤها اثنتى عشرة مرة.

لقد ظلت الكعبة المباركة مندثرة زمناً تحت الرمال، حتى عيّن الله سبحانه وتعالى موقع البيت لسيدنا إبراهيم ۷ وساعده فى عمارتها سيدنا إسماعيل ۷، وكان ذلك منذ قرابة أربعة آلاف عام، وبناء سيدنا إبراهيم يعتبر البناء الثانى للكعبة المشرفة، حيث ورد فى القرآن الكريم أن سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل رفعا قواعد البيت، مما يدل على أنه كان موجوداً من قبل ذلك، وهو البناء الذى شيده الملائكة المكرمون؛

ويصف أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقى الكعبة التى بناها إبراهيم ۷ بأنها كانت بناء ذا جوانب أربعة، ارتفاعها تسعة أذرع وكان بابها إلى الأرض، وجعل سيدنا إبراهيم ۷ فى جدارها حجراً أسود علامة على بداية الطواف حولها، ثم أمر الله تعالى نبيه إبراهيم ۷ بأن يؤذن فى الناس بالحج، وقد أسمع الله تعالى جميع خلقه هذا النداء.. وتفضل الله سبحانه وتعالى فجعل هذا البيت حرماً طاهراً آمناً يلجأ إليه الناس ويأمنون فيه على أنفسهم. وأصبحت الكعبة بعد السنة الثانية من الهجرة النبوية الشريفة قبلة المسلمين، يتجهون إليها فى صلاتهم.

هذا، وإن اختيار أعرق البيوت وأقدمها ليكون قبلة للمسلمين، يعد أفضل من اختيار أى مكان وأى موقع آخر.. فالآية تشير إلى أسبقية الكعبة على جميع الأماكن الأُخرى، وإلى تاريخها الطويل الضارب فى أعماق الزمن، معتبراً ذلك أول وأهم ما تتسم به الآية المذكورة، وأن هدفها أن تكون للناس، وهى بيت الله كما تسمى وضعت لأجل الناس، وهذا التعبير يكشف عن حقيقة هامة وهى: أن كلّ ما يكون باسم الله ويكون له، يجب أن يكون فى خدمة الناس من عباده، وأن كلّ ما يكون لخدمة الناس وخير العباد فهو لله سبحانه.

وقدم الكعبة وأنها أول بيت وضع فى هذه الأرض يجعل لها فضيلة وميزة على غيرها من البيوت الأخرى.

ويتضح هذا مما دار بين الإمام الصادق ۷ وأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى، وبين الإمام موسى الكاظم ۷ والمهدى العباسى حينما أرادوا توسعة المسجد الحرام بعد أن أخذ عدد المسلمين فى الازدياد، وعلى أثر ذلك كان يتزايد عدد الحجاج والوافدين إلى البيت الحرام، ولهذا كان المسجد الحرام يتعرض للتوسعة المستمرة على أيدى الخلفاء فى العصور المختلفة.

فقد جاء فى تفسير العياشى أن أبا جعفر المنصور طلب أن يشترى من أهل مكة بيوتهم ليزيدها فى المسجد، فأبوا فأرغبهم، فامتنعوا فضاق بذلك، فأتى أبا عبدالله الصادق ۷ فقال له: إنى سألت هؤلاء شيئاً من منازلهم، وأفنيتهم لنزيد فى المسجد، وقد منعونى ذلك فقد غمّنى غماً شديداً، فقال أبو عبدالله ۷: «أيغمك ذلك وحجتك عليهم فيه ظاهرة؟» فقال: وبما أحتج عليهم؟ فقال: «بكتاب الله»،

فقال: فی أی موضع؟ فقال: «قول الله عزّوجلّ:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَكَّةَ)

قـد أخبرک الله أن أول بیت وضع للنـاس هو الـذی ببکـهٔ، فإن کانوا هم تولوا قبل البیت فلهم أفنیتهم، وإن کان البیت قبلهم فله فناؤه».

فدعاهم أبو جعفر المنصور فاحتج علیهم بهذا، فقالوا له: اصنع ما أحببت.

وقـد جاء فی ذلک التفسـیر أیضاً أن المهـدی العباسـی لما بنی فی المسـجد الحرام بقیت دارٌ احتج إلیها فی تربیع المسـجد، فطلبها من أربابها فامتنعوا، فسأل عن ذلک الفقهاء فکلّ قال له: إنه لا ینبغی أن یدخل شـیئاً فی المسـجد الحرام غصـباً، فقال له علی بن یقطین: یا أمیرالمؤمنین! لو أنک کتبت إلی موسی بن جعفر ۷ لأخبرک بوجه الأمر فی ذلک، فکتب إلی والی المدینهٔ أن یسأل موسی بن جعفر ۷ عن دار أردنـا أن نـدخلها فی المسـجد الحرام فـامتنع علینا صاحبها، فکیف المخرج من ذلک؟ فقال ذلک لأبی الحسن ۷، فقال أبو الحسن ۷: ولابدّ من الجواب فی هذا؟ فقال له: الأمر لابدّ منه، فقال له: اکتب:

«بسم الله الرحمن الرحیم، إن کـانت الکعبـهٔ هی النازلـهٔ بالنـاس فالناس أولی بفنائها، وإن کان الناس هم النازلون بفناء الکعبـهٔ فالکعبهٔ أولی بفنائها».

فلما أتی الکتاب إلی المهـدی أخـذ الکتاب فقبله لفرحه الشدید، ثم أمر بهدم الدار فأتی أهل الدار أبا الحسن ۷ فسألوه أن یکتب لهم إلی المهدی کتاباً فی ثمن دورهم فکتب إلیه أن ارضخ لهم شیئاً فأرضاهم.

۱- المصدر نفسه ۳۵: ۱.

ص: ۹۰

يقول الشيخ المكارم الشيرازى:

«إن فى هاتين الروايتين استدلالًا لطيفاً يتفق تماماً مع المقاييس والموازين القانونية المعمول بها أيضاً، فإن الاستدلال يقول: إن لمعبد تقصده الجماهير كالكعبة، قد بنى يوم بنى على أرض لا أحد فيها، الحق والأولوية فى تلك الأرض بقدر حاجته، وحيث إن الحاجة يوم اسّس لم تكن تدعو إلى أكثر من تلك المساحة التى أقيم عليها أول مرّة كان للناس أن يسكنوا فى حريم الكعبة، أما الآن وقد اشتدت الحاجة إلى مساحة أوسع كما كانت عليه لتسع الحجيج، فإن للكعبة الحقّ فى أن تستخدم أولويتها بالأرض» (۱).

وجاء الإسلام

حظيت الكعبة المشرفة فى ظل الإسلام ورسالته الخالدة ورسوله العظيم على مكانة كبيرة تتناسب وما أعدته لها السماء من دور مهم وخطير فى بناء الإنسان المؤمن والمجتمع المؤمن والأمة المؤمنة نفسياً وروحياً ودينياً ووعياً ومعرفة ... لهذا كان همّ الرسول ۹ وكان هدفه الأول بعد الانتصار على أعدائه مشركى مكة هو إعادة دورها المرسوم لها منذ أذان نبى الله إبراهيم ۷ والذى غيبه المشركون وشوّهوه.. فأصدر ۹ أوامره بعد فتح مكة بتطهير الكعبة من الأصنام والأوثان والتماثيل، وراح يكسو الكعبة بكسوة من اليمن، وأمر بتطييبها.

ومن الثابت أن حدود المسجد الحرام هى الدائرة المعروفة، دائرة المطاف نفسها، وهذه الدائرة لم يكن لها سور ولا جدار معين متميز وإنما كانت بيوت قريش التى تحيط بدائرة المطاف تشكّل دور السور. وقد جعلوا بين كل بيتين أو ثلاثة ممراً ومنفذاً يدخل الناس منه إلى المسجد.

إذن لم يكن للكعبة فى عهد النبى ۹ سور متميز يحيط بها، بل كانت بيوت قريش المجاورة له تحيط بها وتفتح على المطاف الذى يحيط بجسم الكعبة، ولم يحدث تغيير يذكر فى عمارة الكعبة فى عهد الرسول ۹ ولا فى عهد الخلافة الأولى.

ولما كان عهد الخلافة الثانية، ضاقت مساحة المطاف حول الكعبة بسبب زيادة أعداد المسلمين الآتين للحج، فطلب الخليفة عمر بن الخطاب من أهل قريش أن يفسحوا مكاناً لتوسيع المطاف، وذلك بشراء منازلهم المطلّة على الكعبة، فلما رفضوا ذلك نزع ملكيتها ووضع الأموال فى بيت المال لمن يطلبها، وهدمت البيوت المحيطة بالمطاف القديم ووسعت مساحة المطاف الذى يحيط بالكعبة، وحتى لا تزحف بيوت قريش مرة أخرى على المطاف الذى يحيط بالكعبة قام ببناء سور حول المطاف من الخارج بارتفاع قامة الإنسان، وجعل فيه عدداً من الأبواب وكان ذلك فى السنة السابعة عشرة من الهجرة النبوية الشريفة.

وفى عام ۲۶ ه-، أجرى الخليفة عثمان بن عفان توسعة أخرى حول الكعبة المشرفة وسورها حيث تم توسيع المطاف بعد هدم عدد آخر من بيوت أهل قريش المحيطة بسورها الخارجى الذى بناه الخليفة الثانى من قبل، كما أنه بنى لأول مرة سقائف ثلاثة حول مساحة المطاف خصّصها للصلاة، وكانت هذه السقائف تؤدى إلى أروقة؛ وبهذه التوسعة يكون الخليفة عثمان بن عفان أول من بنى مسجداً محاطاً بسور حول بناء الكعبة المشرفة.

ولم يكن لهذا المسجد منبر حتى أحضر معاوية بن أبى سفيان منبراً معه حين حضوره لأخذ البيعة لابنه يزيد من أهل مكة، ووضع المنبر فى المسجد وكان ذلك عام ۴۷ ه-.

وفى الفترة التى سيطر فيها عبدالله بن الزبير على مكة المكرمة أجرى بعض التعديلات على عمارة الكعبة، وعندما سيطر الأمويون مرة أخرى على مقاليد الحكم أعادوا بناء الكعبة على ما كانت عليه وقت الرسول ۹ وكان ذلك على يد الحجاج بن يوسف، من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان.

وظلت الكعبة المشرفة على هذا الشكل لمدة لا تقل عن ألف عام بدون تغيير يذكر، اللهم إلا الإضافات التى قام بها الخليفة الوليد بن عبد الملك الذى أجرى عمارة كبيرة فى المسجد الحرام، وكذلك الإضافة التى تمت فى عهد الخليفة المهدى العباسى، وأصبحت

الكعبة تتوسط صحن المسجد الحرام.

فى عهد المماليك

ولما جاء حكم المماليك اهتمّ سلاطينهم بالمسجد الحرام، واعتنوا به ووالوه بالإصلاح والتجديد، فأوقفوا عليه الأراضى الزراعية والعقارات فى مصر وبلاد الشام، وكان ذلك فى عهد السلطان بيبرس البندقدارى والمنصور قلاوون، والناصر محمد بن قلاوون والأشرف شعبان ..

ومن العمارات الهامة تلك التى قام بها السلطان الناصر فرج بن برقوق عام ۸۰۲ ه-، ففى يوم السبت ۲۸ شوال عام ۸۰۲ ه-، اجتاحت النيران رباطاً عند باب الحَزْوَرَة بالجانب الغربى من المسجد الحرام، ولم تلبث النيران أن انتقلت إلى سقف المسجد نفسه وعمت الجانب الغربى وأجزاء من الرواقين المقدمين من الجانب الشامى، وأدى الحريق إلى تخريب ثلث المسجد وتدمير مائة وثلاثين عموداً من أعمدة المسجد، فقام السلطان الناصر فرج بإصلاح ما فسد من البناء.

ومن أهم العمارة الأخرى التى قام بها السلطان الأشرف برسباى، فقد شملت المسجد كله تقريباً، إذ تم فيها إقامة عشرات من العقود الحجرية وتجديد الكثير من الأبواب وتعمير السقوف وطلائها وإصلاح سقف الكعبة المشرفة ورخامها وأخشابها وحلقات الحديد التى تربط كسوة الكعبة المشرفة، ثم كانت عمارة السلطان قايتباى عام ۸۸۵ ه- وشملت أجزاء كبيرة من المسجد الحرام وأبوابه ومآذنه.

فى العهد العثمانى

۱- الأمثل فى التفسير: الآية.

ص: ۹۱

وانتقلت السيادة على الحجاز إلى العثمانيين، وبالتالى رعاية الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة، وصار السلطان العثمانى يلقب بخادم الحرمين الشريفين، وعلى الرغم من السيادة العثمانية على الأمصار كافة إلا أن بلاد مصر كولاية عثمانية ظلّت تتولى عمارة المسجد الحرام بأموال ومواد بناء ومهندسين وعمال مصريين، أجريت العمارة الأولى بعد زوال دولة المماليك على المسجد الحرام عام ۹۷۹ ه-/ ۱۵۷۱ م، حين رأى السلطان سليم الثانى أن يجدّد سقف الأروقة الأربعة للمسجد الحرام، وفى عهد السلطان أحمد (۱۰۱۲ ه- ۱۰۲۲ ه-) حدث تصدع فى جدران الكعبة وكذلك فى جدار الحجر، وكان من رأى السلطان هدم بناء الكعبة وإعادة بنائها من جديد، إلا أن المهندسين أشاروا عليه بدلًا من ذلك بعمل نطاق من النحاس الأصفر المطلى بالذهب، واحد علوى وآخر سفلى، ورغم ذلك لم تصمد الكعبة طويلًا وتهدمت جدرانها عقب أمطار غزيرة عام ۱۰۳۹ ه-، فأمر السلطان مراد الرابع بتجديدها على أيدى مهندسين مصريين عام ۱۰۴۰ ه-.

وكنتيجة للعمائر المختلفة التى تمت بالكعبة المشرفة فى العهد العثمانى، صار الحرم مستطيلًا أقرب إلى التربيع، وأصبحت المظلات التى تحيط بالمطاف من ثلاثة أروقة مقامة على صفوف من العقود والأعمدة الرخامية، ويغطى كل تربيع قبة ضحلة مقامة على مثلثات كروية، وتقوم الكعبة فى وسط المسجد الحرام من الخارج فى المتوسط ۱۹۲ متراً وعرضه ۱۳۲ متراً، وكان بخارج المطاف سقائف ثلاث على أعمدة من الرخام تواجه إحداها الجانب الغربى وكان يصلى بها إمام المالكية، والثانية تواجه الجانب الشمالى ويصلى بها إمام الحنفية، والثالثة تواجه الجانب الجنوبى ويصلى بها إمام الحنابلة، أما إمام الشافعية فكان يصلى خلف مقام إبراهيم.

وبجوار المطاف فى شرقى الكعبة نجد المنبر الرخامى، وكان قد بعث به السلطان سليمان عام ۹۶۶ ه- إلى المسجد الحرام حيث أقيم بدلًا من المنبر الخشبى، وكان هذا المنبر مصنوعاً بدقة وإتقان يشعران برقى الصناعة فى ذلك العصر.

الأسماء

هناك أسماء كثيرة ذكروها لمكة المكرمة، ولكثرتها ذكر قطب الدين النهروانى أن الفيروزآبادى قد صنف رسالة مفصلة فى ذكرها كما فى الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، وأن النووى قال فى هذا الخصوص: إننا لا نعرف من بين المدن ما يضاهى مكة والمدينة بكثرة الأسماء، ورد هذا فى معجم البلدان، وجامع اللطيف. وحتى أن محمد مهدى فقيهى انتهى به التقصى للوقوف على سبعين اسماً من أسماء مكة كما فى مقالته فى العدد الأول من مجلة ميقات الحج «أسماء مكة» صفحة ۱۸۷.

وهنا نكتفى بذكر عدد من أسمائها:

مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، والمأمون، والمقدسة، والناسّة بالنون، وبالباء أيضاً والحاطمة، والنساسة والرأس، وكوثى أو كوثاء، والبلدة، والبَبِيَّة، والكعبة.

وقد ورد منها أربعة فى القرآن الكريم:

مكة كما فى سورة الفتح ۲۴:

(وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً).

وكذلك وردت بصيغة بكة، كما فى الآية ۹۶ من آل عمران:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وهُدىً لِلْعالَمِينَ).

ووردت باسم أم القرى فى الآية ۹۲ من سورة الأنعام:

(وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها).

كما وردت باسم البلد الأمين كما فى الآية ۳ من سورة التين:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ).

وفی سبب تسمیتها ببکهٔ وجوه إضافهٔ إلی ما ذکرناه فی اللغهٔ أعلاه:

۱- لقلهٔ مائها وزرعها وقلهٔ خصبها، فهی مأخوذهٔ من مککت العظم إذا لم تترک فیه شیئاً. وهو قول الأنباری.

۲- لأن من ظلم فیها مکّه الله، أی استقصاه بالهلاک.

۳- لأنها وسط الأرض کالمخ وسط العظم. وهو قول الخلیل بن أحمد.

ص: ۹۲

وبكـة قيل: إنها المسـجد، ومكـة الحرم كله يدخل فيه البيوت عن الزهرى وضـمرة بن ربيعة، وهو المروى عن أبى جعفر ۷ وقيل: بطن مكـة عن أبى عبيـدة. وقيل: بكة موضع البيت والمطاف ومكة اسم البلدة وعليه الأكثر. وقيل: بكة هى مكة والعرب تبدل الباء ميماً مثل سبد رأسه وسمده عن مجاهد والضحاك (۱).

والكعبـة فى اللغة العربية تسـمّى لتكعيبها وهو تربيعها. وقيل: لعلوها ونتوئها.. وأكثر بيوت العرب مدورة لا مربعة. وقد وردت أسـماؤها فى الآيات القرآنية التالية:

الكعبة: (جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ) (۲).

البيت: قال عز من قائل:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ) (۳).

وقال الله تعالى:

(فِيـهِ آيـاتٌ بَيِّنـاتٌ مَقـامُ إِبْراهِيـمَ وَمَـنْ دَخَلَهُ كـانَ آمِنـاً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِـجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْـتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًـا وَمَنْ كَفَرَ فَـإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ) (۴).

البيت العتيق: قال الله تعالى:

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (۵).

وقال سبحانه وتعالى:

(لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (۶).

البيت الحرام: قال الله جل جلاله:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَـعائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَلَا الْهَـدْىَ وَلَا الْقَلائِـدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْـلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً) (۷).

وقال عز من قائل:

(جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ) (۸).

البيت المعمور: كما فى قوله تعالى:

(وَالطُّورِ وَكِتابٍ مَسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) (۹).

البيت المحرم: قال تعالى:

(رَبَّنا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غَيْرِ ذى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) (۱۰).

أما لفظة «الكعبة» فقد ذكرت فى القرآن الكريم فى موضعين هما:

قال الله تعالى:

(جَعَـلَ اللهُ الْكَعْبَـةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَـدْىَ وَالْقَلائِـدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِى السَّماواتِ وَما فِى الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ).

(يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْـدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَـدْلٍ مِنْكُمْ هَـدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُوانْتِقامٍ).

أركان الكعبة

أربعـة أركان للكعبة المشـرفة، جاء ترتيبها حسب بداية الطواف فيما جاءت تسـميتها باعتبار اتجاهاتها الأربعة تارةً، وتارة أخرى باعتبار

خصوصیة فیها.

۱- انظر: الدر المصون فی علوم القرآن للسمین الحلبی ۳۱۵: ۳، ومجمع البیان للطبرسی: الآیة.

۲- المائدة: ۹۷.

۳- آل عمران: ۹۶.

۴- آل عمران: ۹۷.

۵- الحج: ۲۹.

۶- الحج: ۳۳.

۷- المائدة: ۲.

۸- المائدة: ۹۷.

۹- الطور: ۱- ۴.

۱۰- إبراهیم: ۳۷.

ص: ۹۳

الركن الشرقى: وهو الركن الذى يكون بجوار باب الكعبة ويُقابلُ بئر زمزم تقريباً، ويُسمى بالركن الشرقى لكونه باتجاه المشرق تقريباً، ويُسمَّى أيضاً بالركن الأسود لأن الحجر الأسود مُثَبَّتٌ فيه.

الركن الشمالى: وهو الركن الذى يلى الركن الشرقى حسب جهة الحركة فى الطواف، ويُسمَّى بالركن الشمالى لمواجهته للشمال تقريباً، وهو الركن الذى يكون على الجانب الشرقى من حِجْرِ إسماعيل، ويُسمَّى أيضاً بالركن العراقى لكونه باتجاه العراق.

الركن الغربى: وهو الركن الذى يلى الركن الشمالى حسب جهة الحركة فى الطواف، ويُسمَّى بالركن الغربى لمواجهته للمغرب تقريباً، وهو الرُكن الذى يكون على الجانب الغربى من حِجْرِ إسماعيل.

الركن الجنوبى: وهو الركن الذى يلى الركن الغربى حسب جهة الحركة فى الطواف، ويُسمَّى بالركن الجنوبى لمواجهته للجنوب تقريباً، ويُسمَّى أيضاً بالمُستجار.

إضاءة

ومن الحوادث المهمة التى حدثت فى الكعبة المشرفة، الولادة المباركة فى جوفها لأمير المؤمنين على بن أبى طالب ۷، ومن الواضح أن لهذه الحادثة دلالات واضحة على منزلة الإمام أمير المؤمنين ۷ ومكانته المميزة، وهى فضيلة خصّه الله تعالى بها دون غيره.

فقد روى الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف القرشى الكنجى الشافعى المتوفى سنة: ۶۵۸ هجرية وآخرون من العلماء أنه: «علىّ بن أبى طالب ۷ لم يولد قبله ولا بعده مولود فى بيت الله الحرام سواه، إكراماً له بذلك وإجلالًا لمحله فى التعظيم».

وهناك العديد من المصادر تنقل هذه الحادثة توفر عليها كتاب على وليد الكعبة، للشيخ الحجة الميرزا محمد على الغروى الأردوبادى رحمه الله وقد تكفل بدراسة هذا الأمر ومصادره الكثيرة وما ورد فيها (۱).

هناك أجزاء هامة تحتل مكانها بالمسجد الحرام وحول الكعبة، منها:

المطاف: وهو البقعة التى تحيط بالكعبة، وهو مكسو بالرخام، ويبدأ الطواف من الحجر الأسود، ثم يجعل الكعبة على يساره ويمضى ويطوف سبعة أشواط حول الكعبة.

الحجر الأسود: وموقعه بالركن الجنوبى الشرقى من الكعبة، وأهمية هذا الحجر، أنه يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده المؤمنين، كما ورد وهو حجر ثقيل بيضاوى الشكل أسود اللون يميل إلى الحمرة وقطره ۳۰ سم ويحيط به، وأنه من وضع سيدنا إبراهيم ۷ جعله بالكعبة ليبدأ الحجاج الطواف من عنده، فلا يحدث تقابل أو اضطراب بين الطائفين، وقد اختلف العلماء والمؤرخون حول حقيقة الحجر الأسود، فنقل النويرى عن ابن عباس قوله: ليس فى الأرض من الجنة إلا الركن الأسود فإنه جوهرة من جواهر الجنة، ومن التقاليد العامة بين المسلمين أن هذا الحجر المقدس أصله من الجنة وكان لونه أبيض، فاسودّ نتيجة ارتكاب أهل الأرض للمعاصى والآثام، وعلى كل أن من يعرف معنى العبادة يقطع بأن الملين لا يعبدون الحجر الأسود ولا الكعبة، ولكن يعبدون الله تعالى باتباع تعاليم شرعه وأداء مناسك أمرهم بها فى هذه البقعة المباركة ذات المعالم القيمة والآثار المباركة ..

أما الإطار الفضى فيقال: إن عبدالله بن الزبير أول من ربط الحجر الأسود بالفضة، ثم تتابع الخلفاء فى عمل الأطواق من فضة كلما اقتضت الضرورة لذلك.

الشاذروان: وهو جدار يلاصق جدار الكعبة مكسو بالرخام ارتفاعه حوالى ۵۰ سم، وأصل الشاذروان هو الأرض التى أنقصتها قريش من عرض جدار أساس الكعبة حين أعيد بناؤها وقت قصى بن كلاب.

الملتزم: وهو مكان يقع بين الحجر الأسود وباب الكعبة المعظمة ومقداره نحو مترين ويسمى بالملتزم، وسمى بهذه التسمية لأن الحاج يلتزم هذا المكان للدعاء فيه، فهو موضع مبارك لإجابة الدعاء حيث يسنّ به الدعاء مع إلصاق الخدين والصدر والذراعين والكفين.. وكان الرسول ۹ يدعو عنده وعند الحطيم.

وقال ابن عباس رضـی الله عنه: إن ما بين الحجر والباب لا يقوم فيه إنسان فيدعو الله تعالى بشـیء إلا رأى فی حاجته بعض الذی يحب ..

الحطيم: وإنما سـمی بالحطيم إما لكثرة ازدحام الناس والطائفين فيه وإما لكونه موضع غفران الـذنوب، وغفرانها بمنزلـة تحطيمها، وهو موضع توبة آدم.

ويقول الكـاتب عمر المضواحی عن الحطيم: على يسـار بـاب الكعبـة المهيب وبين الملتزم والحجر الأسود إلى الـداخل منها يقع مكان (حطيم السيئات) حيث يتم فيه التضرع بالدعوات.

۱- راجع أيضاً: ميقات الحج، العدد ۱۶۸: ۱۴.

ص: ۹۴

باب التوبة: وفى الجهة الشمالية والكلام ما زال للمضواحى من الكعبة، على يمين الداخل، باب صغير يعرف بباب «التوبة» وهو فى الصنعة والإتقان، يمتاز بمقاساته العادية وهو بنسبة قياس واحد إلى ثمانية مقارنة بباب الكعبة الخارجى الوافر البهاء والضخامة، ويؤدى باب التوبة المصنوع من أندر قطع الأخشاب المكسوة بصفائح الذهب والفضة المشغولة، إلى درج حلزونى من الزجاج السميك يصل إلى سطح الكعبة.

حجر إسماعيل: هو محل بنى فيه جدار هلالى الشكل عند الضلع الشمالى الغربى من الكعبة، وقد يكون من ضمن مساحته جزء من الكعبة.

الميزاب: للكعبة ميزاب وضعته قريش حين بنتها سنة ۳۵ من ولادة النبى ۹ على سطح الكعبة فى الجهة الشمالية بين الركن الشمالى والركن الغربى حين عملت لها سقفاً وكانت قبل ذلك بلا سقف، ويمتد نحو حجر إسماعيل ۹ ليسكب ماءه المتجمع على سطح الكعبة عند سقوط الأمطار أو غسل سطحها فى بطن الحجر.

قال الأزرقى: وذرع طول الميزاب أربعة أذرع، وسعته ثمانية أصابع فى ارتفاع مثلها. والميزاب ملبس بصفايح ذهب داخله وخارجه، وكان الذى جعل عليه الذهب الوليد بن عبد الملك (۱).

وقد وقع تغيير وتبديل فى ميزاب الكعبة المشرفة، وذلك لسببين: أحدهما كان إذا اعتراه خراب عمل غيره، والثانى كان بعض الملوك أو الأغنياء من عظماء المسلمين يهدى للكعبة المعظمة ميزاباً فيركب فى الكعبة المشرفة، وينزع الذى قبله.

والميزاب الموجود فى الكعبة المشرفة إلى العصر الحاضر هو الميزاب الذى عمله السلطان عبد المجيد خان بن السلطان محمود خان، عمله فى القسطنطينية، ثم جيء به وركب سنة ۱۲۷۶ ه-، وهذا الميزاب مصفح بالذهب. وقد أدخلت عليه ترميمات جزئية فى المسامير العلوية المانعة لوقوف الحمام عليه.

مقام إبراهيم: وهو مكان الحجر الذى قام عليه سيدنا إبراهيم عند بنائه للكعبة وصلّى عنده وتركه ملاصقاً لجدار الكعبة ثم غير مكانه بعيداً عن الجدار، وقد ورد فى القرآن الكريم:

(وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى).

ويقع إلى جهة الشرق من الكعبة، وقد قام الخليفة المهدى العباسى بإحاطته بحليات ذهبية. وإنما أشرت إلى المقام هنا لكونه كان فى بدايته ملاصقاً لجدار الكعبة وإلا فهو ليس جزءاً من بناء الكعبة الآن.

المآذن: وللمسجد الحرام سبع مآذن إلى جانب مآذن حديثة أضيفت له:

مئذنة باب العمرة: وتقع فى الجهة الشمالية الغربية من المسجد الحرام، وبناها الخليفة العباسى فى عمارته للمسجد عام ۱۳۹ ه-، ثم جددها صاحب الموصل عام ۵۵۱ ه-، ثم أصلحت مرة ثالثة عام ۸۴۳ ه- زمن السلطان حقمق المملوكى، ثم هدمها السلطان سليم خان وأعاد بناءها.

مئذنة باب الوداع: وقد أنشأها الخليفة المهدى العباسى ثم جددها السلطان المملوكى شعبان، وكانت قد سقطت عام ۷۷۱ ه- فجددها عام ۷۷۲ ه-.

مئذنة باب على: أنشأها الخليفة المهدى العباسى عام ۱۶۸ ه- ثم أعاد بناءها السلطان العثمانى سليمان خان.

هذا بالإضافة إلى مئذنة قايتباى التى تجاور باب السلام.

ومئذنة باب الزيارة: التى أنشأها الخليفة المعتضد العباسى عام ۲۴۸ ه- ثم جددها السلطان الأشرف أبو النصر برسباى سلطان مصر وبلاد الشام والحجاز عام ۸۲۶ ه-.

والمئذنة السليمانية: التى بناها السلطان سليمان العثمانى.

وكـان يؤذن من على جميع المـآذن فى الصـلوات الخمس قبـل إدخـال الكهرباء، وكان المؤذنون يرددون ما يقوله رئيس المؤذنين أو شيخهم الذى كان يؤذن من فوق قبة بئر زمزم ويتبعه الجميع.

الأبواب

نبـدأ أولًـا بـبـاب الكعبـة المشـرفة الـذى يرتفع عن أرض المطاف بحوالى ۵. ۲ وارتفـاع الباب ۰۶. ۳ مـتر وعرضه ۶۸. ۱، متر والبـاب الموجود اليوم هديـة الملك خالـد بن عبـدالعزيز وقد تم صـنعه من الذهب حيث بلغ مقدار الذهب المسـتخدم فيه للبابين حوالى ۲۸۰ كيلو جرام عيار ۹۹. ۹۹ بتكلفة إجمالية بلغت ۱۳ مليوناً و ۴۲۰ ألف ريال عدا كمية الذهب.

هـذا، وللمسـجد الحرام أبـواب كـثيرة تغير اسم بعضـها على مرّ العصور، وبقيت بعض الأسـماء كمـا هى دون تغيير، ويبلغ عـدد أبواب المسجد الحرام ۲۵ باباً فى الإجمالى، منها ثمانية فى الشمال وسبعة فى الجنوب وخمسة فى الشرق وخمسة فى الغرب.

۱- أخبار مكة ۲۹۱: ۱.

ص: ۹۵

ومن المعلوم أن أبواب الحرم المكى خضعت لمجموعة من التغيير والتطوير، وإضافة أبواب جديدة حتى صارت أبواب المسجد الحرام «۱۱۲» باباً، وصنعت الأبواب من أجود أنواع الخشب، وكسيت بمعدن مصقول ضبط بحليات نحاسية حتى بدت فى كثير من الأحيان تحفة فنية رائعة.

وهذه بعض الأبواب المطلة على الشوارع العمومية من الجهات الأربع، وتوجد أبواب رئيسية معروفة فى الجهات الأخرى منها: باب الملك عبد العزيز، يقع فى الجنوب الشرقى.

أبواب الجهة الغربية

باب الحزورة: والحزورة اسم لسوق فى الجاهلية كانت فى هذا المكان وأدخلت فى مساحة المسجد الحرام وله أسماء أخرى مثل باب البقالية وباب الوداع؛ لأن الناس يخرجون منه عند سفرهم، وعليه نص تأسيس باسم السلطان الناصر فرج بن برقوق مؤرخ بعام ۸۰۴ ه-.

وباب العمرة: ويحمل هذا الاسم لأن المعتمرين من التنعيم يخرجون ويدخلون منه.

باب إبراهيم: نسبة إلى رجل اسمه إبراهيم الخياط كان يزاول عمله عند هذا الباب.

باب مدرسة الشريف غالب.

باب مدرسة الداوودية.

أبواب الجهة الجنوبية

باب بازان: يقع هذا الباب بأقصى الجهة الجنوبية، وسمى بهذا الاسم لقربه من عين ماء بازان.

باب البغلة: وعرف أيضاً بباب بنى سفيان، ثم باب الصفا، سمى بذلك؛ لأنه يلى الصفا، ويعرف أيضاً ب- «باب بنى مخزوم»؛ لأنهم كانوا يسكنون فى تلك الجهة.

وباب أجياد الصغير المعروف أيضاً ب- «باب الخلفيين».

وباب المجاهدية: ويقال له: باب الرحمة، ويسمى الآن باب أجياد؛ لأنه يقع فى مواجهة شارع أجياد.

وباب الحميدية: نسبة إلى السلطان عبد الحميد، واسمه القديم باب أم هانئ بنت أبى طالب.

وباب بنى تميم: ويعرف أيضاً بباب التكية لمواجهته للتكية المصرية التى كانت مبنيةً أمامه، ويعرف أيضاً باسم باب عجلان أو باب مدرسة الشريف عجلان أو باب بنى تميم.

أبواب الجهة الشرقية

باب السلام: ويعرف أيضاً بباب بنى شيبة، وهو الباب الذى يدخل منه الحجيج لأداء الطواف، وهذا الباب من تجديد السلطان سليمان خان عام ۹۳۱ ه-.

ثم باب قايتباى أو باب النبى؛ حيث كان الرسول ۹ يخرج ويدخل منه أو من جهته إلى دار زوجته السيدة خديجة رضى الله عنها، وكان فى الموضع المعروف بمولد فاطمة الزهراء ۳ فى زقاق الصوع أو فى زقاق العطارين، كما سمى أيضاً بباب الجنائز لخروج الجنازات منه.

ثم باب العباس: وكان يقابل دار العباس بن عبد المطلب، وعليه نص باسم السلطان الأعظم مراد خان بن السلطان سليم عام ۹۸۸ ه-.

ثم باب على: ويعرف أيضاً بباب بنى هاشم، كما عرف أيضاً باسم البطحاء، وعليه نص تجديد باسم السلطان مراد خان عام ۹۸۴ ه-.

ومنها «باب الحريريين»: لأن الحرير كان يباع إلى جواره.

باب مدرسة السلطان قايتباى: وهذا الباب نافذ من المسجد الحرام إلى شارع المسعى.

الكعبة فى عصرنا

باختصار نشیر إلی التطور الذی جعل المسجد الحرام کما هو علیه الآن، فالمسجد الحرام یتکون حالیاً من مساحة مستطیلة ۱۹۲* ۱۳۲ متراً أی بمساحة إجمالیة قدرها ۲۵۳۴۴ متراً، ویتوسط هذه المساحة الکعبة المشرفة ویحیط به من الجهات الأربع ظلات بها أروقة مغطاة بقباب ضحلة مقامة علی مثلثات کرویة محمولة بدورها علی عقود وأکتاف من الحجر.

ص: ۹۶

ونتيجة لتزايد أعداد المسلمين الوافدين لأداء فريضة الحج وتجديد مبانى الحرم كله ليصبح على الشكل الذى نراه اليوم فقد تمت توسعة ساحة المسجد فى عام ۱۳۷۷ ه- ۱۹۵۸ م وتجديد مبانى الحرم الشريف ليصل عدد المصلين والطائفين به الآن لأكثر من مليونين.

ويحيط بالحرم شارع عرضه ثلاثون متراً وهو من مظاهر تعظيم الكعبة المشرفة. وللمسجد الحرام ۲۵ باباً فى الإجمالى، منها ثمانية فى الشمال وسبعة فى الجنوب وخمسة فى الشرق وخمسة فى الغرب.

سدنة الكعبة ومفتاحها وكسوتها

وختاماً هذه وجيزة بسيطة أراها مناسبة عن موضوع سدانة الكعبة وعما يتعلق بمفتاحها وكسوتها:

فالسدانة لغة من سدن سدناً وسدانة وسداناً: خدم الكعبة. والسادن هو خادم الكعبة والجمع: سدنة. وتأتى بعدة معان فى معجم اللغة العربية مثل الأمين والحاجب.. وهو المسؤول عن أمور المسجد الحرام وما يرتبط به رعاية ونظافة وحفظاً ..

وسدانة الكعبة ترجع إلى تاريخ بنائها وتعنى القيام بجميع أمورها من فتحها وإغلاقها وتنظيفها وغسلها وكسوتها وإصلاح هذه الكسوة إذا تمزقت واستقبال زوارها وكل ما يتعلق بذلك، فقد كان يقوم بأمر السدانة إسماعيل ۷ ثم من بعده ذريته، إلى أن كان عهد قصى بن كلاب فأخذ قصى سدانة الكعبة من خزاعة التى كانت قد استولت على السدانة بالقوة مدة ليست بالطويلة، وهى قبيلة هاجرت من اليمن بعد انفجار سد مأرب واتجهت إلى مكة وأقامت بها.

وقد ولد لقصى عبدالدار وعبد مناف وعبدالعزى وعبد قصى، وبعد وفاة قصى انحصرت السدانة فى عبدالدار وأبنائه حتى كان منهم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة وابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة. وينتهى نسب سدانة الكعبة المشرفة الحاليين إلى شيبة بن عثمان بن أبى طلحة وقد أسلم عام الفتح على أصحّ الروايات وله صحبة ورواية عن النبى ۹.

وجميع آل الشيبى فى هذا العصر هم من أبناء الشيخ محمد بن زين العابدين، وينقسمون إلى أبناء الشيخ عبدالقادر بن على، وهم عائلة عبدالله، وحسن آل الشيبى، وأبناء عبدالرحمن بن عبدالله الشيبى، وهم محل احترام وإكرام كما دلت على ذلك الأخبار الواردة فى حقهم، ولا يزالون فى موضع الإكرام والرعاية عند عموم المسلمين، ولايزال وجودهم من معجزات رسول الله ۹ التى أخبر أمته بها وأن المفتاح سيبقى بأيديهم كما يبيّن القول المنسوب إلى جبريل أو إلى رسول الله ۹ حينما نزلت الآية الكريمة ۵۸ من سورة النساء:

(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إِلى أَهْلِها ...).

يقول الخبر كما فى أسباب النزول للواحدى-: عثمان بن طلحة الحجبى من بنى عبد الدار، كان سادن الكعبة، فلما دخل النبى ۹ مكة يوم الفتح، أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح، فطلب رسول الله ۹ المفتاح، فقيل: إنه مع عثمان، فطلب رسول الله ۹ المفتاح منه فأبى وقال: لو علمت أنه رسول الله لما منعته المفتاح، فلوى على بن أبى طالب يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب، فدخل رسول الله ۹ البيت وصلى فيه ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السقاية والسدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر رسول الله ۹ علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك على، فقال له عثمان: يا على! أكرهت وأذيت ثم جئت ترفق! فقال: لقد أنزل الله تعالى فى شأنك، وقرأ عليه هذه الآية فقال عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله وأسلم، فجاء جبريل ۷ وقال:

«ما دام هذا البيت فإن المفتاح والسدانة فى أولاد عثمان. وهو اليوم فى أيديهم».

وفى رواية أن رسول الله ۹ حين أعاد المفتاح لعثمان قال:

«خذوها يا بنى أبى طلحة بأمانة الله، لا ينزعها منكم إلا ظالم. أو خذوها يابنى طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم».

وهنا ندع الكلام لأحد سدنة بيت الله لحرام، وهو نزار الشيبى ليحدّثنا عن شىء من تاريخ السدانة:

آلت إلينا السدانة منذ أيام جدنا قصى، وانتقلت بين أبناء ابنه عبدالدار الذى كان له خمسة أولاد، وكان لا يخرج فى رحلة الشتاء

والصيف فيعايره إخوانه بسبب ذلك، فسمعهم أبوه قصى فقال: والله لأشرفنك عليهم، فأعطاه سقاية الكعبة والسدانة والرئاسة والندوة والرفادة ولواء الحرب، وعندما جاء إخوانه، قالوا له: إنك أخذت كل الشرف، وما تركت لنا شيئاً، فقال: خذوها كلها إلا السدانة والرئاسة حيث كان هو رئيس قريش.

إن كبير سدنة بيت الله الحرام هو الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله الشيبى، وهو الذى يوجد لديه مفتاح الكعبة، ويقال له: (الحجبى) أى الذى يحجب البيت، فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون للكعبة المشرفة سدنة، أى من هم مسؤولون عنها، وأن يكون لها مفتاح.

ويواصل الشيبى حديثه قائلًا: إن الكعبة المشرفة تفتح مرتين فى السنة لغسلها، ويسمح بدخولها حينئذ لبعض كبار ضيوف الدولة وبعض العلماء والمشايخ، وأيضاً القائمون بغسلها.

ويضيف: تعلّق فى داخل الكعبة الهدايا التى قدمت لها، وبعض الموجودات بداخلها ربما تعود إلى ما بعد أن ضربها الحجاج بن يوسف الثقفى بالمنجنيق، يعنى تقريباً تعود إلى ۱۲۰۰ سنة، لكن هناك بلا شك أشياء تعود إلى عصور لاحقة، وأشياء أخرى حديثة ..

ص: ۹۷

وبعد هذا كان ختام كلامه عن كسوة الكعبة.

كسوة الكعبة

أثناء فريضة الحج وبعد أن يتوجه الحجاج إلى صعيد عرفة، يتوافد أهل مكة إلى المسجد الحرام للطواف والصلاة ومتابعة تولى سدنة البيت الحرام تغيير كسوة الكعبة المشرفة القديمة، واستبدالها بالثوب الجديد استعداداً لاستقبال الحجاج فى صباح اليوم التالى الذى يوافق عيد الأضحى.

وقبل هذا الوقت وفى منتصف شهر ذى القعدة تقريباً، يتسلم كبير السدنة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله الشيبى فى حفل سنوى الثوب الجديد من الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوى بقاعة المناسبات الرئيسية فى مصنع كسوة الكعبة المشرفة بضاحية أم الجود بمكة. وبعد إحضار الثوب الجديد تبدأ عقب صلاة العصر مراسم تغيير الكسوة حيث يقوم المشاركون فى عملية استبدال الكسوة عبر سلّم كهربائى بتثبيت قطع الثوب الجديد على واجهات الكعبة الأربع على التوالى فوق الثوب القديم.

وتثبت القطع فى عرى معدنية خاصة (۴۷ عروة) مثبتة فى سطح الكعبة، ليتم فك حبال الثوب القديم ليقع تحت الثوب الجديد نظراً لكراهية ترك واجهات الكعبة مكشوفة بلا ساتر.

ويتولى الفنيون فى مصنع الكسوة عملية تشبيك قطع الثوب جانباً مع الآخر، إضافة إلى تثبيت قطع الحزام فوق الكسوة (۱۶ قطعة جميع أطوالها نحو ۲۷ متراً) و ۶ قطع تحت الحزام، وقطعة مكتوب عليها عبارات تؤرخ إهداء خادم الحرمين الشريفين لثوب الكعبة وسنة الصنع، ومن ثم تثبت ۴ قطع صمدية (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ) توضع على الأركان، و ۱۱ قطعة على شكل قناديل مكتوب عليها آيات قرآنية توضع بين أضلاع الكعبة الأربعة.

هذا وأن آخر قطعة يتم تركيبها هى ستارة باب الكعبة المشرفة وهى أصعب مراحل عملية تغير الكسوة، وبعد الانتهاء منها تتم عملية رفع ثوب الكعبة المبطن بقطع متينة من القماش الأبيض، وبارتفاع نحو مترين من شاذروان (القاعدة الرخامية للكعبة) والمعروفة بعملية إحرام الكعبة. ويرفع ثوب الكعبة لكى لا يقوم بعض الحجاج والمعتمرين بقطع الثوب بالأمواس والمقصات الحادة للحصول على قطع صغيرة طلباً للبركة والذكرى.

ويتم تسليم الثوب القديم بجميع متعلقاته للحكومة السعودية التى تتولى عملية تقسيمه كقطع صغيرة وفق اعتبارات معينة لتقديمه كإهداء لكبار الضيوف والمسؤولين وعدد من المؤسسات الدينية والهيئات العالمية والسفارات السعودية فى الخارج.

ويستهلك الثوب الواحد للكعبة نحو ۶۷۰ كيلو جراماً من الحرير الطبيعى و ۱۵۰ كيلو جراماً من سلك الذهب والفضة، ويبلغ مسطحه الإجمالى ۶۵۸ متراً مربعاً، ويتكون من ۴۷ لفة، طول الواحدة ۱۴ متراً وبعرض ۹۵ سنتيمتراً. ويكلف الثوب الواحد نحو ۱۷ مليون ريال سعودى.

ويعود إنشاء المصنع إلى بداية شهر محرم عام ۱۳۵۷ ه- بجوار البيت العتيق ليكون أول مصنع لكسوة الكعبة ..

ولمزيد المعلومات حول الكعبة انظر المراجع التالية:

- مجمع البيان، للشيخ الطبرسى
- تفسير الميزان، للسيد الطباطبائى
- التفسير الأمثل، للشيخ المكارم
- فى ظلال القرآن، لسيد قطب
- أسباب النزول، للواحدى
- تاريخ الرسل والملوك، للطبرى.

- مرآة الحرمين، إبراهيم رفعت.
- بدائع الزهور فی وقائع الدهور.
- أخبار مكة، للأزرقی
- إعلام الأعلام ببناء المسجد الحرام، للقطبی.
شؤون الحرمين الشريفين فی العهد العثمانی، عبد اللطيف هريدی.

ص: ۹۸

ص: ٩٩

شخصيات من الحرمين الشريفين (٢٣) أبو سعيد الخدرى

محمد سليمان

مازال حديثنا عن مدرسة الصحبة المباركة لرسول الله ٩ من خلال الترجمة لرموزها، الذين خلد ذكرهم بعد أن صدقوا ما عاهدوا الله عليه فما أن ننتهى من رمز حتى ندخل مع رمز آخر ونموذج رائع لها.. مع صحابى وابن صحابى، إنه هذه المرة الصحابى الجليل الخدرى الخزرجى

الأنصارى، المولود فى السنة العاشرة قبل الهجرة النبوية الشريفة، والمعروف بكنيته أبوسعيد الخدرى، ولشهرته بها طغت على اسمه، وهو سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر، وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصارى.. وعن ابن هشام اسمه سنان. وخدرة وخدارة بطنان من الأنصار، وهما ابنا عوف بن الحارث بن الخزرج. وزعم بعض الناس أن خدرة هى أمالأبجر.

أما أمه، فهى أنيسة بنت أبى حارثة من بنى عدى بن النجار.

وأخوه لأمه قتادة بن النعمان (١).

لقد كان هذا الصحابى وجهاً بارزاً مشهوراً من الأنصار ومن أفاضلهم، وكان من المحدِثين الكبار، وكان ذا علم ومعرفة وفقه، وله من الروايات الكثيرة مستقلًا فى روايتها أو مشاركاً مع غيره، و رواياته وأقواله تميزت بأنها جاءت فى أمهات الأمور التى شكلت أساساً عظيماً وصرحاً كبيراً فى البناء العقائدى والتشريعى فى الإسلام وتاريخه ومبادئه وقيمه ..

ممن شهد بيعة الرضوان

(لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ...) (٢).

فى السنة الثامنة للهجرة النبوية وقعت البيعة المعروفة ببيعة الرضوان انطلاقاً من الآية المباركة وما تحمله من رضاء الله تعالى عمن بايع رسوله ٩ فى الحديبية تحت الشجرة وهى شجرة السمرة، ولهذا تسمى بيعة الحديبية وبيعة الشجرة، وقلوبهم مملوءة بصدق النية واليقين والصبر والوفاء بما عقدوا البيعة عليه.. فكان هذا الصحابى الجليل أبو سعيد الخدرى واحداً من أولئك الصادقين حين شهد بيعة الرضوان، حين جاء رسول الله ٩ إلى الشجرة، فاستند إليها وبايع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يفروا.. وكان قد أرسل رسول الله ٩ عثمان بن عفان إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً البيت معظماً لحرمته، فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ٩ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فاطلق رسول الله ٩ قوله: لا نبرح حتى نناجز القوم ..

وهذا سبب البيعة ونصها، كما قال ابن اسحاق فى السيرة: فحدثنى عبدالله بن أبى بكر أن رسول الله ٩ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم، فدعا رسول الله ٩ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون، بايعهم رسول الله ٩ على الموت، وكان جابر بن عبدالله يقول: إن رسول الله ٩ لم يبايعنا على الموت، ولكنا بايعنا على أن لا نفرّ.

لقد كان أبوسعيد ممن بايعوا رسول الله ٩ على أن لا تأخذهم فى الله لومة لائم، كما يحدثنا سهل بن سعد عن أبيه عن جده قال: بايعت النبى ٩ أنا وأبو ذر وعبادة بن الصامت ومحمد بن مسلمة وأبو سعيد الخدرى وسادس على أن لا تأخذنا فى الله لومة لائم، فاستقال السادس فأقاله (٣).

يوم أحد

رغبته فى أن يكون مقاتلًا فى معركة أحد حال دونها رفض رسول الله ٩ لأنه استصغره.. يقول أبو سعيد: عرضت يوم أُحد على النبى ٩ وأنا ابن ثلاث عشرة، فجعل أبى يأخذ بيدى ويقول: يا رسول الله! إنّه عبل ضخم العظام، و جعل نبى الله ٩ يصعِّد فى النظر ويصوِّبه، ثم قال ٩: رُدَّهُ، فردَّنى .. (٤)

وإن حرمه صغر سنّه عن وسام المشاركة فى هذه المعركة فقد نال أبوه رضى الله عنه وسام الشهادة الكبير، وأنه بعيد عن النار، ففى خبر كما فى السيرة النبوية لابن هشام أن رسول ٩ يوم أحد وقع فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ على بن أبى طالب ٧ بيد رسول الله ٩ ورفعه طلحة بن عبيدالله حتى استوى قائماً ومص مالك بن سنان أبو سعيد الخدرى الدم عن وجه رسول الله ٩ ثم ازدرده أى ابتلعه، فقال رسول الله ٩: من مس دمى دمه لم تصبه النار. وقد استشهد مالك بن سنان فى هذه الواقعة.

ابن الشهيد!

وإن لم يمنحه سنه فرصة قتال المشركين فى معركة أحد إلا أنه وتكريماً لمالك بن سنان ولابنه أبى سعيد أيضاً كان يدعوه رسول الله ٩ وبعض الصحابة: «ابن الشهيد»، كما ورد فى راوية طويلة يتحدث فيها أبو سعيد عن صحبته لعلى ٧ إلى اليمن، ورفض على ٧ استعمال إبل الصدقة من قبل أبى سعيد ومن معه ممن كان فى رفقة الإمام على ٧ قائلًا لهم:

«إنما لكم منها سهم كما للمسلمين».

إنه الحق والعدل والمساواة التى تميزت بها شخصية على ٧ ولم يدركها ويقدرها هؤلاء الأصحاب؛ مما جعل أبا سعيد يشكو ما يسمّونه غلظة على ٧ وتضييقه عليهم إلى رسول الله ٩ و هو ما تضمنه قوله: يا رسول الله ٩، ما لقينا من على من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق. وهنا يقول سعيد: فانتبذ أى اعتزل ناحية رسول الله ٩ وجعلت أنا أعدد ما لقينا منه حتى إذا كنت فى وسط كلامى ضرب رسول الله ٩ على فخذى، وكنت منه قريباً، وقال:

«سعد بن مالك ابن الشهيد، مه بعض قولك لأخيك على، فوالله، لقد علمت أنه أخشن فى سبيل الله».

١- أنظر: مختصر تاريخ دمشق ٢٧٢: ٩؛ أسد الغابة؛ السيرة لابن هشام ١٣٢: ٣؛ تهذيب الأسماء ٥١٨: ٢؛ الاستيعاب فى تمييز الأصحاب.

٢- الفتح: ١٨- ٢١.

٣- كتاب السيرة النبوية ٢٨٣: ۴؛ مختصر تاريخ دمشق ٢٧٥: ٩؛ الإصابة فى تمييز الصحابة ٣٥: ٢.

۴- سير أعلام النبلاء ١۶٩: ٣.

ص: ١٠٠

قال: فقلت فى نفسى: ثكلتك أمك، سعد بن مالك، ألا أرانى كنت فيما يكره منذ اليوم وما أدرى؟ لا جرم، والله لا أذكره بسوء أبداً سرّاً وعلانيةً (١).

وإن استصغر أبو سعيد الخدرى يوم أحد فرد، إلا أنه شارك بعد ذلك مع رسول الله ٩ فى اثنتى عشرة غزوة، بدءاً بمعركة الخندق التى كانت أول مشاهده وبيعة الرضوان ... (٢)

وعن الخدرى كما جاء فى أمالى الطوسى: أخبرنا الشيخ أبو جعفر الطوسى، عن أبى عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد [النعمان] عن أبى الحسن مُحَمَّد بن المظفر البزاز، عن أحمد بن عبيد العطاردى، عن أبى بشر بن بكير، عن زياد بن المنذر، عن أبى عبد الله مولى بنى هاشم، عن أبى سعيد الخدرى، قال: ... لما كان يوم أحد شجَّ النبىُّ ٩ فى وجهه وكُسِرت رباعيته، فقام ٩ رافعاً يديه يقول:

إنَّ الله اشتدَّ غضبه على اليهود أن قالوا: عزيرٌ ابن الله، واشتدَّ غضبه على النصارى أنْ قالوا: المسيح ابن الله، واشتدَّ غضبه على من أراق دمى، وآذانى فى عترتى (٣).

ومما رواه أبو سعيد عن مجريات معركة أحد كما فى مختصر تاريخ دمشق تفاصيل إصابة رسول الله ٩ كما فى الخبر عنه:

كان أبو سعيد الخدرى يحدث أن رسول الله ٩ أصيب وجهه يوم أحد، فدخلت الحلقتان من المغفر فى وجنته، فلما نزعتا جعل الدم يسرب كما يسرب الشن، فجعل أبى مالك بن سنان يملج الدم بفيه، ثم ازدرده، فقال رسول الله ٩: من أحب أن ينظر إلى من خالط دمه دمى فلينظر إلى مالك بن سنان. فقيل لمالك: تشرب الدم؟ فقال: نعم أشرب دم رسول الله ٩. فقال رسول الله ٩: من مس دمه دمى لم تصبه النار. قال أبوسعيد: فكنا ممن رد من الشيخين لم نجز مع المقاتلة، فلما كان من النهار، وبلغنا مصاب رسول الله ٩، وننظر إلى سلامته، فنرجع بذلك إلى أهلينا، فلقينا الناس منصرفين ببطن قناة، فلم يكن همة إلا النبى ٩ ننظر إليه، فلما نظر إلى قال: سعد بن مالك؟ قلت: نعم بأبى وأمى، فدنوت منه فقبلت ركبته وهو على فرسه، ثم قال: آجرك الله فى أبيك. ثم نظرت إلى وجهه فإذا فى وجنتيه مثل موضع الدرهم فى كل وجنة، وإذا شجة فى جبهته عند أصول الشعر، وإذا شفته السفلى تدمى، وإذا رباعيته اليمنى شظية، وإذا على جرحه شىء أسود. فسألت: ما هذا على وجهه؟ فقالوا: حصير محرق، وسألت: من دمى وجنتيه؟ فقيل: ابن قميئة. فقلت: من شجّه فى جبهته؟ فقيل: ابن شهاب. فقلت: من أصاب شفته؟ فقيل: عتبة. فجعت أعدو بين يديه حتى نزل ببابه، فما نزل إلا حملًا، وأرى ركبتيه مجحوشتين، يتكئ على السعدين: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، حتى دخل بيته.

فلما غربت الشمس وأذن بلال بالصلاة، خرج رسول الله ٩ على مثل تلك الحال، يتوكأ على السعدين، ثم انصرف إلى بيته، والناس فى المسجد يوقدون النيران، يتكمدون بها من الجراح، ثم أذن بلال بالعشاء حين غاب الشفق، فلم يخرج رسول الله ٩، وجلس بلال عند بابه حتى ذهب ثلث الليل، ثم ناداه: الصلاة يا رسول الله. فخرج رسول الله ٩ وقد كان نائماً. قال: فرمقته فإذا هو أخف فى مشيته منه حين دخل بيته، فصليت معه العشاء، ثم رجع إلى بيته وقد صف له الرجال ما بين بيته إلى مصلاه يمشى وحده حتى دخل، ورجعت إلى أهلى فخبرتهم بسلامة رسولالله ٩ فحمدوا الله على ذلك وناموا، وكانت وجوه الخزرج والأوس فى المسجد على باب النبى ٩ يحرسونه فرقاً من قريش أن تكر .. (٤)

عفته وطاعته!!

عرف هذا الصحابى بعفة النفس وشدة الامتثال لأمر رسول الله ٩ والأخذ بنصحه وإرشاده ولثقته المطلقة بوعد الله ورسوله ٩. لما سمع رسول الله ٩ يعد المتعففين عن المسألة بأن الله تعالى سيغنيهم من فضله وإحسانه وقد جاء يسأل الرسول ٩ وقد بلغت به الحاجة مبلغاً عظيماً حتى أنه ربط على بطنه الحجر من شدة الجوع إلاـ أنه آثر الصبر والاحتمال رجاء ما عندالله تعالى، وقد تحقق له ما وعد به رسول الله ٩ فأغناه الله من فضله.

ومما قاله أبو سعيد نفسه بعد استشهاد أبيه وبعد ما ألم بأهله العوز: استشهد أبى يوم أحد، وتركنا بغير مال، فأصابتنا حاجة شديدة. قال:

فقـالت لى أمى: أى بنى! ائت النبى ٩ فاسأله لنا شـيئاً. فجئته فسـلمت وجلست، وهو فى أصحابه جالس فقال واستقبلنى: إنه من استغنى أغناه الله، ومن اسـتعف أعفه الله، ومن اسـتكف أكفه الله. قال: قلت: ما يريد غيرى. فانصـرفت ولم أكلمه فى شـىء. فقالت لى أمى: ما فعلت؟ فأخبرتها الخبر. قال: فصبّرنا الله عز وجل ورزقنا شيئاً. فبلغنا، حتى ألحت علينا حاجة شديدة أشدّ منها. فقالت لى أمى: ائت النبى ٩ فاسأله لنا شيئاً. قال: فجئته وهو فى أصحابه جالس، فسلمت وجلست، فاستقبلنى وعاد بالقول الأول وزاد فيه: ومن سأل وله قيمة أوقية فهو ملحف. قال: قلت: الياقوتة ناقتى خير من أوقية، فرجعت ولم أسأله.. فرزق الله تعالى حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالًا منا (۵).

وعن هلال بن حصن قال: نزلت على أبى سعيد الخدرى فضمنى وإياه المجلس. قال: فحدث أنه أصبح ذات يوم وقد عصب على بطنه حجراً من الجوع فقـالت له إمرأته أو أمه: ائت النـبى ٩ فاسـأله فقـد أتـاه فلاـن فسأله فأعطاه وأتاه فلان فسأله فأعطاه. فقال: قلت: حتى ألتمس شيئاً، قال: فالتمست فأتيته، قال حجاج: فلم أجد شيئاً فأتيته وهو يخطب فأدركت من قوله وهو يقول:

«مَنِ اسْـتَعَفَّ يُعِفَّهُ اللهُ وَمَنِ اسْـتَغْنَى يُغْنِهِ اللهُ وَمَنْ سَأَلَنَا إِمَّا أَنْ نَبْـذُلَ لَهُ وَ إِمَّا أَنْ نُوَاسِـيَهُ ... وَمَنْ يَسْـتَعِفُّ عَنَّا أَوْ يَسْـتَغْنِى أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّنْ يَسْأَلُنَا».

قال: فرجعت فما سألته شيئاً، فما زال الله تعالى يرزقنا حتى ما أعلم فى الأنصار أهل بيت أكثر أموالًا منا (۶).

جرأته فى الحق!!

عمَّار والفئة الباغية: الخدرى يعرف جيداً أن معاوية وجنده وأتباعه هم أهل الباطل، كيف لا وهو الذى روى ما ذكره رسول الله ٩ بحق عمار بن ياسر أنه هو الذى تقتله الفئة الباغية، وهو ما حدث بالفعل فى معركة صفين حينما كان عمار يحمل راية الحق التى يمثلها أمير المؤمنين على ٧

١- انظر: مختصر تاريخ دمشق ٣٥١: ١٧.

٢- انظر: السيرة النبوية ٨۵: ٣.

٣- بحار الأنوار ٧١: ٢٠؛ وذكر هذه الرواية ايضاً صاحب كنز العمال، غزوة أحد: ٣٠٠۵٠

۴- انظر: مختصر تاريخ دمشق ٢٧۵: ٩- ٢٧۶.

۵- المصدر نفسه ٢٧۶: ٩- ٢٧٧.

۶- صحيح البخارى كتاب الزكاة باب الاستعفاف عن المسألة ١۵١: ٢- ١۵٢؛ صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الزكاة باب التحذير من الاغترار بزينة الدنيا ١۴۴: ٧- ١۴۵.

ص: ١٠١

ويخوض غمار معركة ضارية ضد جند الشام ومعاوية يقدمهم، فعن أبى سعيد الخدرى قال: ... كنا نعمر المسجد وكنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبى ٩ فجعل ينفض التراب عنه [عن رأس عمار خ ل] ويقول: [يا عمار] ألا تحمل كما يحمل أصحابك؟ قال: إنى أريد الأجر من الله تعالى.

قال: فجعل ينفض التراب عنه ويقول: ويحك تقتلك الفئة الباغية، تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار.

قال عمار: أعوذ بالرحمن- أظنه قال-: من الفتن (١).

ولأن أبا سعيد الخدرى ٢ كان قوالًا بالحق لا يخاف فى الله لومة لائم، كان لا يضنّ بكلمة نصح حتى للظالمين أو كلمة حق يقولها فى ساحتهم وفى بلاطهم، ومن مواقفه وأقواله التى هى مصداق لهذا:

موقفه من معاوية زعيم الفئة الباغية التى قتلت الصحابى الكبير عمار بن ياسر رضوان الله تعالى عليه فقد ذهب إلى معاوية بن أبى سفيان ليوصل إليه صوت الحق ولا يخاف لومة لائم، قال شعبة عن أبى سلمة: سمعت أبا نضرة عن أبى سعيد رفعه: لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يتكلم بالحق إذا رآه. وفى رواية: إذا شهده أو علمه. وقال أبو سعيد: فحملنى ذلك على أن ركبت إلى معاوية فملأت أذنيه ثم رجعت. وفى رواية أخرى: دخل أبو سعيد الخدرى على معاوية فسلم ثم جلس فقال: الحمد لله الذى أجلسنى منك هذا المجلس، سمعت رسول الله ٩ يقول: «لا يمنعن أحدكم، إذا رأى الحق أن يقول به»، وإنه بلغنى عنك يا معاوية كذا وكذا، وفعلت كذا وكذا. فعدد عليه أشياء من فعاله ومما بلغه عنه. فقال له معاوية: أفرغت؟ قال: نعم. قال: فانصرف. فخرج أبو سعيد من عنده وهو يقول: الحمدلله، الحمد لله.

موقفه من مروان بن الحكم: كان له موقف من الرجل الذى أنكر على مروان بن الحكم تقديم خطبة العيد على الصلاة، يشهد بذلك، فلم يكتف أبو سعيد الخدرى بتعضيده، بل أنكر بيده حيث جذب مروان محاولًا منعه من صعود المنبر لأداء الخطبة قبل الصلاة، غير أن مروان تغلب عليه وصعد المنبر وخطب قبل الصلاة، كما جاء ذلك فى صحيح مسلم.

ولم يكتف أبو سعيد الخدرى بتعضيد الذى أنكر على مروان بل أنكر أبو سعيد الخدرى على مروان بن الحكم تقديم الخطبة على الصلاة ولم يكتف أبو سعيد بالإنكار باللسان، بل أنكر بيده؛ حيث جذب مروان محاولًا منعه من صعود المنبر لأداء الخطبة قبل الصلاة، وكانا قد جاءا معاً، غير أن مروان تغلب عليه وصعد المنبر وخطب قبل الصلاة، كما جاء ذلك فى الصحيحين (٢).

ما حدث له فى واقعة الحرة

.. فى مدينة رسول الله ٩ وبعد أن أباحها مسلم بن عقبة ثلاثاً يقتلون الناس ويأخذون الأموال، فأفزع ذلك من كان بها من الصحابة، فخرج أبو سعيد الخدرى حتى دخل فى كهف فى الجبل، فبصر به رجل من أهل الشام، فجاء حتى اقتحم عليه الغار. قال أبو مخنف: فحدثنى الحسن بن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى، قال: دخل إلىّ الشامى يمشى بسيفه، قال: فانتضيت سيفى فمشيت إليه لأرعبه لعلّه ينصرف عنى، فأبى إلا الإقدام على، فلما رأيت أن قد جد شمت سيفى ثم قلت له:

لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (٣)

فقال لى: من أنت لله أبوك! فقلت: أنا أبو سعيد الخدرى، قال: صاحب رسول الله ٩؟ قلت: نعم، فانصرف عنى (۴).

ومن طريق يزيد بن عبد الله بن الشخير، قال: خرج أبو سعيد يوم الحرة فدخل غاراً فدخل عليه شامى فقال: أخرج. فقال: لا أخرج وإن تدخل على أقتلك فدخل عليه فوضع أبو سعيد السيف وقال: بؤ بإثمك قال: أنت أبوسعيد الخدرى؟ قال: نعم. قال: فأستغفر لى.

وتعرض للضرب والاعتداء على يد جيش يزيد بن معاوية بعد واقعة الحرة.. يقول عن ذلك: لزمت بيتى ليالى الحرة فلم أخرج، فدخل علىّ نفر من أهل الشام فقالوا: أيها الشيخ! أخرج ما عندك. فقلت: ما عندى مال. قال: فنتفوا لحيتى وضربونى ضربات، ثم عمدوا إلى بيتى فجعلوا ينقلون ما خفّ لهم من المتاع، حتى أنهم عمدوا إلى الوسادة والفراش فينفضون صوفهما ويأخذون الظرف، حتى لقد

رأيت بعضهم أخذ زوج حمام كان فى البيت، ثم خرجوا (۵).

مما قاله علماء الرجال فى توثيقه وعلمه واستقامته

الخدرى والذى كان أحد الثابتين فكرياً على معرفة الحق، وأحد الراسخين فى دعم الحقيقة، له فى كتب الرجال مكانة مرموقة واحتل منزلة كبيرة فى أقوالهم، ونحن هنا نتطرق باختصار إلى ما تيسر لنا من كل ذلك.

و قبل أن نذكر أقوال العلماء فيه نذكر ما قاله الإمام الصادق ۷ عنه حيث ذكره بتبجيل وتكريم، ونصّ على استقامته فى طريق الحق: «كان من أصحاب رسول الله ۹، وكان مستقيماً».

۱- كشف الغمة ۳۵۸: ۱.

۲- مختصر تاريخ دمشق ۲۷۴: ۹؛ الإصابة فى تمييز الصحابة ۳۵: ۲. وغيرهما.

۳- المائدة: ۲۸.

۴- تاريخ الطبرى ۳۵۷: ۳، أحداث سنة ۶۳.

۵- مختصر تاريخ دمشق ۲۷۸: ۹.

ص: ١٠٢

من أصحاب رسول الله ٩، رجال الشيخ (٣). وعدّه فى أصحاب أميرالمؤمنين ٧ قائلًا: سعد بن مالك الخزرجى، يكنى أبا سعيد الخدرى الأنصارى العربى المدنى (٢). وعده البرقى فى أصحاب رسول الله ٩، قائلا: «وأبوسعيد الخدرى الأنصارى: عربى مدنى، واسمه سعد بن مالك، خزرجى.

وفى الأصفياء من أصحاب أميرالمؤمنين ٧ قائلًا: «أبوسعيد الخدرى عربى أنصارى.

وقال الكشى فى ترجمة أبى أيوب الأنصارى: «قال الفضل بن شاذان: هو من السابقين الذين رجعوا إلى أميرالمؤمنين ٧».

وتقدم فى ترجمة جندب بن جندب الغفارى فى رواية العيون عن الرضا ٧ عدّه من الذين مضوا على منهاج نبيهم ٧ ولم يغيروا ولم يبدلوا. وقال الكشى فى ترجمته: أبوسعيد الخدرى: حمدويه، قال: حدثنا أيوب عن عبدالله بن المغيرة، قال: حدثنى ذريح عن أبى عبدالله ٧، قال: ذكر أبوسعيد الخدرى فقال: كان من أصحاب رسول الله ٩ وكان مستقيماً، فقال: فنزع ثلاثة أيام فغسله أهله ثم حملوه إلى مصلاه، فمات فيه.

محمد بن مسعود، قال: حدثنى الحسين بن أشكيب، قال: أخبرنا محسن بن أحمد، عن أبان بن عثمان، عن ليث المرادى، عن أبى عبدالله ٧ قال: «إن أبا سعيد الخدرى كان قد رزق هذا الأمر وإنه اشتدّ نزعه فأمر أهله أن يحملوه إلى مصلاه الذى كان يصلى فيه، ففعلوا فما لبث أن هلك».

حمدويه قال: حدثنا يعقوب بن يزيد، عن ابن أبى عمير، عن الحسين بن عثمان، عن ذريح، قال: سمعت أبا عبدالله ٧، يقول: كان على بن الحسين ٨، يقول: «إنى لأكره للرجل أن يعافى فى الدنيا ولا يصيبه شىء من المصائب. ثم ذكر أن أبا سعيد الخدرى وكان مستقيماً- نزع ثلاثة أيام فغسله أهله ثم (حملوه) حمل إلى مصلاه فمات فيه.

وطريق الصدوق إليه فى وصية النبى ٩، إلى على ٧، التى أولها: «يا على إذا دخلت العروس بيتك»: محمد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقانى ٢ عن أبى سعد الحسن بن على العدوى، عن يوسف بن يحيى الإصبهانى أبى يعقوب، عن أبى على إسماعيل ابن حاتم، قال: حدثنا أبوجعفر أحمد بن زكريا بن سعيد المكى، قال: حدثنا عمر بن حفص عن إسحاق بن نجيح عن حصيف، عن مجاهد، عن أبى سعيد الخدرى (١).

كما شهد بمناقبه الفريق الآخر وأنه كان من فقهاء الصحابة وفضلائهم البارعين، فعن حنظلة بن أبى سفيان الجمحى، عن أشياخه أنهم قالوا: لم يكن من أحداث الصحابة أفقه من أبى سعيد الخدرى، وفى رواية: أعلم. (٢)

وقال ابن كثير: كان من نجباء الصحابة، وفضلائهم، وعلمائهم.

وقال الخطيب البغدادى: وكان أبو سعيد من أفاضل الأنصار، وحفظ عن رسول الله ٩ حديثاً كثيراً ..

قال الإمام الذهبى: الإمام المجاهد مفتى المدينة حدث عن النبى ٩ فأكثر وأطاب.

وهو من المكثرين من الحديث وكان من أفقه أحداث الصحابة.

وقالوا عنه: إنه روى عن النبى ٩ الكثير.

وروى عن الخلفاء الأربعة، وغيرهم.

روى عنه من الصحابة: ابن عباس وابن عمر وجابر، وغيرهم.

روى عنه من كبار التابعين: سعيد بن المسيب، وأبو عثمان النهدى، وطارق بن شهاب، ومن بعدهم عطاء، ومجاهد، وغيرهم.

وقالوا: إنه روى أبو سعيد الخدرى ألفاً ومائة وسبعين حديثاً بالمكرر، اتفق البخارى ومسلم على ثلاثة وأربعين حديثاً، وانفرد البخارى بستة عشر حديثاً، وانفرد مسلم باثنين وخمسين حديثاً (٣).

ملاحظة مهمة

كان أبو سعيد الخدرى رضوان الله تعالى عليه مكثراً للرواية كما ذكرنا، ولهذا الأمر أسبابه التى منها:

إن أبا سعيد أعلن إسلامه وهو ما زال صغيراً، فكان له عند قدوم النبى ٩ المدينة إحدى عشرة سنة، و هو سن صفاء الذهن والقدرة على الحفظ والتحصيل.. وكان لملازمته الطويلة للنبى ٩ والتى دامت عشر سنوات وهى المدة التى قضاها ٩ بالمدينة المنورة لم يفارقه أبوسعيد فيها.. وكان لتأخر وفاته، دور كبير فى منحه وقتاً كافياً لتبليغ ما تحتفظ به ذاكرته من أحاديث وما يتوفر عليه من علوم، فقد عاش بعد وفاة النبى ٩ فترة زمنية طويلة، نحو خمس وستين سنة، وفى هذه الفترة احتاج الكثيرون إلى علمه، فتكاثر عليه طلاب العلم ينهلون من علمه ويحفظون عنه ما سمع من رسول الله ٩، وحدّث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين، ويشهد بهذا أسناد رواياته، وقام هؤلاء بتبليغ ما سمعوا منه ..

١- انظر النهاية:؛ رجال الحديث للسيد الخوئى، رجال النجاشى:؛ أمالى الطوسى،؛ تاريخ بغداد:،؛ سير أعلام النبلاء:،؛ تاريخ دمشق:؛ الوافى بالوفيات:.

٢- أنظر: أسد الغابة فى معرفة الصحابة؛ والإصابة فى تمييز الصحابة.

٣- انظر فى هذا كله من ترجم له، كسير أعلام النبلاء ١۶٨: ٣؛ الإصابة فى تمييز الصحابة ٣۵: ٢؛ ومختصر تاريخ دمشق ٢٧٨: ٩- ٢٧٩. تهذيب التهذيب ۴١۶: ٣؛ و المعارف: ١۵٣؛ الاستيعاب ۴٨٩: ۴؛ أسد الغابة ٢٨٩: ٢؛ والإصابة ٣۵: ٢.

ص: ١٠٣

هذا، ولتعدد مصادر التحمل بالنسبة لأبى سعيد أهميته فى كثرة رواياته، فكما تحمل الحديث عن الرسول ٩ فلقد تحمل الحديث عن كبار الصحابة.. وأيضاً لتفرغه للتحديث والفقه، مما جعله أن يكون أحد الفقهاء المحدثين ..

هذا، وأن هناك قواسم مشتركة جامعة بين الصحابة المكثرين لرواية الأحاديث عن رسول الله ٩ يتمثل بطول ملازمتهم لرسول الله ٩ وإن اختلفوا فى مدتها، وبتأخر وفاتهم، فلقد مكثوا بعد وفاة الرسول ٩ فترة زمنية كان فيها متسع لأن يحدثوا الناس ويستفيد هؤلاء من علمهم. كما أن مصادر تحملهم تعددت، فنراهم قد تحملوا عن رسول الله ٩ وتحملوا عن كبار الصحابة، وإن كانوا فى الأعم الأغلب يحذفون الواسطة بينهم وبين الرسول ٩ لثقتهم بمن حدثوهم. ولم ينفردوا بما حدثوا به عن رسول الله ٩ بل شاركهم غيرهم من الصحابة فى رواية كثير مما رووا، فروايات أبى سعيد الخدرى لحديث الغدير ولحديث الثقلين ولغيرهما لم ينفرد بروايتها وحده، بل هناك العديد من الصحابة رووا هذه الأحاديث .... ولهذا نجدهم يروى أحدهم عن عدد، وعدد يروى عنهم، كما هو الحال مع أبى سعيد الخدرى؛ فقد روى عن النبى ٩ مباشرة وعن أبيه وأخيه لأمه قتادة بن النعمان، وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وزيد بن ثابت وأبى قتادة الأنصارى، وعبدالله بن سلام وأسيد بن حضير، وابن عباس وأبى موسى الأشعرى، ومعاوية وجابر بن عبد الله.

وعنه ابنه عبد الرحمن وزوجته زينب بنت كعب بن عجرة، وابن عباس، وابن عمر، وجابر، وزيد بن ثابت، وأبو أمامة بن سهل ومحمود بن لبيد وابن المسيب، وطارق بن شهاب وأبو الطفيل وعطاء بن أبى رباح، وعطاء بن يسار وعطاء بن يزيد وعياض بن عبد الله بن أبى سرح، والأغر بن مسلم وبشر بن سعيد وأبو الوداك وحفص بن عاصم، وحميد بن عبد الرحمن بن عوف وأخوه أبو سلمة بن عبد الرحمن، ورجاء بن ربيعة والضحاك المشرقى، وعامر بن سعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن خباب، وسعيد بن الحارث الأنصارى، وعبد الله بن محيريز، وعبد الله بن أبى عتبة مولى أنس، وعبد الرحمن بن أبى نعم، وعبيد بن حنين، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة، وعبد الرحمن بن بشر بن مسعود، وعبيد بن عمير، وعقبة بن عبد الغافر، وعكرمة، وعمرو بن سليم وقزعة بن يحيى ومعبد بن سيرين، ونافع مولى بن عمر، ويحيى بن عمارة بن أبى حسن، ومجاهد، وأبو جعفر الباقر، وأبو سعيد المقبرى، وأبو عبد الرحمن الحبلى، وأبو عثمان النهدى، وأبو سفيان مولى بن أبى أحمد، وأبو صالح السمان، وأبو المتوكل الناجى، وأبو نضرة العبدى، وأبو علقمة الهاشمى، وأبو هارون العبدى وغيرهم.

قال حنظلة بن أبى سفيان عن أشياخه: وروى عن خلائق غيرهم ..

حبه وولاؤه لأئمة أهل البيت النبوى

لقد عاصر هذا الصحابى الجليل من المعصومين الرسول الأعظم ٩ فنال بذلك وسام الصحبة المباركة فكان ممن حمل معه الأمانة ... وممن بذل كل غال ونفيس من أجل إعلاء كلمة الحق، وكان ممن حفظ عن رسول الله ٩ سنناً كثيرة وروى عنه علماً جماً، وكان من نجباء الأنصار وعلمائهم وفضلائهم ..

وقد عاصر أربعة من أئمة أهل البيت: بدءاً بالإمام على، ثم الإمام الحسن، والإمام ا لحسين، والإمام على بن الحسين ٨ وكان واعياً صادقاً فى ولائه لهم.. ويعدّ من أجلاء الصحابة الذين كانت لهم مواقف مشرفة مع أئمة أهل البيت: .. انطلاقاً من صدق حبه ومودته لهم، وتحمل الأذى فى سبيله هذا.

فهو إضافة إلى أنه لم يترك مرافقة أمير المؤمنين على ٧، وكان إلى جانبه فى معركة النهروان، ظل ولاؤه مستمراً مدافعاً عنه حتى بعد انتقال الإمام على إلى جوار ربه ..

وهذه واحدة من رواياته رضوان الله تعالى عليه فى حب أئمة أهل البيت:

تقول الرواية: حدَّثنا مُحَمَّد بن الفضل بن زيدويه الجلاب الهمدانى، قال: حدَّثنا إبراهيم بن عمرو الهمدانى، قال: حدَّثنا الحسن بن إسماعيل، عن سعيد بن الحكم، عن أبيه، عن الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبىسلمة، عن أبى سعيد الخدرى، قال رسول الله

٩: «من رزقه الله حبَّ الأئمة من أهل بيتى فقد أصاب خير الدنيا والآخرة، فلا يشكّنَّ أحد أنَّه فى الجنة، فإنَّ فى حب أهل بيتى عشرين خصلة، عشر منها فى الدنيا وعشر منها فى الآخرة؛

أما التى فى الدنيا فى الزهد، والحرص على العمل، والورع فى الدين، والرغبة فى العبادة، والتوبة قبل الموت، والنشاط فى قيام الليل، واليأس مما فى أيدى الناس، والحفظ لأمر الله ونهيه عزَّ وجلَّ، والتاسعة بغض الدنيا، والعاشرة السخاء.

وأما التى فى الآخرة، فلا ينشر له ديوان، ولا ينصب له ميزان، ويعطى كتابه بيمينه، ويكتب له براءة من النار، ويبيض وجهه، ويكسى من حلل الجنة، ويشفع فى مائة من أهل بيته، وينظر الله عزَّ وجلَّ إليه بالرحمة، ويتوج من تيجان الجنة، والعاشرة يدخل الجنة بغير حساب.

فطوبى لمحبى أهل بيتى» (١).

ونحن هنا نكتفى بما رواه أبو سعيد فى أمهات المسائل التى ابتنى عليها المذهب الإمامى:

وكان فى عداد رواة حديث الثقلين وحديث الغدير، وحديث المنزلة ... وهى التى شكلت أسس المذهب الإمامى، الذى يستقى علومه وأحكامه وأصول اعتقاده من مدرسة أهل البيت:، وهم العدل الثانى فى حديث الثقلين المشهور.. وكان من الذين شهدوا لعلى ٧ بالولاية يوم الغدير:

١- أنظر: الخصال ٥١٥: ٢، ح ١.

ص: ١٠٤

روى أن علياً ٧ قام فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أنشِدُ الله من شهد يوم غدير خُمٍّ إلّا قام.. فقام سبعة عشر رجلًا، وكان أبو سعيد الخدرى واحداً منهم.

وقد ذكره الشيخ المفيد فى كتاب الجمل فى عداد من بايع أمير المؤمنين علياً ٧ قائلًا فى مقدمة ذلك: ونحن نذكر الآن من جملة مبايعى أمير المؤمنين ٧ الراضين بإمامته الباذلين أنفسهم فى طاعته ... إلى أن قال: فممن بايع أمير المؤمنين ٧ بغير ارتياب ودان بإمامته على الإجماع والاتفاق، واعتقد فرض طاعته والتحريم لخلافه ومعصيته، الحاضرون معه فى حرب البصرة وهو ألف وخمسمائة رجل من وجوه المهاجرين الأولين السابقين إلى الإسلام والأنصار البدريين العقبيين وأهل بيعة الرضوان، من جملتهم سبعمائة من المهاجرين وثمانمائة من الأنصار سوى أبنائهم وحلفائهم ومواليهم وغيرهم من بطون العرب والتابعين بإحسان ...

وعد من الأنصار «أبو سعيد الخدرى» واحتل فى قائمة الشيخ المفيد الرقم الرابع.. (١)

فأين هذا الكلام مما أورده السيد الأمين دون رد فى كتابه فى رحاب أئمة أهل البيت الجزء الثانى الصفحة ۴ تحت عنوان (المتخلفون عن بيعته) وبعد أن ذكر ما قالته بعض المصادر عن القاعدين عن بيعته ٧ قال: ونحن نذكر أسماء المتخلفين مأخوذة من مجموع ما ذكره هؤلاء وهم: ... أبو سعيد الخدرى ...

ولم أجد فى مروج الذهب ولا فى أسد الغابة هذا، إلا أن الطبرى ذكر ذلك بسنده عن عبد الله بن الحسن قال: لما قتل عثمان بايعت الأنصار علياً إلا نفيراً يسيراً منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدرى و ... كانوا عثمانية (٢).

وهو خبر واحد مضادّ بغيره ومخالف لسيرة الرجل ومواقفه ورواياته وشهادته للإمام بحديث الغدير ..

إلا أنى لم أجد فى كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقرى المتوفى سنة ٢١٢ هجرية اسمه فيمن شارك إلى جانب الإمام على ٧ فى معركة صفين، ولم أجد لغيابه عن هذه المعركة تفسيراً ..

وقد شارك فى معركة النهروان، وله فيها حديث رواه عن رسول الله ٩ حيث قال: سمعت رسول الله ٩ يقول:

«إنَّ قَوماً يخرُجُون، يَمرُقون مِن الدِّينِ مروق السَّهم مِن الرميةِ ..»

وفى الخرائج والجرائح (٣) روى عن أبى سعيد الخدرى ... أنَّ النبىَّ ٩ قسَّم يوماً قسماً، فقال رجل من تميم: اعدلْ، فقال: ويحك ومن يعدل إذا لم إعدل؟!

قيل: نضرب عنقه؟

قال: لا، إنَّ له أصحاباً يحقِّر أحدكم صلاته وصيامه مع صلاتهم وصيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، رئيسهم رجل أدعج إحدى ثدييه مثل ثدى المرأة.

قال أبو سعيد: إنى كنت مع على حين قتلهم فالتمس فى القتلى [بالنهروان] فأتى به على النعت الذى نعته رسول الله ٩.

وقد امتاز العديد من رواياته الكثيرة بنقل مآثر و مناقب رسول الله ٩ و آل البيت: ونحن نكتفى بشىء منها.

وبداية نذكر روايته هذه التى توضح رأيه ووصفه الذى لم يحد عنه، وهو يجيب حين سئل عن على ٧:

عن مالك المازنى، قال: أتى تسعة نفر إلى أبى سعيد الخدرى، فقالوا:

يا أبا سعيد! هذا الرجل الذى يكثر الناس فيه ما تقول فيه؟

فقال: عمَّن تسألونى؟

قالوا: نسأل عن علىّ بن أبى طالب ٧

قال: أما إنكم تسألونى عن رجل أمرّ من الدفلى، وأحلى من العسل، وأخف من الريشة، وأثقل من الجبال، أما والله ما حلا إلا على ألسنة المؤمنين، وما خفَّ إلا على قلوب المتقين، ولا أحبه أحد قط لله ولرسوله إلا حشره الله من الآمنين، وإنه لمن حزب الله، وحزب

الله هم الغالبون.

والله ما أمرَّ إلا على لسان كافر، ولا أثقل إلا على قلب منافق، وما زوى عنه أحد قط ولا لوى ولا تحزب ولا عبس ولا بسر ولا عسر ولا مضر ولا التفت ولا نظر ولا تبسم ولا تجرَّى ولا ضحك إلى صاحبه ولا قال أعجب لهذا الأمر، إلا حشره الله منافقاً مع المنافقين.

وَسَيَعْلَمُ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُوْنَ. (۴)

۱- انظر الصفحة ۱۰۵ من كتاب الجمل.

۲- تاريخ الطبرى ۶۹۸: ۲. دار الكتب العلميةبيروت.

۳- الخرائج و الجرائح ۶۸: ۱، ح ۱۲۷.

۴- الشعراء: ۲۲۷.

ص: ١٠٥

نأتى الآن إلى أحاديث أخرى:

حديث الثقلين

وقد جاء هذا الحديث بصيغ متعددة وبطرق عديدة عن مجموعة من الصحابة والتابعين، حتى قال ابن حجر فى صواعقه: ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضعه وعشرين صحابياً ... وأبو سعيد الخدرى كان واحداً من الصحابة الذين قال السمهودى على ما روى عنه المناوى فى فيض القدير: وفى الباب ما يزيد على عشرين من الصحابة..

... عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ٩: «إِنِّى تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ الآخَرِ: كِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلى الأَرْضِ وَعِتْرَتِى أَهْلُ بَيْتِى، وَإِنَّهُمَا لنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَىَّ الحَوْضَ».

... عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ٩ قال: «إِنِّى أُوشِكُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ وَإِنِّى تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَل وَعِتْرَتِى، كِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلى الأَرْضِ وَعِتْرَتِى أَهْلُ بَيْتِى، وَإِنَّ اللطِيفَ الخَبِيرَ أَخْبَرَنِى أَنَّهُمَا لنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَىَّ الحَوْضَ فَانْظُرُونِى بِمَ تَخْلُفُونِى فِيهِمَا».

... عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ٩: «إِنِّى قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ الآخَرِ؛ كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَل حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِى أَهْلُ بَيْتِى، أَلا إِنَّهُمَا لنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَىَّ الحَوْضَ».

... عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ٩: «إِنِّى قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لنْ تَضِلُّوا بَعْدِى، الثَّقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ الآخَرِ؛ كِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِى أَهْلُ بَيْتِى، أَلَا وَإِنَّهُمَا لنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَىَّ الحَوْضَ» (١).

آية التطهير و حديث الكساء

عن أبى سعيد الخدرى عن النبى قال حين نزلت: وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ قال: «كان نبى الله يجيئ إلى باب على الغداة ثمانية أشهر» فيقول: «الصلاة يرحمكم الله إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.

عن أبى سعيد الخدرى قال: «إن رسول الله جاء إلى باب على أربعين صباحاً بعد ما دخل على فاطمة الزهراء ٣ فقال: «السلام عليكم أهل البيت! ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمكم الله، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».

عن أبى سعيد الخدرى عن النبى قال حين نزلت: وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها (٢) كان يجيء نبى الله ٩ إلى باب على صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول: الصلاة، رحمكم الله إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.

عن أبى سعيد الخدرى فى قوله تعالى: إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا. قال: «نزلت فى خمسة: رسول الله وعلى وفاطمة والحسن والحسين» (٣).

وفى أمالى الشيخ الطوسى (٤): أخبرنا أبو عمر، قال: أخبرنا أبو العباس، عن يعقوب بن يوسف بن زياد، عن مُحَمَّد بن إسحاق بن عمار، عن هلال بن أيوب الصيرفى ... عن عطية قال: سألت أبا سعيد الخدرى عن قوله تعالى: إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.

قال:

نزلت فى رسول الله ٩ وعلى وفاطمة والحسن والحسين:.

حديث المنزلة

رواة هذا الحديث من الصحابة أكثر من ثلاثين، وربّما يبلغون الأربعين بين رجل وامرأة. يقول ابن عبد البر فى الإستيعاب عن هذا الحديث: هو من أثبت الأخبار وأصحّها.

وأبو سعيد واحد منهم:

قال رسول الله ۹ لعلى بن أبى طالب ۷ فى غزوة تبوك: اخلفنى فى أهلى.

فقال على ۷: يا رسول الله! إنى أكره أنْ يقول العرب: خذل ابن عمه وتخلف عنه.

فقال: أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟

قال: بلى.

۱- راجع: صحيح الترمذى ۳۰۸: ۲، وابن حجر فى صواعقه، والمتقى فى كنز العمال؛ والطبرانى فى الكبير؛ وراجع: فضائل الخمسة فى الصحاح الستة وغيرها من كتب أهل السنة ۵۲: ۲- ۶۰. انظر سنن الترمذى. كتاب المناقب عن الرسول. باب مناقب أهل بيت النبى. رقم: ۳۷۱۸. و مسند أحمد بن حنبل. كتاب باقى مسند المكثرين. باب مسند أبى سعيد الخدرى. رقم: ۱۰۶۸۱، ۱۰۷۰۷، ۱۰۷۷۹، ۱۱۱۳۵.

۲- طه: ۱۳۲.

۳- انظر: مختصر تاريخ دمشق ۳۴۲: ۹؛ طبقات المحدثين ۱۴۹: ۴، ح ۹۱۵؛ أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط ۱۵۲: ۸، ح ۸۱۲۷؛ الدارقطنى فى المؤتلف والمختلف ۲۱۲۱: ۴؛ الخطيب فى المتفق والمفترق ۱۱۵۸: ۲، ح ۷۲۳.

۴- أمالى الطوسى ۲۵۴: ۱، ح ۲۸.

ص: ١٠۶

قال ٩: فاخلفنى.

وفى رواية قوله ٩ لعلى ٧: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى».

سفينة نوح

وفى كفاية الأثر (١): حدَّثنا على بن الحسين [الحسن خ ل] بن مُحَمَّد بن مبدة [مندة خ ل] قال: حدَّثنا أبو مُحَمَّد هارون بن موسى رضى الله عنه قال: حدَّثنا أحمد بن مُحَمَّد بن [سعيد] قال: حدَّثنا مُحَمَّد بن غياث الكوفى، قال: حدَّثنا حماد بن أبى حازم المدنى قال: حدَّثنا عمران بن مُحَمَّد بن سعيد بن المسيب، عن أبيه عن جده، عن أبى سعيد الخدرى، قال: ...

صلى بنا رسول الله ٩ الصلاة الأولى ثُمَّ أقبل بوجهه الكريم علينا فقال: معاشر أصحابى! إنَّ مَثَلَ أهل بيتى فيكم كمثل سفينة نوح وباب حطَّة فى بنى إسرائيل، فتمسَّكوا بأهل بيتى بعدى والأئمة الراشدين من ذريتى فإنكم لن تضلوا أبداً.

فقيل: يا رسول الله! كم الأئمة بعدك؟

فقال: اثنا عشر من أهل بيتى، أو قال: من عترتى.

معرفة المنافقين

حدثنا قتيبة، حدثنا جعفر بن سليمان، عن أبى هارون، عن أبى سعيد الخدرى، قال: «إنّا كنّا لنعرف المنافقين نحن معشر الأنصار لبغضهم علىَّ بن أبى طالب» (٢).

خاصف النعل

وفى بحار الأنوار (٣) عن أمالى الشيخ الطوسى: أبو عمر، عن ابن عقدة، عن يعقوب بن يوسف، عن أحمد بن حماد، عن فطر بن خليفة وبريد بن معاوية العجلى، عن إسماعيل بن رجاء، عن أبيه، عن أبى سعيد الخدرى، قال: ...

خرج إلينا رسول الله ٩ وقد انقطع شسع نعله فدفعها إلى على ٧ يصلحها، ثُمَّ جلس وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير.

فقال: إنَّ منكم لمن يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت الناس على تنزيله.

فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟

قال: لا.

فقال عمر: أنا يا رسول الله؟

فقال: لا، ولكنه خاصف النعل.

قال أبو سعيد: فأتينا علياً ٧ نبشره بذلك فكأنه لم يرفع به رأساً فكأنه قد سمعه قبل.

يوم الغدير

حديث الغدير، هذا الحديث الذى بلغ حد التواتر عند جميع المسلمين وحفظته أمهات المصادر، من الأحاديث التاريخية الهامة و المصيرية التى أدلى بها رسول الله ٩ فى السنة الأخيرة من حياته المباركة، و هى من الأحاديث التى تثبت إمامة الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ٧ و توجب ولايته على جميع المؤمنين بعد ولاية الله تعالى و ولاية رسوله المصطفى ٩ بكل صراحة و وضوح.

ثم إن حديث الغدير حديث متواتر رواه المحدثون عن أصحاب النبى ٩ و عن التابعين بصيغٍ مختلفة، تؤكد جميعها على إمامة الإمام أمير المؤمنين ٧، مراده الأصلى واحد و إن اختلفت بعض عبارات الحديث.

الخوارزمى عن أبى سعيد الخدرى ٢ قال: إن النبى ٩ لما دعا الناس إلى غدير خم، أمر بما كان تحت الشجرة من شوك، فقم، وذلك يوم الخميس، ثم دعا الناس إلى على فأخذ بضبعه فرفعها، حتى نظر الناس إلى بياض إبطيه، ثم لم يتفرقا حتى نزلت هذه الآية: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَ رَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً (۴).

فقال رسول الله ۹: «الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة ورضى الرب برسالتى والولاية لعلى. ثم قال:

۱- كفاية الأثر: ۳۳- ۳۴.

۲- انظر: الترمذى، المناقب عن الرسول، ح ۳۶۵۰.

۳- بحارالأنوار ۲۹۶: ۳۲، ح ۲۵۶.

۴- المائدة: ۴.

ص: ١٠٧

«اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله».

فقال حسان بن ثابت: يا رسول الله! أتأذن لى أن أقول أبياتاً؟

فقال: «قل ببركة الله تعالى». فقال:

يناديهم يوم الغدير نبيهم

بخم وأسمع بالرسول مناديا

بأنى مولاكم نعم ووليكم

فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا

إلهك مولانا وأنت ولينا

ولا تجدن فى الخلق للأمر عاصيا

فقال له: قم يا على فإننى

رضيتك من بعدى إماماً وهاديا

فمن كنت مولاه فهذا وليه

فكونوا له أنصار صدق مواليا

هناك دعا اللهم وال وليه

وكن للذى عادى علياً معاديا.

وفى مختصر تاريخ دمشق عن أبى سعيد الخدرى:

أما نصب رسول الله ٩ علياً بغدير خم، فنادى له بالولاية، هبط جبريل ٧ بهذه الآية: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَ رَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً (١).

وقال أيضاً: نزلت هذه الآية: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (٢) على رسول الله ٩ يوم غدير خم فى على بن أبى طالب (٣).

الراية

وعن أبى سعيد قال: أخذ رسول الله ٩ الراية فهزها، ثم قال: من يأخذها بحقها؟ فجاء الزبير فقال: أنا، فقال: أمطَ أى «تنح». ثم قام رجل فقال: أنا، فقال: أمط. ثم قام آخر فقال: أنا، فقال: أمط، فقال رسول الله ٩: والذى أكرم وجه محمد، لأعطينها رجلًا لا يفر بها. هاك يا على، فقبضها، ثم انطلق حتى فتح الله عليه فدك وخيبر، وجاء بعجوتها وقديدها (۴).

ولاية على ٧

وفى أمالى الشيخ المفيد: ٩٠، مجلس ١٧، ح ٣: حدَّثنا الشيخ الجليل المفيد، قال: أخبرنى أبو الحسن على بن بلال المهلّبى، قال: حدَّثنا عبد الله بن راشد الأصفهانى، قال: حدَّثنا إبراهيم بن مُحَمَّد الثقفى، قال: أخبرنا إسماعيل بن صبيح، قال: حدَّثنا سالم بن أبى سالم البصير.

عن أبى هارون العبدى، قال: كنت أرى [رأى] الخوارج لا رأى لى غيره حتَّى جلست إلى أبى سعيد الخدرى رحمه الله فسمعته يقول: أمر الناس بخمس، فعملوا بأربع وتركوا واحدة.

فقال له رجل: يا أبا سعيد! ما هذه الأربع التى عملوا بها؟

قال: الصلاة والزكاة والحج وصوم شهر رمضان.

١- المائدة: ۴.

٢- المائدة: ۶٧.

٣- انظر: مختصر تاريخ دمشق ٢٥٩: ١٧؛ ينابيع المودة: ١١٥. ومصادر أخرى.

۴- مختصر تاريخ دمشق ٣٣٠: ٩.

ص: ١٠٨

قال: فما الواحدة التى تركوها؟

قال: ولاية على بن أبى طالب ٧.

قال الرجل: وإنَّها لمفترضة؟

قال أبو سعيد: نعم، ورب الكعبة.

قال الرجل: فقد كفر الناس إذن!

قال أبو سعيد: فما ذنبى؟

وهذه متفرقات ممّا رواه أبو سعيد الخدرى:

حمل الحديث

وفى حثه على حمل الأحاديث عبر التحدث بها وتذاكرها فإن إحياء الحديث بتذاكره والعمل به، وبذلك يتم حفظ أحاديث رسول الله ٩ والمعرفة بها والتوسع فى فهمها خصوصاً بين أهله وترويجها وتبليغها وعدم نسيانها، لأنه وكما ورد فى الحديث الشريف: «آفة العلم النسيان، وإضاعته أن تحدث به غير أهله».

وهو ما ورد عن الإمام على ٧ حدثنا وكيع، قال حدثنا كهمس بن الحسن عن عبد الله بن بريدة أنه قال: قال على: «تزاوروا وتذاكروا الحديث فإنكم إن لم تفعلوا يدرس».

لهذا جاءت العبارة التى أصبحت شعاراً للمذاكرة، وهى قولهم: «إحياء الحديث مذاكرته». ومنها انطلق هذا الصحابى فى حثه الناس على التحدث لما فى ذلك من فوائد كبيرة.. ومن فوائد التحدث والمذاكرة فى الحديث أنه سبب كبير وداع عظيم للتنافس المحمود بين طلبة العلم.

فعن على بن الجعد أنه قال: حدثنا شعبة عن سعيد بن يزيد سمع أبا نضرة يحدث عن أبى سعيد قال: تحدثوا فإن الحديث يهيج الحديث. (١)

ثواب صلاة الجماعة

وفى بحار الأنوار (٢): روى الشهيد الثانى ١ فى شرحه على الإرشاد من كتاب الإمام والمأموم للشيخ أبى محمد جعفر بن القمى بإسناده المتصل إلى أبى سعيد الخدرى، قال:

قال رسول الله ٩: «أتانى جبرئيل مع سبعين ألف ملك بعد صلاة الظهر، فقال: يا مُحَمَّد! إنَّ ربك يقرئك السلام وأهدى إليك هديتين لم يهدهما إلى نبيٍّ قبلك، قلت: وما تلك الهديتان؟

قال: الوتر ثلاث ركعات، والصلاة الخمس فى جماعة.

قلت: يا جبرئيل! وما لأمتى فى الجماعة؟

قال: يا مُحَمَّد! إذا كانا اثنين كتب الله لكل واحد بكل ركعة مائة وخمسين صلاة، وإذا كانوا ثلاثة كتب لكل واحد بكل ركعة ستمئة صلاة، وإذا كانوا أربعة كتب الله لكل واحد بكل ركعة ألفاً ومئتى صلاة، وإذا كانوا خمسة كتب الله لكل واحد بكل ركعة ألفين وأربعمئة، وإذا كانوا ستة كتب الله لكل واحد بكل ركعة أربعة آلاف وثمانمئة صلاة، وإذا كانوا سبعة كتب الله لكل واحد بكل ركعة تسعة آلاف وستمئة صلاة، وإذا كانوا ثمانية كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة تسعة عشر ألفاً ومئتى صلاة، وإذا كانوا تسعة كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة ستة وثلاثين ألفاً وأربعمئة صلاة، وإذا كانوا عشرة كتب الله لكل واحد بكل ركعة سبعين ألفاً وألفين وثمانمئة صلاة، فإنْ زادوا على العشرة فلو صارت السماوات كلها مداداً والأشجار أقلاماً، والثقلان مع الملائكة كُتّاباً لم يقدروا أن يكتبوا ثواب ركعة واحدة.

يا مُحَمَّد! تكبيرة يـدركها المؤمن مع الإمام خير من ستين ألف حجة وعمرة، وخير من الدنيا وما فيها سـبعين ألف مرة، وركعة يصـليها المؤمن مع الإمام خير من مئـة ألف دينار يتصـدق بها على المساكين، وسـجدة يسـجدها المؤمن مع الإمام فى جماعة خير من عتق مئة رقبة.

وعن طول يوم القيامة تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (۳).

نسب إلى أبى سعيد أنه قال: قيل: يا رسول الله! ما أطول هذا اليوم؟!

فقال: والذى نفس محمد بيده إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا.

۱- انظر أحمد بن حنبل فى مسنده؛ ومختصر تاريخ دمشق؛ وكنز العمال؛ وغيرها.

۲- بحارالأنوار ۱۴: ۸۸- ۱۵، ح ۲۶.

۳- المعارج: ۴.

ص: ١٠٩

وأبو سعيد الخدرى من رواة حديث اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ كما فى سيرة ابن هشام (١).

والحديث: أن جبريل ٧ أتى رسول الله ٩ حين قبض سعد بن معاذ من جوف الليل معتجراً بعمامة من إستبرق، فقال: يا محمد! من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش؟

فقام رسول الله ٩ سريعاً يجر ثوبه إلى سعد، فوجده قد مات.

«إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». رواه الشيخان البخارى ومسلم.

وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى ٩ قال:

«إن فى الجنة مئة درجة، ولو أن العالمين اجتمعوا فى إحداهن وسعتهم».

وقال سعيد بن منصور: حدثنا خلف بن خليفة عن العلاء بن المسيب عن أبيه عن أبى سعيد قلنا له: هنيئاً لك برؤية رسول الله ٩ وصحبته قال: إنك لا تدرى ما أحدثنا بعده.

قال ابن أبى سلمة: قلت لأبى سعيد الخدرى: ما ترى فى ما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم؟ فقال:

يا ابن أخى كُل لله، واشرب لله، وكلّ شىء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف.

المرأة تسأل

هناك اهتمام أكيد من قبل الإسلام بالمرأة المسلمة، واهتمام متميز من قبل الرسول ٩ واحترام واضح لما تريده مادام لا يخالف شريعة ولا منهجاً دينياً وأخلاقياً واجتماعياً.. وكانت المرأة فى ذلك الوقت لها رأيها وهى ذات مكانة عظيمة راحت تسخرها لخدمة المشروع الإسلامى.. حتى برزت طائفة من النساء العالمات المبلغات، فقد روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ٩ فقالت: يا رسول الله! ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه، تعلمنا مما علمك الله، قال: اجتمعن يوم كذا وكذا، فاجتمعن، فأتاهنّ النبى ٩ فعلمهن مما علمه الله.. وقد تبادرن النساء إلى مجالس الرسول الخاصة بهن، وقد أثنى رسول الله ٩ عليهن ودعا لهن فقال: «رحم الله نساء الأنصار لا يمنعهن حياؤهن أن يسألن عن أمور دينهن».

وفاته

وحتى قبيل وفاته لم يترك الرواية عن رسول الله ٩ وقد ضمن وصاياه العديدة قولًا لرسول الله ٩.

فعن ابنه عبد الرحمن أن أباه قال له: يا بنى! إنى قد كبرت سنى وحان منى، خذ بيدى، فاتكأ على حتى جاء البقيع مكاناً لا يدفن فيه فقال: إذا أنا هلكت فادفنى هاهنا، ولا تضربن على فسطاطاً ولا تمشين معى بنار، ولا تبك على باكية، ولا تؤذنن أحداً، وليكن مشيك بى خبباً. فجعل الناس يأتونى فيقولون: متى تخرج به؟ فأكره أن أخبرهم وقد نهانى، فقلت: إذا فرغت من جهازه، فخرجت به من صدر يوم الجمعة، فوجده البقيع قد ملئ على ناساً.

ولما حضرته الوفاة تقول ابنته: لما حضر أبو سعيد بعث إلى نفر من أصحاب رسول الله ٩ فيهم: ابن عباس وابن عمر وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله فقال: لا يغلبنكم ولد أبى سعيد، إذا أنا مت فكفنونى فى ثيابى التى كنت أصلى فيها وأذكر الله فيها ...

وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: دخلت على أبى سعيد الخدرى عند موته فدعا بثياب جدد فلبسها ثم قال: سمعت رسول الله ٩ يقول: إن الميت يبعث فى ثيابه التى يموت فيها. فإذا مت فلا تتبعونى بنار ولا تجعلوا على قطيفة حمراء ولا تبك على باكية.

ومن وصاياه أيضاً عند احتضاره: إذا حملتم فأسرعوا، أى أسرعوابى.

توفى هذا الصحابى الجليل رضوان الله عليه فى خلافة عبد الملك بن مروان، وحين استولى الحجاج على الكعبة بعد قتله عبد الله بن

الزبير، وكان عمر أبى سعيد الخدرى ٧۴ سنة، بالمدينة يوم الجمعة. وقال أبو الحسن المدائنى: مات سنة (۶٣)، وقال العسكرى: مات سنة (۶۵) ..

ويقال: قبره يقع فى خارج البقيع فى الجهة الشرقية الشمالية منه على قارعة الطريق المؤدى للحرة الشرقية، وقد اختار أبو سعيد هذا المكان ليدفن فيه فى حياته، فيما يقال: إنه دفن بالبقيع نفسه، إلى جوار قبر فاطمة بنت أسد رضوان الله تعالى عليها.

١- سيرة ابن هشام ٢۶٢: ٣.

ص: ۱۱۰

ص: ١١١

ص: ۱۱۲

أجوبة الاستفتاءات آيةالله العظمى السيد على الخامنئى

الاقتداء بأهل السنّة

س: هل تجوز الصلاة خلف السنة جماعة؟

ج: تجوز الصلاة جماعة خلفهم إذا كانت للحفاظ على الوحدة الإسلامية.

س: محل عملى يقع فى إحدى المناطق الكردية، وأكثرية أئمة الجمعة والجماعة هناك هم من أهل السنة، فما هو حكم الاقتداء بهم؟ وهل تجوز غيبتهم؟

ج: لا إشكال فى المشاركة فى الصلاة معهم فى جمعتهم وجماعاتهم، وأما الغيبة فليجتنب عنها.

س: فى أماكن المعاشرة والمخالطة مع أبناء السنة عند المشاركة فى صلواتهم اليومية، نعمل مثلهم فى بعض الموارد، مثل الصلاة مع التكتف، عدم رعاية الوقت والسجود على السجاد، فهل مثل هذه الصلاة تحتاج إلى إعادة؟

ج: إذا كان حفظ الوحدة يقتضى ذلك كله فالصلاة معهم صحيحة ومجزية، حتى وإن كان بالسجود على السجاد وأمثال ذلك، ولكن لا يجوز التكتف فى الصلاة معهم إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك.

ص: ۱۱۳

س: فى مكة والمدينة نصلى جماعة مع أبناء السنة وذلك استناداً إلى فتوى سماحة الإمام الخمينى ۱، وفى بعض الأوقات ومن أجل إدراك فضيلة الصلاة فى المسجد كأداء صلاة العصر أو صلاة العشاء بعد صلاة الظهر والمغرب نصلى فرادى فى مساجد أهل السنّة من دون تربة ونسجد على السجاد، فما هو حكم هذه الصلوات؟

ج: فى الفرض المذكور محكومة بالصحة.

س: كيف تكون مشاركتنا نحن الشيعة فى الصلاة فى مساجد البلدان الأخرى مع أبناء السنة حيث يصلون مكتوفى الأيدى؟ وهل يجب علينا المتابعة فى التكتف مثلهم، أو نصلى بلا تكتف؟

ج: يجوز الاقتداء بأهل السنّة إذا كان لأجل رعاية الوحدة، والصلاة معهم صحيحة ومجزية، ولكن لا يجب، بل لا يجوز التكتف فيها، إلا إذا كانت هناك ضرورة تقتضى ذلك أيضاً.

س: عند المشاركة فى صلاة الجماعة مع أهل السنة ما هو حكم التصاق خنصر القدم بخنصر قدمى الشخصين الواقفين على طرفى المصلى فى حال القيام التى يلتزمون بها؟

ج: لا يجب ذلك، ولو فعله لم يضرّ بصحة الصلاة.

س: أبناء السنة يصلون المغرب قبل أذان المغرب، ففى موسم الحج أو فى غيره هل يصح لنا الاقتداء بهم والاكتفاء بتلك الصلاة؟

ج: ليس معلوماً أنهم يصلون قبل الوقت، ولكن لو لم يحرز المكلف دخول الوقت لم يصح منه الدخول فى الصلاة، إلا إذا اقتضت مراعاة الوحدة ذلك أيضاً، فلا مانع حينئذ من الدخول فى الصلاة معهم وفى الاكتفاء بتلك الصلاة.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹